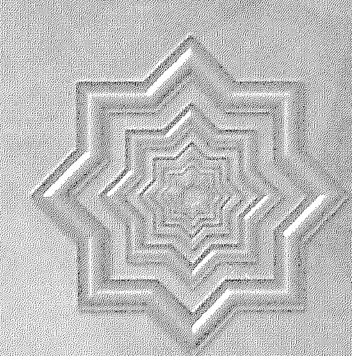
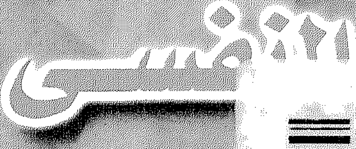
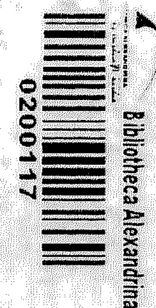
د.محمد محروس الشناوى



بحوث فى التوجيه الإسلامى للإرشاد والعلاج النفسى









موسوعة الإرشاد والعلاج النفسى

(٢)

بحوث فى
التوجيه الإسلامى للإرشاد والعلاج النفسى

الدكتور محمد محروس الشناوى

أستاذ علم النفس - كلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



الـكـتـاب : بحوث فى التوجيه الإسلامى للإرشاد والعلاج النفسى

المؤلـف : د / محمد محروس الشناوى

رقم الإيداع : ٢٠٤٢

تاريخ النشر : ٢٠٠١

الترقيم الدولى . I. S. B. N. 977 - 215 - 485 - 4

الـنـاشـر دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)

ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

الـتـوزيـع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقى الفجالة – القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم { ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣

تصدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد. فإن الممارس للعمل الإرشادى والعلاجى يتلقى بين ما يتلقاه من معارف مجموعة من النظريات الغربية تزيد وتنقص وتتعدد مسمياتها بتعدد مؤلفيها حتى يخيل إليه كما عبر عن ذلك واحد من علماء النفس الغربيين أنه «وسط غابة متلاطمة الأشجار، وحين ينتهى من التعرف على هذه النظريات يجد نفسه بين تقاربات وتعارضات، وسط افتراضات فلسفية أو مقولات أدبية يبنى عليها المنظرون نظرياتهم وكل منهم يدعى أن نظريته هى الأفضل وأنها هى التى تحقق الشفاء»..

ووسط هذا الكم الكبير مما كتب عن الإرشاد والعلاج النفسى فى الغرب يتلفت المرشدون والمعالجون النفسيون المسلمون فى حيرة وتردد، فهم فى حيرة من أنهم يجدون بين أيديهم ما يوجه عملهم على أساس من المنهج الإسلامى، وتردد في أن يطبقوا ما يتعلمونه من أساليب غريبة على النحو الذى يتعلمونه أو يقرأون عنه بما فيه من جوانب لا تناسب طبيعة المجتمعات الإسلامية والشخصية المسلمة. ووسط هذه الحيرة وهذا التردد تبدو أهمية التوجيه الإسلامى للعلوم الإنسانية وبصفة خاصة علم النفس الذى يتعامل مع البشر وعقولهم ومشاعرهم وسلوكهم.

والكتاب الذى بين أيدينا والذى أحمد الله أن وفقنى إلى تقديمه للمرشدين والمعالجين النفسيين إنما هو خطوة على طريق طويل قد بدأه كثير من الباحثين الجادين ظهرت أعمالهم مشجعة وموفقة بفضل من الله ولا يزال هذا الطريق بحاجة إلى جهود الكثيرين ليضيفوا إليه ما ينفع المرشدين والمعالجين المسلمين ويوجههم فى عملهم.

ويشتمل الكتاب على ثمانية بحوث ، سبق أن ألقيت بعضا منها فى ندوات علمية متخصصة كما نشرت بعضا منها فى مجلات علمية متخصصة وهذه البحوث هى :

١ – الإسلام والصحة النفسية .

٢ – شخصية المسلم فى كتابات الإمام ابن القيم .

٣ – الأهداف العامة لمساعدة الأفراد على مواجهة مشكلاتهم النفسية كما تعرضها نظريات الإرشاد والعلاج النفسى الغربية ، دراسة تقويمية فى ضوء المنهج الإسلامى .

٤ – نحو نموذج إسلامى للإرشاد والعلاج النفسى. دراسة نقدية لنظريات الإرشاد والعلاج النفسى الغربية.

٥ – الإرشاد والعلاج النفسى من منظور إسلامى .

٦ – التصوير الإسلامى لنماذج السلوك البشرى، دراسة نفسية إسلامية .

٧ – أنموذج رياضة الأخلاق عند الغزالى ومقارنته بأنموذج العلاج السلوكى الحديث.

٨ – نموذج إسلامى لتفسير الغضب وعلاجه.

والله أسأل أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المؤلف

ربيع الثانى ١٤٢٠ هـ ، أغسطس ١٩٩٩م

المحتويات



البحث الأول

«الإسلام والصحة النفسية»

* نشر هذا البحث فى كتيب مقالات فى السلوك الإنسانى إصدار - مستشفى الصحة النفسية - بالرياض. ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م ص١٦-٢٦.



الإسلام والصحة النفسية

لم يعد مفهوم الصحة النفسية مقصوراً على الخلو من الأمراض والاضطرابات النفسية وإنما تجاوز ذلك إلى اعتبار الشخص صحيحاً من الناحية النفسية إذا توافرت فيه مجموعة من الخصائص مثل الفاعلية والكفاءة والمرونة وتوافر علاقات اجتماعية سوية والثقة فى النفس وتحمل المسئولية والقدرة على مواجهة الظروف الصعبة وغير ذلك.

ولا شك أن التربية السليمة من شأنها أن تزود الفرد بطاقات إيجابية تساعده على أن يكون أكثر توافقاً فى حياته يشعر بالرضا والإرضاء.

وإذا نظرنا إلى المنهج الإسلامى وما يقدمه للأفراد والمجتمعات من جوانب أساسية تساعدهم على التوافق فى معايشهم وبالتالى على التمتع بالصحة النفسية لوجدنا هذا المنهج فى الواقع أغنى وأقوى ما يعين الأفراد والجماعات على التمتع بها. ويمكن أن نشير إلى مجموعة من الخطوط الرئيسية، ذلك أن تغطية هذا الموضوع تغطية كاملة قد يحتاج إلى مجلدات لمناقشته.

فأولا : ربط المنهج الإسلامى الفرد بهدف سام فجعل غاية حياته عبادة الله سبحانه وتعالى وحده. وفى إطار هذه الغاية أنيط بالإنسان الخلافة فى الأرض والقيام على عمرانها مما يجعله فى دافع دائم للسلوك الذى يحافظ به على تحقيق ذلك.

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات: ٥٦)

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين﴾ (الأنعام: ١٦٢)

ولو أخذنا هذا الجانب وحده - لوجدنا أنه يمثل قمة ما يساعد الفرد على تحقيق التوافق والصحة النفسية، فلقد نادت بعض النظريات الخاصة بالعلاج

النفسى التى تهتم بمشكلة المصابين بالأمراض النفسية والتى يأتى القلق بفروعه المختلفة فى مقدمتها أن هؤلاء المرضى إنما يعانون من فراغ وجودى فهم لايعرفون غاية لوجودهم وحياتهم مما يوقعهم فى هذا القلق. والمسلم لا يشعر ولا يعايش هذا القلق لأنه يعرف غاية حياته وهى عبادة الله سبحانه وتعالى وحده .

كذلك فإن التردى فى الجهالة وعدم الاعتقاد فى وجود بعث بعد الموت جعل كثيراً من الغربيين يعايشون قلقًا شديدًا فى أواخر حياتهم ، يؤدى بكثير منهم إلى الاكتئاب وإلى قضاء بقية أعمارهم فى مصحات الأمراض النفسية فى الوقت الذى نجد فيه المسلم الذى عَمُرَ قلبه بالإيمان وأدرك أنه راجع إلى ربه يتشوق إلى أن يختم حياته بمزيد من العمل ومزيد من الاجتهاد فى العبادة – وليس أدل على هذا من ذلك الكم الكبير من المعتمرين والحجاج من كبار السن الذين يقبلون على أداء المناسك تحت أى ظروف .

هكذا منحت العقيدة الإسلامية للمسلم أول مفاتيح التوافق – فالمسلم يعرف أنه مكلف بعبادة الله وحده والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

المسلم الذى يؤمن بالقدر خيره وشره لا يمكن أن يحزن لذهاب الشباب أو لفقدان عزيز أو لخسارة فى المال أو ضياع فرصة للترقية أو لإصابة فى بدنه. والمسلم لايصل به الحزن إلى اليأس من روح الله لأنه لا يأس من روح الله إلا مع الكفر .

﴿إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ (يوسف ٨٧)

ولا يصل به الأمر الى الانتحار فالإسلام يحرم قتل النفس

﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾ (النساء ٢٩)

وإذا كان القلق والخوف والاكتئاب إنما هى فى الواقع نتيجة الإحساس

بانعدام الأمن فإن المسلم قد أغناه الله من فضله بأمن يستقيه من الإيمان وطمأنينة تزوده بها العبادات وذكر الله.

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾

(الأنعام : ٨٢)

فالأمن النفسى عنصر هام من عناصر تحقيق الصحة النفسية ، وإذا كان هذا الأمن مستمداً من الإيمان الحق فإنه لا شك يساعد الفرد على سرعة استعادته لتوافقه .

عن أبى يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» (رواه مسلم) .

وثانيا : تزودنا الشريعة الإسلامية الغراء بما يكفى لحماية حياة الإنسان من الضرر وبذلك فهى تمثل ركناً أساسياً على طريق الوقاية من المرض النفسى، ذلك أن الفقهاء يحددون مقاصد الشريعة فى المحافظة على الدين والنفس والعقل والنسل والمال .

ومن هنا وضع الفقهاء مجموعة كبيرة من القواعد الفقهية التى تساعد على تنظيم حياة المجتمع بما فيه من أفراد وجماعات ، وترقى به إلى أعلى مستوى عرفته البشرية – وقسم الفقهاء حاجات الناس إلى ضروريات وحاجيات وتحسينيات ، فالضروريات هى ما لاغنى للفرد عنه إذ يهلك إذا غابت عنه لفترة طويلة مثل الطعام، والحاجيات هى ما يجعل الحياة أكثر يسراً مثل وجود ما ينتقل به الإنسان، والتحسينيات هى ما تجمل به الحياة مثل الترحيب بالضيف وإكرامه .

ولو نظرنا إلى أسباب الأمراض النفسية لوجدنا فى مقدمتها ما يحدث من إحباط للدوافع والحاجات، وما ينشأ من صراع حول إشباع بعض الحاجات

وكذلك الانطلاق فى طلب إشباع الحاجات من أى مصدر وبأى طريقة ، وهو ما يمثل الدوافع الأولى فى ارتكاب جرائم مثل القتل والسرقة والزنا ، بل يؤدى إلى الاتجار فى المحرمات .

والإسلام لم يمنع الإنسان من إشباع حاجاته بل إن ما ذكره القرآن الكريم من حاجات للإنسان يفوق ما ذكرته جميع نظريات الدوافع - كما أن الإسلام يتفوق عليها جميعاً فى أنه وضع أسساً وضوابط لإشباع الحاجات يمكن أن نجملها فى ثلاث قواعد أساسية .

١ - أن يتحقق بإشباع الحاجة الوفاء بعبادة الله سبحانه وتعالى وعمارة الأرض .

٢ - أن يكون إشباع الحاجة من مصدر حلال.

٣ - التزام الاعتدال فى إشباع هذه الحاجات.

لقد نظمت الشريعة الإسلامة حياة الناس بما يقل معه الصراع بينهم بشكل كبير ، بل أكثر من ذلك فإن الشريعة الإسلامية دعت إلى التعاون والتكافل والتراحم والإحسان ، بل والإيثار، وهذه كلها جوانب تساعد على تقوية بنيان المجتمع والجماعات ، وتقلل الصراع إلى حد كبير بين طبقات المجتمع .

وثالثاً : جاء الإسلام مطهراً لنفوس البشر- يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث فقد حرم الإسلام الخمر وهى أم الكبائر ، ويتبعها فى هذا التحريم المخدرات بصورها المختلفة ، كما حرم التعامل بالربا، وحرم الزنا وقتل النفس، وهذه كلها من البلايا التى ابتليت بها المجتمعات الغربية - فالنظام الربوى أوجد ظروفاً يترتب عليها إفلاس كثير من التجار مما يسلمهم إلى الاكتئاب فالانتحار، وانتشار المخدرات والخمور يؤدى إلى كثير من الحوادث التى يترتب عليها إزهاق النفس البريئة، وغياب العقل والجنون والإصابة بأمراض مختلفة بالإضافة إلى انتشار الجرائم .

ورابعاً : أن الإسلام يدعو إلى مكارم الأخلاق ، فهو يدعو إلى الصدق وإلى الأمانة وعدم الغش والوفاء بالعهد وعدم التكبر ومساعدة الضعفاء وغير ذلك كثير مما يساعد على تحقيق السلام بين أفراد المجتمع ويساعدهم على التمتع بالصحة النفسية.

وخامساً : أن الإسلام يهتم بجانب المسئولية – فقد كرم الله الإنسان فى خلقه له بيديه وإعلان ذلك بنفسه جل وعلا وإسجاد ملائكته له وتسخيره ما فى السموات وما فى الأرض له ، وتفضيله على كثير من خلقه ، وإرسال الرسل منه وإليه لهدايته. وقد جعل الإسلام كل فرد مسئولا عن نفسه وعن عمله لا يحاسب والد بولده ولا ابن بأبيه .

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ (المدثر: ٣٨)

﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (الإسراء ١٥)

ولو تحقق للفرد تحمله للمسئولية فإنه يتحقق له جانب كبير من جوانب الصحة النفسية ، ذلك أن كثيراً من الأمراض النفسية إنما يرجع إلى عدم تحمل المسئولية والهروب منها حتى أن الأمراض العقلية الخطيرة مثل الفصام قد تكون هروباً من المسئولية فى صورة انفكاك عن الواقع.

وسادسًا : إن الإسلام يساعد الفرد على بناء شخصيته وتعديله لهذه الشخصية بمحاسبته نفسه دائما ، ويعطيه وسائل العلاج الذاتى من العبادة والاستغفار والتوبة والصبر والذكر وغيرها مما يساعد الفرد على استعادة توازنه النفسى فى أى موقف يطرأ له ، وبذلك يواجه المواقف بما تستحق .

سابعاً : ينظم الإسلام العلاقات بين الأفراد ، بين الزوج وزوجته وبين الآباء والأبناء وبين الجيران بعضهم وبعض ، وبين أولى الأرحام، وبين المتعاملين فى تعاقدات وتجارات بما يتحقق معه دائما وجود المودة والرحمة .

ويمكننا أن نختم كلامنا بأن نقول إن الإسلام الذى جاء هدى للبشر من

خالقهم سبحانه وتعالى إنما زود المؤمنين بوسائل تحقق لهم الأمن النفسى وتجعلهم فى قمة الصحة النفسية من خلال إيمانهم واستقامتهم .

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (الأحقاف١٣)

إن معيار الصحة النفسية الذى وضعه الإسلام ليس معياراً وضعياً من صنع البشر وإنما هو معيار حدده لهم خالقهم جل وعلا.

﴿يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠)

﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾ (الشمس: ٦-١٠)

﴿من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (النحل ٩٧)

ولا شك فى أن اتباع المسلم للمنهج الإسلامى اتباعاً صادقاً هو خير ما يساعده على بناء شخصية سوية متوافقة ، وخير ما يقيه مما يمكن أن يحدث له نتيجة لما يلم به من ملمات وخير ما يعالجه حين ينتابه الوهن والقلق والخوف والاكتئاب.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يهيئ للمسلمين اتباع دينهم الحنيف ليجدوا فى جنباته متعة نفوسهم وراحة أفئدتهم ، وليصلوا إلى النفوس المطمئنة التي تسعد فى دنياها وآخرتها .

* * *

البحث الثانى

التصور الإسلامى لشخصية المسلم فى جانب من كتابات الإمام ابن القيم

* نشر فى مجلة رسالة التربية وعلم النفس الصادرة عن الجمعية السعودية للعلوم التربويه والنفسية العدد الخامس الرياض ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ص ص ٧٧- ١٣٢ .



التصور الإسلامى لشخصية المسلم
فى جانب من مؤلفات الإمام ابن القيم

ملخص البحث :

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على التصور الإسلامى لشخصية المسلم كما يصورها العلامة ابن قيم الجوزية فى جانب من مؤلفاته.

ونلخص فكر الإمام ابن القيم حول شخصية الإنسان، وهى أن الإنسان مخلوق ذو خصوصية فى الخلق والتكريم، ومخلوق لعبادة الله سبحانه وتعالى وحده ، وكل أعماله تدور فى هذا المسار، ويولد على الفطرة، والفطرة هى الإسلام والخير، وأن للأبوين دوراً مهما فى تربية الطفل وتنشئته على القيام بالواجب الذى من أجله خُلق وهو عبادة الله والالتزام بما شرع، فى الوقت الواحد لا يكون للإنسان إلا نفس واحدة هى السائدة، فهى إما أمارة أو مطمئنة أو لوامة، إن النفس الإنسانية بداخلها أحوال بتفاعلها بعضها مع بعض، هى النفس الأمارة ، والنفس المطمئنة، والنفس اللوامة.

إن النفس المطمئنة هى التى تحتكم إلى الإيمان وتستفيد فى الحكم من العقل، وهى التى تشبع حاجات الدنيا وتلبى مطالب الآخرة، والنفس الأمارة هى التى تستجيب لنزغات الشيطان الذى يلبس عليها دينها وحياتها، فترى الخير قبيحاً، وترى القبيح جميلاً. وإن الظاهر الذى يبدو إما قلب صحيح قد التزم صاحبه بالإيمان، أو قلب مريض قد خضع صاحبه للشيطان، وإن بداية الأعمال الظاهرة خواطر أو أفكار باطنة، والنفس دائماً تتعامل مع الخواطر والأفكار.

وهذه تتعامل مع الإرادات فإذا نجحت فإن الإرادات تأمر الجوارح، فيخرج العمل من الباطن إلى الظاهر.

مقدمة

يقع موضوع الشخصية من علم النفس المعاصر موقع القلب من الجسم. وبالرغم من أن علم النفس يُعد من العلوم الحديثة نسبيًّا، إلا أنه قد تواردت عليه مدارس ونظريات شتى تختلف باختلاف الظروف والثقافات التى نشأ فيها واضعوها، حتى لا نكاد نرى مدرسة تتفق مع الأخرى فى وجهتها.

ولأن دراسة الشخصية تعنى بشكل أوبآخر دراسة الجانب النفسى للإنسان بوجه عام، أو بمعنى أدق دراسة الأنماط المتسقة من سلوك الإنسان، كان من الطبيعى أن يصبح صعباً أن تتفق فيه الآراء، أو يكون خاضعاً للتجريب المطلق على النحو الذى تعرفه العلوم الطبيعية، فالإنسان قبل كل شىء مخلوق له خصوصيته من حيث الخَلق والتكريم، له ظاهر قد يسهل فى بعض الأحيان ملاحظته والحكم عليه، وله أيضا باطن قد يصعب حتى على الفرد نفسه أن يلاحظه بدقة أو يفسره تفسيراً مقبولاً.

ومادامت دراسة الشخصية تأخذ فى اعتبارها الأنماط المتسقة من سلوك الفرد، فإنها بغير شك لابد آخذة فى اعتبارها المؤثرات الداخلية والمؤثرات الخارجية التى تؤثر فى هذا السلوك. ومن هنا يصبح من الصعب – إن لم يكن من المستحيل – أن نعزل دراسة شخصية الفرد عن البيئة المحيطة به. ومن هنا نجد أنه من غير المناسب أن يستعير أى مجتمع نظريات للشخصية تطورت فى مجتمعات أخرى تختلف عنه فى المعتقدات والعادات والقيم، ومن هنا أيضاً كان لابد للباحث المسلم أن يبحث عن التصور الإسلامى لطبيعة الإنسان من حيث الخير والشر، وعلى مفهوم إسلامى للدوافع، ومفهوم إسلامى للسلوك السوى والسلوك المنحرف.

من هذه المنطلقات تأتى هذه الدراسة كمحاولة للتعرف على التصور الإسلامى لشخصية المسلم كما يصورها العلامة ابن قيم الجوزية فى جانب من مؤلفاته .

التعريف بالإمام ابن قيم الجوزية [1]

هو الإمام السلفى العلامة محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد الزرعى الدمشقى، المعروف بابن قيم الجوزية.

وُلد الإمام ابن القيم سنة ٦٩١هـ (١٢٩٢م) فى بيت متواضع، ونشأ محبا للعلم والعلماء منكبا على التحصيل، فكان مولعا بجمع الكتب كما كان يتفنن فى ترتيبها وتبويبها. وقد تتلمذ ابن القيم على أكثر علماء عصره، ودرس الفقه والتفسير والتوحيد واللغة والتاريخ، كما عنى عناية خاصة بدراسة الفرق الإسلامية برعاية شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد أخذ عنه الكثير ولازمه إلى آخر حياته، وأولع بكتاباته وانكب على دراستها، وقام بتهذيبها وتبويبها ونشرها بين الناس، وكان ينتصر له فى جميع ما يصدر عنه، وسجن معه فى قلعة دمشق، وأطلق من معتقله بعد موت شيخه ابن تيمية.

وللعلامة الإمام ابن القيم تصانيف كثيرة عدها البعض بأكثر من ستين مصنفاً من أشهرها :

* زاد المعاد فى هدى خير العباد (خمسة أجزاء).
* الروح.
* طريق الهجرتين وباب السعادتين.
* إعلام الموقعين (أربعة أجزاء).

---

(١) انظر فى ترجمة الإمام ابن القيم مقدمة المحقق لكتاب إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان للإمام ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقى (جزءان)، نشر دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.

* تحفة المودود فى أحكام المولود.
* أحكام أهل الذمة (مجلدان).
* إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (مجلدان).
* الفوائد.
* الوابل الصيب من الكلم الطيب.
* عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين.
* الجواب الكافى (الداء والدواء).
* بدائع الفوائد.
* التبيان فى أقسام القرآن.
* مدارج السالكين فى منازل إياك نعبد وإياك نستعين (ثلاثة مجلدات).
* الطب النبوى (وهو جزء من زاد المعاد).
* مفتاح دار السعادة منشور ولاية أهل العلم والإرادة.
* روضة المحبين.

وقد توفى الإمام ابن قيم الجوزية عام ٧٥١هـ (١٣٥٢م) مخلفاً وراءه محبة فى قلوب تلاميذه، وثروة زاخرة من العلم قائمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ما الشخصية ؟

اختلف الباحثون اختلافاً بيناً فى تحديد المفهوم النفسى للشخصية حتى أن ألبورت (Allport) – وهو من أبرز من اهتموا بالجانب التنظيرى لمفهوم الشخصية – قد راجع ما يزيد على خمسين تعريفاً للشخصية قبل أن يضع تعريفه الخاص.

وفى اللغة فإن لفظة « شخص» كما يعُرفها الفيروز أبادى فى القاموس

المحيط معناها «سواد الإنسان وغيره تراه من بُعد» [٢].

ويدل هذا المعنى على عدم اكتمال التفاصيل لدى المشاهد، وهو معنى يعبر إلى حد بعيد عن فكرة الشخصية فى علم النفس الحديث.

لقد جاء اصطلاح الشخصية فى بعض اللغات الأوربية (مثلا فى اللغة الإنجليزية Personality) مشتقا من كلمة persona ، ومعناها القناع، وهى ترجع إلى الأقنعة التى كان الممثلون فى المسرح الإغريقى يضعونها على وجوههم للقيام بأدوار خاصة تعبر عنها هذه الأقنعة ، وانتقلت هذه الأقنعة بعد ذلك إلى المسرح الرومانى، ولأن هذه الأقنعة كانت تخفى الملامح الحقيقية للممثل، فإن الظاهر الذى يبدو عليه هو الذى يعلق بأذهان المشاهدين، وهو يمثل جانباً من مفهوم الشخصية باعتبارها ذلك الجزء أو الجانب الذى يختاره الشخص ليظهر به أمام الناس.

لقد ظهرت تعريفات كثيرة للشخصية مع ظهور علم النفس باعتباره علماً مستقلاً، وانقسم الباحثون فى رؤيتهم للشخصية إلى مجموعات متباينة.

فالذين نظروا للشخصية على أنها القناع Persona (Mask) ينظرون إليها على أنها الذات العامة للشخص ، أى ذلك الجانب الذى يظهره للناس من نفسه أو الجانب الذى نختاره من أنفسنا لنعرضه للعالم، وهذا النوع من التعريفات يدل على أن هناك جانبا غير ظاهر من الشخصية [٣] .

أما المجموعة الثانية من التعريفات فتتعامل مع الشخصية باعتبارها المجموعة المركبة من الاستجابات، وتبعاً لهذه النظرة يكون الشخص هو ما يقوم به من أفعال. وتركز تعريفات الشخصية فى هذه المجموعة على السلوك الظاهر ، وتقلل من أهمية المكونات غير الظاهرة (غير المرئية) من الشخصية،

---

(٢) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادى : القاموس المحيط، بيروت : دار الفكر، ١٤٠٣/ ١٩٨٣م ج٢، ص٣٠٦.

(٣) انظر على سبيل المثال سيد غنيم : سيكولوجية الشخصية محدداتها، قياسها، نظرياتها. القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٨م، وانظر أيضًا : Christopher F. Monte, Beneath the Mask. An Introduction to Theories of Personality New York : Praeger Publishers, 1977 .

والذين يوافقون على هذا الرأى يقولون : إننا إذا أردنا أن نحدد خصائص شخصية إنسان ما فعلينا ببساطة أن نلاحظ كيف يسلك هذا الشخص فى المواقف المتنوعة.

وترى المجموعة الثالثة الشخصية كعملية داخلية تضبط السلوك، وتتحدد شخصية الفرد عن طريق التفاعل الداخلى، وتقع فيها نظريات الذات Self Theories ونظريات السمات Trait Theories، فمثلا يقال إن الفرد لديه خصائص معينة ، وهذه الخصائص تحدد بالتالى كيف سيسلك هذا الفرد فى موقف من المواقف، وتبعاً لهذه النظرة فإنه لكى يغير الفرد من سلوكه فإن عليه أن يغير من خصائص شخصيته أو ذاته.

ويتفق معظم أصحاب نظريات الشخصية فى علم النفس على أن شخصية الفرد يمكن أن توصف فى صورة أنماط متسقة من السلوك، فنزوعنا إلى الاستجابة بطريقة متسقة فى المواقف المختلفة هو ما يعطينا هويتنا الفردية. إنها تلك الأنماط المتسقة من السلوك (المستقرة تقريباً) هى التى تجعل من الممكن أن نتوقع سلوكنا فى المستقبل بدرجة معينة من الدقة. وعندما يسلك شخص ما نعرفه جيداً بصورة غير متسقة مع سلوكه السابق الذى عرفناه به فإننا نقول على الفور: « إنه ليس هو فلان. .» أو «لابد أن هناك شيئاً غيرَّ سلوكه» أو «إن هذا الشخص قد تبدَّل». . . إلخ.

وقبل أن نختم الحديث حول ماهية الشخصية نورد تعريفين للشخصية هما تعريف ألبورت (١٩٦١م)، وتعريف مادى (١٩٨٠م) Maddi [٤]، وهو واحد من المنظرين المعاصرين فى مجال الشخصية.

---

(٤) انظر: Selvatore Maddi, Personality Theories, A Comparative analysis (4th ed) New York, Academic Press, p. 10, 1980.

انظر أيضا: Gordon Allport, Pattern and Growth in Personality, New York: Holt, rinehart & Winston, p. 88. 1961.

١- تعريف ألبورت (١٩٦١م) Allport

عرف ألبورت الشخصية فى كتاباته عام ١٩٣٧م بأنها «ذلك التنظيم التفاعلى (الدينامى) داخل الفرد الذى ينظم كل الأجهزة النفسية الجسمية التى تحدد توافقاته المتفردة مع البيئة».

وفى عام ١٩٦١م أعاد ألبورت صياغة هذا التعريف ليصبح على النحو التالى : «ذلك التنظيم التفاعلى (الدينامى) داخل الفرد الذى ينظم كل الأجهزة النفسية الجسمية التى تحدد تميزه فى السلوك والتفكير» (ص٢٨) .

٢- تعريف مادى (١٩٨٠م) Maddi

«الشخصية هى مجموعة مستقرة من الخصائص والنزوعات التى تحدد تلك الجوانب المشتركة والاختلافات فى السلوك النفسى للناس (الأفكار والمشاعر والتصرفات)، والتى يكون لها صفة الاستمرارية عبر الزمن ، ولا تعبر ببساطة عن استجابات للضغوط الاجتماعية أو البيولوجية العابرة» (ص١٠) .

نظريات الشخصية فى علم النفس

سبق أن قلنا إن وجهات نظر الباحثين النفسيين تختلف اختلافاً بيناً فيما يتعلق بمفهوم الشخصية ، وما إذا كان هو ذلك الجانب الخارجى الذى نراه أم هو الجانب الداخلى الذى يحركه ، وما إذا كانت هذه الجوانب موروثة يأتى بها الإنسان للعالم أم أنها مكتسبة من خلال التعلم أثناء النمو والارتقاء الفردى.

وقد نظرت مدرسة التحليل النفسى للشخصية على أن مصدرها الطاقة النفسية التى يستمدها الفرد من غريزة الجنس المعبرة عن الحياة وغريزة العدوان المعبرة عن الموت، وأن الشخصية تتركز حول مجموعة من الصراعات داخل الفرد بين «الهو» id باعتباره الجانب الخاص بالرغبات، و«الأنا الأعلى» SUPEREGO باعتباره المعبر عن الضمير أو صوت المجتمع و«الأنا» ego باعتباره الجانب المنظم للعلاقة بين الهو والأنا الأعلى، وكذلك الصراع بين

الشعور، وما تحت الشعور، واللاشعور، والصراع بين تحقيق مبدأ اللذة وتحقيق مبدأ الواقع، وبالتالى فإن الشخصية تمثل عملية دينامية مستمرة من الصراعات ينتج عنها حلول لهذه الصراعات هى التى نراها فى الظاهر، أو عدم وجود حلول مناسبة حيث تبدأ الدفاعات أو يسود القلق ، ومن رواد هذه المدرسة سيجموند فرويد S. Freud.

أما المدرسة العضوية فقد صورت الشخصية فى صورة أنماط مستمدة من التكوين أو البنيان الجسمانى للفرد ، ومن رواد هذه المدرسة شيلدون Sheldon وكريتشمر Kertchmer.

وقد نظر منظرو المدرسة السلوكية إلى الشخصية على أنها تقع بين مثيرات من البيئة واستجابات للفرد ، وأن شخصية الفرد تتحدد فى تلك الاستجابات التى نراها ، وأنه ليس هناك جانب موروث من الشخصية بل كلها مكتسبة من البيئة بفعل قوانين الإشراط الكلاسيكى (بافلوف) أو الإجرائى (سكينر) أو من مشاهدة نماذج سلوكية (باندورا) ، وأن ذلك يتولد عنه عادات سلوكية هى التى تحدد شخصية الفرد.

وقد اعتبر كارل روجرز Rogers الشخصية فى صورة كيان ذاتى للفرد، أو هى الذات التى يسعى الفرد لتحقيقها ، والتى يبنيها من مجموع الخبرات التى يمر بها والتى يدركها على أنها تحقق التقدير الذاتى وتقدير الآخرين ، وتستوفى شروط الأهمية، وأن الظاهر الذى يمكن أن نتعرف عليه من الشخصية هو مفهوم الفرد عن ذاته Self Concept والذى يمثل الجانب المعرفى للذات. أما ألبورت، وكاتيل، Cattell وأيزينيك Eysoneck فقد اعتبروا الشخصية فى صورة سمات داخلية تتفاعل مع الظروف البيئية لتنتج لنا السلوكيات التى يقوم بها الفرد أى الجانب الظاهر من شخصيته. وتحاول المدرسة المعرفية التى بدأت فى التبلور منذ سنوات قليلة أن تركز على الجانب المعرفى، من إحساس وإدراك وتذكر وتفكير واعتقادات ومفاهيم، على أنه الجانب المهيمن على السلوك الذى نراه ظاهراً أمامنا .

ومهما كان من أمر تلك النظريات وأصحابها والافتراضات التى أدت إليها والنتائج التى تمخضت عنها فإنها فى أكثرها أخفقت فى تحديد واضح لما يمكن أن نطلق عليه «الشخصية» بحيث نرتب عليه أموراً ذات أهمية مثل توقع السلوك Prediction أو تحديد انحراف السلوك Ddeviance أو وصف أساليب للعلاج النفسى Psychothery .

وقد جاء معظم هذه النظريات مستنداً إلى «فلسفات قديمة» أو «آراء شخصية» أو «ملاحظات عابرة» كما جاء الجزء القائم على «مشاهدات تجريبية» مفتقداً لإمكانية التعميم، حيث كانت معظم التجارب على حيوانات المختبر ، وشتان بين الإنسان الذى كرمه الله وبين الحيوان المسخر لأغراض حياته .

ومعظم نظريات الشخصية، إن لم تكن جميعها، قد أهملت الجانب الروحى فى حياة الإنسان وفى سلوكه أو قللت من أهميته، وهذا الإهمال هو الذى أفقد هذه النظريات مصداقيتها، فإنا لا نتصور إنساناً خلواً من الجانب الروحى، ومادام الأمر كذلك وكان الجانب الروحى ضمن حياة الإنسان فلاشك أن تأثيره على السلوك ومن ثم على الشخصية أمر واقع لا محالة.

لقد جاءت نظريات الشخصية التى يتداولها الباحثون فى علم النفس، من بيئات وثقافات تراخت فى التمسك بالدين والقيم ، بل وراح بعضهم مثل فرويد يهاجم الدين بينما أسقطه الباقون من حساباتهم فى تفسير السلوك.

وقد استقى بعض المنظرين فى مجال الشخصية، أفكاره عن الشخصية من ملاحظات للمرضى النفسيين مدخلاً إليها الجوانب الذاتية من شخصه، مما جعله ينتج نظرية مريضة! وأبرز الأمثلة على ذلك فرويد الذى وضع نظرية التحليل النفسى واعتبر فيها الإنسان فى حالة دائمة من الصراع بين رغبات الجنس والعدوان من ناحية وبين رفض المجتمع لهذه الرغبات، وهذا الرفض يكون الفرد قد استدمجه أثناء النمو، وأن الإنسان حين يستجيب لهذا الصوت المرتفع صوت «الأنا الأعلى» فإنه يضطر إلى «كبت» هذه الرغبات (المخزية!) فى مخزن

اللاشعور ، ولكنها لا تبارح الفرد وإنما تعاود الهجوم عليه تارة فى أحلامه وتارة فى أقواله وتارة أخرى فى صورة اضطراب ومرض نفسى يبدأ بالقلق ويتفرع إلى أنواع متنوعة من الاختلالات النفسية .

ويرى الباحث أن الشخصية يمكن تعريفها من وجهة نظر إسلامية بأنها : « مجموعة مستقرة من الخصائص والتصرفات التى تنطلق من المكونات الروحية والعقلية والبيولوجية للإنسان بما يجعله يفى بحاجاته الروحية والبدنية فى صورة متوازنة ، وتعطيه تفرده فى سلوكه وتفكيره» .

وسوف ينطلق الباحث فى دراسة لمجموعة من الجوانب العامة التى تحدد الشخصية من المنظور الإسلامى متجهاً منها إلى خصائص شخصية المسلم ، وذلك فى إطار استقرائه لفكر الإمام ابن قيم الجوزية كما يظهر فى جانب من مؤلفاته، وعلى الرغم من تعددها فإن المؤلف يرى أن محدودية البحث مرتبطة بمحدودية ما أمكنه الاطلاع عليه ومراجعته من مؤلفات ابن القيم يرحمه الله.

وتشتمل الدراسة على الجوانب التالية :

١ - الإنسان باعتباره مخلوقاً ذا خصوصية.

٢ - بنية الشخصية :

(أ) وحدة النفس وحالاتها.

(ب) سمات الشخصية.

٣ - الوسطية والاعتدال فى شخصية المسلم.

٤ - الجوانب المعرفية للشخصية.

٥ - الانفعالات.

٦ - الفروق الفردية.

٧ - نمو الشخصية.

٨ - اضطرابات الشخصية.

٩ – العلاج النفسى.

وبذلك فإن الباحث يتعامل مع جانب كبير من مكونات الشخصية ، وكذلك نموها وانحرافها (الاضطرابات) وكيفية ردها إلى جادة الصواب والعلاج النفسى.

جوانب الشخصية فى فكر الإمام ابن قيم الجوزية

الإمام أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الشهير بابن قيم الجوزية من أئمة السلف المحدثين فى الفقه والسيرة والتفسير، وكذلك فى كثير من شؤون الحياة التى تناولها من منطلق إسلامى عميق. والمتصفح لكتاباته والقارئ لها بتعمق يلمس أن هذه الكتابات قد تناولت فى عمق وتمكن كثيراً من الجوانب التى يدخلها الباحثون المتخصصون تحت مفهوم الشخصية، فمن تناول للدوافع (فى كتاب الفوائد)، لتناول لبنية الشخصية (الروح، وإغاثة اللهفان)، إلى النمو (تحفة المودود)، إلى الجوانب المعرفية (الفوائد، وإعلام الموقعين)، إلى أمراض القلوب (الداء والدواء، وإغاثة اللهفان) ، إلى الانفعالات (مدارج السالكين). وسوف نعرض فيما يلى لمجموعة من الجوانب التى تحدد معالم الشخصية من منطلق إسلامى، كما نستقرئها فى مجموعة من مؤلفاته ، وهى على وجه التحديد :

١ – الروح.

٢ – إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.

٣ – إعلام الموقعين.

٤ – مدارج السالكين.

٥ – تحفة المودود.

٦ – الفوائد.

أولا : الإنسان باعتباره مخلوقاً ذا خصوصية :

لعل نظرة الإنسان لنفسه وتعرفه على كنه ذاته من الأمور التى لا يمكن للعقل وحده أن يدله عليها، ولهذا فإن المفهوم الإسلامى للإنسان من حيث الخلق والهداية هو المفهوم الصحيح الذى يمثل الحقيقة الباقية التى لا يمكن أن تنازعها نظرية. وقد اهتم الإمام ابن القيم بالحديث عن الإنسان بصورة يلخص فيها معالم هذا الكائن معتمداً فى ذلك على الأصول الإسلامية : القرآن والسنة. يقول – يرحمه الله – فى كتابه مدارج السالكين(٥) :

«فاعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه، وخلقه لنفسه، وخلق كل شىء له، وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره. وسخر له ما فى سمواته وأرضه وما بينهما حتى ملائكته الذين هم أهل قربه، استخدمهم له وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه ، وخاطبه وكلمه منه وإليه ، واتخذ منهم الخليل والكليم والأولياء والخواص والأحبار، وجعلهم معدن أسراره، ومحل حكمته، وموضع حبه، وخلق لهم الجنة والنار، فالخلق والأمر، والثواب والعقاب مداره على النوع الإنسانى، فهو خلاصة الخلق وهو المقصود بالأمر والنهى، وعليه الثواب والعقاب .

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات، وقد خلق أباه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شىء، وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من المخلوقات، وطرد إبليس عن قربه وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين، واتخذه عدوا له». (مدارج السالكين ج١ ص٢٣٢) .

هكذا جمع ابن القيم الخصائص الأساسية للإنسان فى تلك العبارات الموجزة التى شملت الجوانب الآتية :

(٥) أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية): مدارج السالكين بين منازل ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ (ثلاثة أجزاء) القاهرة : دار الحديث : دون تاريخ (ص٢٣٢). والكتاب شرح لكتاب (منازل السائرين) للهروى.

١ – خاصة التكريم والتفضيل على كثير من المخلوقات .

٢ – تسخير ما فى الكون لحياة الإنسان .

٣ – إرسال الرسل لهدايته .

٤ – تفضيل بعض الخلق وخصوصيتهم .

٥ – التكليف .

٦ – المسؤولية .

٧ – العبودية .

وهذه الخصوصية، وهذا التكريم لهما أهمية كبرى فى تصوير شخصية الإنسان ، فهى جوانب ترقى بالإنسان عن أن نساويه بالكائنات الشهوية (الحيوانات) كما فعل فرويد حين اعتبر غريزتى الجنس والعدوان المحركات الأساسية لسلوك الإنسان وحين ربط بين نمو الطفل وبين غريزة الجنس حتى أنه قسم مراحل النمو إلى مراحل نفسية جنسية.

والإنسان الذى كرمه خالقه جل وعلا على سائر خلقه ، وشرفه بأن خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل المخلوقات، هذا الإنسان لابد أن يكون مفطوراً على الخير وليس موجهاً ببواعث الشر كما يرى فرويد ومن يشايعه فى آرائه. كما أنه لابد أن يحمل فى فطرته ما يتقرب به إلى خالقه جل وعلا ويجعله يدين له بالعبودية وإسلام الوجه، ولا يكون كما ترى المدرسة السلوكية مجرد صنيعة من صنائع البيئة تحدد سلوكياته فتستحيل إلى عادات لا إرادة له فيها ولا توجيه لها من داخله.

إن وصف الإنسان بهذه الأوصاف التى أجملها ابن القيم يجعل كل باحث نفسى يتوقف ويتفكر، بل ويرفض أى نظرية تهبط بهذا الإنسان عن درجة التكريم التى منحها الله له .

إن نظريات الشخصية التى ظهرت فى مجال علم النفس سواء منها ما أخذ السلوك الظاهر على أنه الشخصية، أم تلك التى اعتبرت ما يمكن أن يكون بداخل الفرد من صراعات بين الرغبات والقيم والشعور واللاشعور، أو التى رأت أنه يرث مجموعة من السمات توجه سلوكه فى البيئة بتفاعله معها - هذه النظريات كلها قد أغفلت حقيقة خلق الإنسان وذلك الجانب الروحى الذى يحركه فى الحياة دخولاً وخروجًا مولدًا وموتًا وبعثًا، ويؤثر على سلوكياته النفسية كافة : عقلية أو عاطفية أو إجرائية، والغاية من خلقه وهى عبادة الله وحده . وهى بذلك قد نظرت إلى السلوك نظرة جامدةحيث لا مرجع يوجه حركة الإنسان سوى ظروف كل فرد، ومن هنا يظهر ما وقعت فيه هذه النظريات من قصور شديد .

يقول نجاتى (١٩٨٤م) : [٦]

«غير أن علماء النفس المحدثين قد أغفلوا فى دراستهم للشخصية تأثير الجانب الروحى من الإنسان فى شخصيته وسلوكه مما أدى إلى قصور واضح فى فهمهم للإنسان وفى معرفتهم للعوامل المحددة للشخصية السوية وغير السوية، كما أدى إلى عدم اهتدائهم إلى الطريقة المثلى فى العلاج النفسى لاضطرابات الشخصية».

«وقد لاحظ إريك فروم FROMM المحلل النفسى قصور علم النفس الحديث وعجزه عن فهم الإنسان فهماً صحيحاً بسبب إغفاله دراسة الجانب الروحى فى الإنسان. ويبدو ذلك واضحاً من قوله : «إن التقليد الذى يعد السيكولوجيا دراسة لروح الإنسان دراسة تهتم بفضائله وسعادته - هذا التقليد نُبذ تماماً، وأصبح علم النفس الأكاديمى فى محاولته لمحاكاة العلوم الطبيعية والأساليب المعملية فى الوزن والحساب - أصبح هذا العلم يعالج كل شىء ماعدا الروح، إذ حاول هذا

---

(٦) محمد عثمان نجاتى : مفهوم الصحة النفسية فى القرآن الكريم والحديث الشريف. نشرة الطب الإسلامى، العدد الثالث، الأبحاث وأعمال المؤتمر العالمى الثالث عن الطب الإسلامى، الجزء رقم ٥، أكتوبر ١٩٨٤م، الكويت.

العلم أن يفهم مظاهر الإنسان التى يمكن فحصها فى المعمل، وزعم أن الشعور وأحكام القيمة، ومعرفة الخير والشر، ما هى إلا تصورات ميتافيزيقية تقع خارج مشكلات علم النفس، وكان اهتمامه ينصب فى أغلب الأحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع منهج علمى مزعوم، وذلك بدلا من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الإنسان المهمة. وهكذا أصبح علم النفس علماً يفتقر إلى موضوعه الرئيس وهو الروح ، وكان معنيا بالميكانزمات، وتكوينات ردود الأفعال والغرائز دون أن يعنى بالظواهر الإنسانية المميزة أشد التمييز للإنسان كالحب والعقل والشعور والقيم».

وهذا القصور فى فهم علماء النفس المحدثين للإنسان قد دفع إبراهام ماسلو Maslow أيضاً إلى اقتراح تصنيف جديد لدوافع الإنسان يشمل الدوافع الروحية التى يغفلها عادة علماء النفس المحدثون .

إننا لا نستطيع أن نفهم الإنسان فهماً واضحاً دقيقا، كما لا نستطيع أن نكوّن مفهوماً دقيقا وسليما عن صحته النفسية دون أن نفهم جميع العوامل المحددة لشخصية الإنسان، سواء أكانت عوامل بيولوجية أم روحية أم اجتماعية أم ثقافية» (نجاتى، ١٩٨٤م، ص٥٠٧، ٥٠٨).

ونتابع مع ابن القيم حديثه عن الإنسان حيث يخص من اهتدى بالإيمان بخصوصية الخيرية فيقول رحمه الله : (٧)

«فالمؤمن من نوع الإنسان : خير البرية على الإطلاق. وخيرة الله من العالمين، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه، وليتواتر إحسانه إليه. وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته، ولم يخطر عل باله ولم يشعر به، ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلة، التى لا تنال إلا بمحبته، ولا تنال محبته إلا بطاعته وإيثاره على ما سواه، فاتخذه محبوباً له، وأعد له أفضل ما يعد

(٧) مدارج السالكين : مرجع سابق ج١ ص ٢٣٢.

محب غنى قادر لمحبوبه إذا قدم عليه. وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه. وأعلمه فى عهده ما يقربه إليه، ويزيده محبة له وكرامة عليه، وما يبعده منه ويسخطه عليه ويسقطه من عينه... » (مدارج الساكين ج١ ص ٢٣٢).

ثانياً : بنية الشخصية :

يمكن أن نتعرف على بنية الشخصية فى فكر الإمام ابن القيم من تعرفنا على مجموعة من الجوانب المتصلة بها مثل وحدة النفس وحالاتها، وسمات الشخصية، واعتدال الشخصية، والجوانب المعرفية، والانفعالات وغيرها نتناوله فيما يلى :

١ – وحدة النفس وحالاتها :

ناقش الإمام ابن قيم الجوزية مسألة وحدة النفس وحالاتها، وهل النفس واحدة أم هناك ثلاث أنفس أمارة ومطمئنة ولوامة. وقد أفرد لهذه المناقشة صفحات عديدة فى مجموعة من مؤلفاته ، وبصفة خاصة فى كتابى الروح، وإغاثة اللهفان من مصائد الشيطان.

يقول رحمه الله فى كتابه إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان :[٨] «وقد وصف سبحانه النفس فى القرآن بثلاث صفات، المطمئنة، والأمارة بالسوء، واللوامة. فاختلف الناس : هل النفس واحدة وهذه أوصاف لها أم للعبد ثلاث أنفس ؟ نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة : فالأول قول الفقهاء والمتكلمين وجمهور المفسرين، وقول محققى الصوفية، والثانى قول كثير من أهل التصوف.

والتحقيق : إنه لا نزاع بين الفريقين، فإنها واحدة باعتبار ذاتها، وثلاث باعتبار صفاتها. فإذا اعتبرت بنفسها فهى واحدة، وإن اعتبرت مع كل صفة دون الأخرى، فهى متعددة، وما أظنهم يقولون إن لكل أحد ثلاث أنفس : كل نفس قائمة

---

(٨) أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (جزءان)، بيروت : دار المعرفة، دون تاريخ، ج١.

بذاتها مساوية للأخرى فى الحد والحقيقة، وأنه إذا قبض العبد قبضت له ثلاث أنفس كل واحدة مستقلة بنفسها.

وحيث ذكر سبحانه النفس وأضافها إلى صاحبها، فإنما ذكرها بلفظ الإفراد، وهكذا فى سائر الأحاديث، ولم يرد فى موضع واحد «نفوسك» أو «نفوسه» ولا «أنفسك» و«أنفسه» وإنما جاءت مجموعة عند إرداة العموم كقوله تعالى: ﴿وإذا النفوس زوجت﴾، (التكوير: ٧). أو عند إضافتها إلى الجمع كقوله ﷺ: «إنما أنفسنا بيد الله». (ص ٧٥، ٧٦).

ويناقش الإمام ابن القيم المسألة نفسها فى كتابه : «الروح» فيقول : [٩]

* المسألة الحادية والعشرون : وهى هل النفس واحدة أم ثلاث ؟

فقد وقع فى كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس، نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة. وأن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه الأخرى، ويحتجون على ذلك بقوله تعالى : ﴿يا أيتها النفس المطمئنة﴾. (الفجر : ٢٧)، وبقوله تعالى : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾. (القيامة : ١، ٢)، وبقوله تعالى : ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾. (يوسف : ٥٣). والتحقيق : أنها نفس واحدة ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم، فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه والرضا به والسكون إليه. . .

وأما النفس اللوامة وهى التى أقسم بها سبحانه فى قوله : ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾. (القيامة : ٢). فاختلف فيها فقالت طائفة : هى التى لا تثبت على حال واحدة، أخذوا اللفظة من التلوم وهو التردد، فهى كثيرة التقلب والتلون، وهى من أعظم آيات الله. .

---

(٩) أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية) الروح لابن القيم : فى الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل، من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء. بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص٢٩٤ وما بعدها.

وقالت طائفة : اللفظة مأخوذة من اللوم ثم اختلفوا فقالت فرقة : هى نفس المؤمن وهذا من صفاتها المجردة. قال الحسن البصرى : إن المؤمن لاتراه إلا يلوم نفسه دائماً يقول: ما أردت بهذا؟ لم فعلت هذا؟ كان هذا أولى، أو نحو هذا من الكلام؛ وأما النفس الأمارة فهى المذمومة التى تأمر بكل سوء ، وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله كما قال تعالى حاكيا عن امرأة العزيز : ﴿وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم﴾. (يوسف :٥٣)

وقد امتحن الله سبحانة وتعالى الإنسان بهاتين النفسين الأمارة واللوامة كما أكرمه بالمطمئنة، فهى نفس واحدة تكون أمارة ثم لوامة ومطمئنة، وهى غاية كمالها وصلاحها. . .».

وقد أفاض الإمام ابن القيم فى الحديث عن صفات أو خصائص النفس المطمئنة فكأنه بذلك يتحدث عن صفات فرعية تتفرع عن صفة الطمأنينة وهى التى يسعى المؤمن لتحقيقها عبر حياته، ثم تناول بالحديث النفس الأمارة وهى التى تهوى بالإنسان إلى مدارك الشهوات، وقد عبر عنها فى كتاب الروح باسم النفس السحارة لأنها كما يقول [١٠] «تسحر العقل والقلب فتأتى إلى أشرف الأشياء وأفضلها وأجملها فتخرجه فى صورة مذمومة، وأكثر الخلق صبيان العقول أطفال الأحلام، لم يصلوا إلى حد الفطام الأول عن العوائد والمألوفات فضلاً عن البلوغ الذى يميز به العاقل البالغ بين خير الخيرين فيؤثره وشر الشرين فيجتنبه» (ص٣٠٧).

والإمام ابن القيم لم يكن أول العلماء المسلمين فى مناقشة هذا التقسيم لحالات النفس والمستقى من آيات الكتاب الحكيم، فقد سبقه لذلك شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذلك أبو حامد الغزالى، إلا أن ابن القيم قد أفاض فى

---

(١٠) ابن القيم : الروح (مرجع سابق) ص٣٠٧.

مناقشة وبيان هذه المسألة بشكل مستفيض، وفى أكثر من مؤلف من مؤلفاته، وربما كانت أطول مناقشة خص بها هذه المسألة هو ما ورد فى كتابه «الروح» حيث قارن الصفات والخلق المنبعثين من النفس المطمئنة بتلك المنبعثة عن النفس الأمارة. وهذه المقارنة الرائعة تدل على عمق المعرفة بالإنسان وسلوكه وعمق المقدرة على التحليل والمقارنة .

وقد حاول بعض الباحثين المحدثين فى مجال الدراسات النفسية من المسلمين أن يعقدوا موازنة بين تلك الصفات للنفس التى تحدث عنها الإمام ابن القيم ومن سبقه من علماء المسلمين، والتى استندوا فيها إلى المنهج الإسلامى قرآناً وسنة، وحالات أو أنظمة العقل التى تحدث عنها فرويد (الهو – الأنا – والأنا الأعلى)، إلا أننا لا نوافق على مثل هذه المناظرة أو المقارنة، فالباحث المدقق يجد بوناً شاسعاً بين ما يقرره علماء المسلمين حين يعرضون للصفات العامة الثلاث للنفس : الأمارة، واللوامة، والمطمئنة، فإنما تكون معايير تحديد هذه الصفات واضحة أمامهم فى ضوء المنهج الإسلامى وهى معايير متعددة تعدد الصفات التى يوصف بها المؤمنون الذين يتصفون بالنفس المطمئنة والصفات التى يوصف بها من عداهم الذين تسيطر عليهم النفس الأمارة بالسوء ، وهذه المعايير تبدأ من العقيدة فالعبادات فالمعاملات ومكارم الأخلاق، بينما فرويد قد بنى أنظمته على مجرد تصور قائم على أن سلوك الإنسان توجهه غريزتا الجنس والعدوان.

ومما يذكر أن باحثاً غربيًا هو إيريك بيرن BERNE (١٩٦١م) (١١) الذى افترض أن للإنسان ثلاثة جوانب يمثلها فى الوالد، والراشد، والطفل، وهى تقرب من تقسيم فرويد، فالأب يمثل الضمير والراشد يمثل العقل والطفل يمثل اللهو، هذا

---

(١١) إيريك بيرن E.Berne هو صاحب نظرية العلاج بتحليل التعاملات Transactional Analysis .

للاطلاع على تلك النظرية انظر : Eric Berne (1961) Transactional Analysis in Psychotherapy New York: Grovee Press .

الباحث يرفض أن يقارن نظامه مع نظام فرويد على أساس أن نظام فرويد لا يمكن أن نقف عند لحظة ما، ونقول : إن هذا الشخص يعيش الآن حالة تسيطر فيها الهو أو الأنا أو الأنا الأعلى بينما يمكن تبعاً لنظرية بيرن (تحليل التعاملات Transactinal Analysis) أن نتعرف حالة الفرد (والد، راشد، طفل) من خلال تحليل المحاورة التى تجرى بينه وبين شخص آخر، فكيف يسمح باحث مسلم لنفسه أن يعقد مثل هذه المماثلة، بينما المنطلقات التى ينطلق منها الباحث المسلم، وهى منطلقات العقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد وشريعة الإسلام، واضحة المعالم صريحة المعايير محددة بحدود واضحة لكل مسلم ؟

﴿قد تبين الرشد من الغى﴾. (البقرة: ٢٥٦).

﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾. (البقرة : ٢٣٠).

﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾. (البقرة : ٢٢٩).

﴿يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم﴾. (النساء :١٧٦).

وعلى حين يحدد المنهج الإسلامى بوضوح الغاية العليا لخلق الإنسان، وهى عبادة الله وحده تصديقاً لقوله تعالى :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾. (الذاريات : ٥٦).

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ (الأنعام : ١٦٢، ١٦٣).

نجد من الناحية الأخرى أن «فرويد» فى نظريته للتحليل النفسى قد جعل المحرك الأساس لسلوك الإنسان هو غريزة الجنس وغريزة العدوان، وراح يفسر بهاتين الغريزتين كل مظاهر السلوك، الحسن منها والقبيح، وقد أدى ذلك الاضطراب فى التصور، والذى بناه على خيال مريض وتعامل مع المرضى النفسيين، أدى ذلك إلى معارضة قوية من زملاء وتلاميذ له .

لقد هبط فرويد، بهذه المغالاة فى الدور الذى يقوم به الجنس أو العدوان، بالإنسان الذى كرمه الله، هبوطاً سحيقا ، واختزل الإنسان المكرم، والمكلف، والمسئول، والعابد، والعاقل إلى مستوى البهائم التى تحركها الشهوات، ونحن نقرأ فى القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد وصف أناساً بأنهم كالأنعام، لأنهم ابتعدوا عن الهدى وأصبحت حياتهم دائرة حول حاجاتهم الشهوانية كالجنس والطعام. . . وأغلقوا عقولهم عن أن تصل إليها معالم الحق والهدى وانشغلوا بالدنيا واعتبروها غايتهم.

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل﴾. (التوبة : ٣٨).

ويقول :

﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾ (الأحقاف : ٢٠).

ويقول أيضا :

﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾. (الفرقان : ٤٤).

وعلى حين اعتبر فرويد أن الإنسان ينطلق فى سلوكه من طبيعة شريرة فإن الإسلام يقرر أن الإنسان قد فطر على الخير، وأنه يأتى إلى الدنيا على فطرة الإسلام فطرة الخير، يقرر القرآن ذلك وتقرره السنة النبوية أيضا.

يقول الله تعالى :

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾. (الأعراف : ١٧٢).

ويقول سبحانه :

﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾. (الروم :٣٠).

ويقول الرسول ﷺ :

«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». (متفق عليه).

والإنسان وهو مفطور على الخير، فإنه يقبل الشر حيث يتعلمه من بيئته بدءًا من أسرته ومن أبويه بشكل خاص إذا كان ذلك منهجهما فى الحياة، لكنه أيضًا يعود إلى الخير إذا ذكر به وأرشد إليه وشاء الله أن يهديه .

شتان بين أن ننظر للإنسان تلك النظرة الوضيعة التى نظر إليه بها «فرويد» ، وأن ننظر لهذا الإنسان تلك النظرة العالية التى كرمه فيها الإسلام بتكريم خالقه جل وعلا له، وبالتزامه بغاية خلقه عبادة الله، ووظيفة حياته، الخلافة فى الأرض وعمرانها، فإنه يستمر فى انطلاقه من هذه الفطرة، فطرة إسلام الوجه لله والإيمان به سبحانه، فطرة الخير والسلام.

نعود إلى القول إنه لا وجه لمقارنة أو مماثلة بين فكرة سطحية، نشأت كما يقول أصحاب المدرسة الإنسانية فى علم النفس: «من عمل مع مرضى النفوس»، فما كان لها أن تعطينا غير منظور مريض للإنسان وسلوكه ودوافعه، وبين عمق المنهج الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المنهج الذى يقرر أن النفس خلقت على السواء على الصحيح ، وأنها تقبل على الحياة مفطورة على الخير لا تستعصى على الشر، وأن الخير واضح ومحدد والشر معروف ومحدد. وصدق الله العظيم :

﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾. (الشمس : ٧-١٠).

(ب) سمات الشخصية :

السمة فى علم النفس الحديث هى «بنية عقليه تعمل على بدء الاستجابات وتوجهها وبذلك فهى ذات أهمية فى الاتساق الذى يظهر فى سلوك الفرد». (ألبورت ١٩٣٧م، ص٢٨٩) [١٢].

وتعتبر النظرة إلى الشخصية على أنها تتكون من مجموعة من سمات، التى توجه الاستجابة إزاء مثيرات معينة وتعمل على وجود الاتساق فى سلوك الفرد، وجهة من وجهات دراسة الشخصية التى بدأت فى التبلور منذ قيام ألبورت وأودبيرت (١٩٣٦م)[١٣] Allport & Adbert بفحص مجموعة من الصفات المتداولة فى وصف الناس وصل عددها إلى ١٧٩٥٣ صفة .

وقد عاد ألبورت (١٩٦١م) [١٤] فعرف السمة بأنها :

«بناء عصبى نفسى له إمكانية اعتبار عديد من المثيرات على أنها متكافئة وظيفيًا، وأن يؤدى إلى بدء وتوجيه صور متسقة من السلوك التكيفى والتعبيرى». (ألبورت ١٩٦١م، ص٣٤٧).

إن السمات فى رأى ألبورت هى المسئولة عن الاتساق فى سلوك البشر، ولأنه لايوجد شخصان لديهما السمات نفسها تماما فإن كلا منهما يواجه الخبرات البيئية بشكل مختلف. وعلى سبيل المثال فإن الشخص الذى لديه سمة الألفة والمودة سيستجيب للغريب بشكل مختلف عن شخص لديه سمة التشكك، وفى كلتا الحالتين فإن المثير واحد، ولكن الاستجابات مختلفة لوجود سمات مختلفة تشترك فيها أو كما يقول ألبورت معبراً عن ذلك[١٥] .

---

(١٢) ألبورت : Gordan Allport (1937) POersonality : A psychological Interpretation NewYork: Henry Holt .

(١٣) ألبورت وأودبيرت : Gordon Allport & H. S. Odbart (1936) Trait Names: A psycho-Lexical Study . Psychological Monographs, 47, No. 211, 1-171 .

(١٤) ألبورت (١٩٦١م) مرجع سابق، ص٣٤٧.

(١٥) ألبورت (١٩٣٧م) مرجع سابق، ص١٠٢.

«إن النار التى تصهر الزبد هى نفسها التى تقسى البيض (تجعله صلبًا)» (ألبورت ١٩٦١م، ص٣٤٧). ويتفق الباحث مع ألبورت فى هذا التعريف السمة.

ولقد تعددت تصنيفات الباحثين فى مجال علم النفس للسمات ولعددها، فمنهم من جعلها عديدة ومنهم من اختصرها اختصاراً شديداً ووضعها فى صورة أبعاد، وقد حاول بص وفين (١٩٨٧م) Buss & Finn تصنيفًا جديدا للسمات تحت فروع نزوعية (أعمال وتصرفات) مثل السيطرة والتمرد والعدوان والوصولية والغيرة والعطاء والنجدة، ووجدانية مثل الخجل والخزى والتعاطف والاستياء والتأثم والهناء والغضب والخوف، ومعرفية مثل الوعى بالذات ومركز ضبط التعزيز والتخلق وتقدير الذات والثقة فى الآخرين والتبلد والتشكل حسب المواقف... إلخ.

وإذا رجعنا إلى ما كتبه الإمام ابن القيم فى هذا الخصوص نجده فى كتاب الروح قد أفرد له فصولاً فى أعقاب حديثه عن صفات النفس : الأمارة، واللوامة، والمطمئنة. وابن القيم فى هذا التناول يصوغ السمات صياغة إسلامية رائعة، فهو لا يأخذ السمة ولا ما ينطق عنها من سلوكيات (أفعال وأخلاق) فى صورة مجردة ، ولكنه يأخذها من بوتقة الإسلام مصهورة فيها مختلطة بأصوله. وبذلك فقد يكون أمامنا فى الظاهر سلوك ينم عن صفة أو سمة معينة ولكنه فى الواقع لا ينطلق من النفس المطمئنة التى تعبر عن الشخصية الصحيحة إسلاميا وإنما ينطلق من النفس الأمارة بالسوء .

يقول رحمه الله فى الحديث عن «النفس الأمارة» : (١٧)

«وأعجب من ذلك أنها تضاهى ما يحبه الله ورسوله من الصفات والأخلاق والأفعال بما يبغضه منها، وتلبس على العبد أحد الأمرين بالآخر، ولا يخلص من

---

(١٦) انظر بص وفين: A. H. Buss & S. E. Finn (1987) Classification of Personality Traits. Journal of Personality and Social Psychology. 52, 432, - 44.

(١٧) ابن القيم : الروح، مرجع سابق، ص٣١٠.

هذه إلا أرباب البصائر، فإن الأفعال تصدر عن الإرادات، وتظهر على الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة فيتباين الفعلان فى الباطن ويشتبهان فى الظاهر.. ولذلك أمثلة كثيرة منها المداراة والمداهنة : فالأول من المطمئنة والثانى من الأمارة. وخشوع الإيمان وخشوع النفاق، وشرف النفس والتيه، والحمية والجفاء، والتواضع والمهانة، والقوة فى أمر الله والعلو فى الأرض، والحمية لله والغضب له والحمية للنفس والغضب لها، والجود والسرف، والمهابة والكبر، والصيانة والتكبر، والشجاعة والجرأة، والحزم والجبن، والاقتصاد والشح، والاحتراز وسوء الظن، والفراسة والظن، والنصيحة والغيبة ، والهدية والرشوة، والصبر والقسوة، والعفو والذل، وسلامة القلب والبله والغفلة، والثقة والغرة، والرجاء والتمنى، والتحدث بنعم الله والفخر بها، وفرح النفس، ورقة القلب والجزع، والموجدة والحقد، والمنافسة والحسد، وحب الرياسة وحب الإمارة والدعوة إلى الله، والحب لله والحب مع الله، والتوكل والعجز، والاحتياط والوسوسة، وإلهام الملك وإلهام الشيطان، والأناة والتسويف، والاقتصاد والتقتير، والاجتهاد والغلو، والنصيحة والتأنيب، والمبادرة والعجلة، والإخبار بالحال عند الحاجة والشكوى...». (الروح ص٣١٠) .

ولعل الإمام ابن القيم فى هذه الفقرة الموجزة التى جمع فيها العديد من السمات قد أبرز المنهج الإسلامى فهو لا يأخذ السلوك الظاهر وحده فى الحسبان لبيان ما إذا كانت السمة سوية أو معتلة، وإنما يبحث عن المنطلق الذى تنطلق منه. وهو يرى أن الأفعال تصدر عن الإرادات ، ويعنى هذا أن السلوك الظاهر (الفعل) تحكمه الإرادة وهى (أى الإرادة) جانب معرفى، وهو سبق للعلامة ابن القيم على علم النفس الحديث، وبصفة خاصة مانادت به المدرسة السلوكية من أن الأفعال تخضع لمثيرات خارج الشخص من البيئة وليس لها توجيه داخلى. إلا أن هذه الأفعال فى رأى ابن القيم تعود لتتفاعل مع البنية السائدة أو الصفة السائدة للنفس، فإذا صدرت عن النفس الأمارة فإن مجرى الفعل ومقصده

ونتيجته تختلف عما لو صدرت عن النفس المطمئنة، فالنفس المطمئنة تدعو صاحبها للتواضع فى كل موقف فى حين أن النفس الأمارة تأخذ السلوك الظاهر نفسه وتجعله فى شكل مهانة أو تصوره لصاحبه بأنه مهانة. وهنا يكون الحكم على السلوك أمراً يرتبط بالصفة الغالبة للنفس : مطمئنة؟ أم أمارة؟

ولعل هذا التمييز الذى فصله الإمام ابن القيم حين بدأ فى عقد المقارنات بين الأعمال المتشابهة فى الظاهر المتباينة فى الباطن، وفى ميزان الحكم عليها بين نفس مطمئنة ونفس أمارة، هذا التمييز قائم على علم وأفق واسعين قد تعجز عن الوصول إليه الأساليب الإحصائية التى تتعدد مسمياتها بين تحليل عاملى، وتحليل مجموعات Cluster Analysis، وتحليل عاملى توكيدى Confirmatory Factor Analysis ، وتحليل للأبنية Structural Analysis وغيرها؛ لأن هذه الأساليب تعتمد على الصورة الظاهرة بل والمزيفة أحياناً من خلال إجابة نمطية على أسئلة مقياس. أما التمييز الذى يقدمه العلامة ابن القيم فهو تمييز يعتمد على المنهج الإسلامى الذى يجعل صاحب السلوك ومشاهده يلتقيان على الحكم عليه .

ففى المقارنة بين رقة القلب (صورة انفعالية للتعاطف) وبين الجزع الذى قد يكون فى ظاهره شبيهاً برقة القلب ولكنه يصدر عن اضطراب شديد، يقول الإمام ابن القيم : [١٨]

«والفرق بين رقة القلب والجزع، أن الجزع ضعف فى النفس وخوف فى القلب يمده شدة الطمع والحرص ويتولد من ضعف الإيمان بالقدر، وإلا فمتى علم أن المقدر كائن ولا بد، كان الجزع عناء محضاً ومصيبة ثانية، قال تعالى : ﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير* لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾. (الحديد: ٢٢، ٢٣)،

---

(١٨) ابن القيم : الروح، مرجع سابق، ص٢٣٨.

فمتى آمن العبد بالقدر وعلم أن المصيبة مقدرة فى الحاضر والغائب لم يجزع ولم يفرح ، ولا ينافى هذا رقة القلب فإنها ناشئة من صفة الرحمة التى هى كمال ، والله سبحانه إنما يرحم من عباده الرحماء ، وقد كان رسول الله ﷺ أرق الناس قلباً وأبعدهم عن الجزع، فرقة القلب رأفة ورحمة، وجزعه مرض وضعف.

فالجزع حال قلب مريض بالدنيا قد غشيه دخان النفس الأمارة فأخذ بأنفاسه وضيق عليه مسالك الآخرة وصار فى سجن الهوى والنفس، وهو سجن ضيق الأرجاء مظلم المسالك. فانحصار القلب وضيقه يجعله يجزع من أدنى ما يصيبه ولا يحتمله، فإذا أشرق فيه نور الإيمان واليقين بالوعد وامتلأ من محبة الله وإجلاله رق وصارت فيه الرأفة والرحمة فتراه رحيما رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم، يرحم النملة فى جحرها والطير فى وكره فضلاً عن بنى جنسه ، فهذا أقرب القلوب من الله. قال أنس : كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالعيال. والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبداً أسكن فى قلبه الرأفة والرحمة. وإذا أراد أن يعذبه نزع من قلبه الرأفة والرحمة وأبدله بهما الغلظة والقسوة. وفى الحديث الثابت «لا تنزع الرحمة إلا من شقى» (رواه الترمذى وأحمد) وفيه «من لايَرحم لا يُرحم». (متفق عليه). وفيه : «ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء». (أبو داود والترمذى)... (ص ٣٣٨).

هكذا فى هذه المقارنة الرائعة يتتبع الإمام ابن القيم عملين أو سلوكين قد يتشابهان فى جانب من دلائلهما كالبكاء مثلاً، ولكنهما يتباينان فى مصدرهما، فأحدهما وهو الرقة يصدر عن النفس المطمئنة التى من سماتها الرحمة. أما الثانى وهو الجزع فيصدر عن النفس الأمارة التى من طباعها أو سماتها السخط والهلع مصداقاً لقوله تعالى :

﴿إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل

والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ (المعارج : ١٩-٢٧) .

وفى فصل آخر من كتابه «الروح» يتناول الإمام ابن القيم بالمقارنة كلا من الموجدة والحقد، فيقول رحمه الله : (١٩)

«والفرق بين الموجدة والحقد أن الوجد الإحساس بالمؤلم والعلم به وتحرك النفس فى رفعه فهو كمال، وأما الحقد فهو إضمار الشر وتوقعه كل وقت فيمن وجدت عليه فلا يزايل القلب أثره. وفرق آخر وهو أن الموجدة لما ينالك منه، والحقد لما يناله منك، فالموجدة وجود مانالك من أذاه، والحقد توقع وجود ما يناله من المقابلة، فالموجدة سريعة الزوال، والحقد يجىء مع ضيق القلب واستيلاء ظلمة النفس الأمارة ودخانها عليه، بخلاف الموجدة فإنها تكون مع قوته وصلابته وقوة نوره وإحساسه». (ص ٣٣٩) .

هكذا يرجع الإمام ابن القيم انفعال الموجدة وهو فى معناه العام الإحساس بالظلم إلى النفس المطمئنة ، ويصفه بأنه صفة كمال أو فى المفاهيم النفسية الحديثة مظهر من مظاهر الصحة النفسية. بينما يرجع انفعال الحقد وهو من الانفعالات الكدرة الشديدة إلى النفس الأمارة ، وهو على النحو الذى يظهره صاحبها حركة إيجابية لرفع سبب الموجدة فى حين أن الحقد وهو انفعال مركب فيه الكراهية يؤدى إلى الإضرار بالغير وارتكاب ما حرم الله من عدوان.

وفى فصل آخر يعقد الإمام ابن القيم مقارنة بين المنافسة والحسد فيقول: (٢٠)

«والفرق بين المنافسة والحسد، أن المنافسة هى المبادرة إلى الكمال الذى تشاهده من غيرك فتنافسه فيه حتى تلحقة أو تجاوزه، فهى من شرف النفس وعلو الهمة وكبر القدر، قال تعالى: ﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ (المطففين: ٢٦).

---

(١٩) ابن القيم : الروح، مرجع سابق ص ٣٣٩.

(٢٠) ابن القيم : الروح، مرجع سابق، ص ٣٤٠.

وأصلها من الشيء النفيس الذى تتعلق به النفوس طلبًا ورغبة، فينافس فيه كل من النفسين الأخرى، وربما فرحت إذا شاركتها فيه كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يتنافسون فى الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل يحض بعضهم بعضًا عليه مع تنافسهم فيه، وهى نوع من المسابقة، وقد قال تعالى : ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ (البقرة : ١٤٨)، وقال تعالى : ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء﴾ (الحديد : ٢١) ...»

والحسد خلق نفس ذميمة وضيعة وساقطة ليس فيها حرص على الخير فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها دونها، وتتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها فى العدم كما قال تعالى : ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾ (النساء : ٨٩)، وقال تعالى : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ (البقرة : ١٠٩). فالحسود عدو النعمة متمن زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو ، والمنافس مسابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه، فهو ينافس غيره أن يعلو عليه ويحب لحاقه به أو مجاوزته له فى الفضل ، والحسود يحب انحطاط غيره حتى يساويه فى النقصان، وأكثر النفوس الفاضلة الخيرة ترتفع بالمنافسة، فمن جعل نصب عينيه شخصًا من أهل الفضل والسبق فنافسه انتفع به كثيراً فإنه سيتشبه به ويطلب اللحاق به والتقدم عليه وهذا لا نذمه...» (ص٣٤٠) .

ويمكن أن نخلص إلى القول بأن الإمام ابن القيم قد نظر إلى نفس الإنسان (فى ضوء المنهج الإسلامى) على أنها ذات صبغة تجعلها إما مطمئنة وهى النفس التى صقلها الإيمان وألزمت صاحبها التقوى، أو أمارة بالسوء وهى النفس التى استسلمت لتزيين الشيطان فأضلت صاحبها ، وبينهما تقف النفس اللوامة التى تساعد صاحبها، على مراجعة ما قام به. وعلى الرغم من أن النفس

تشتمل على مجموعة من السمات التى تحكم السلوك فتحركه بداية وتوجهه فى مساره فإن هذا السلوك وهو يصدر عن إرادة يمر على حالة النفس، فإذا صدر عن النفس المطمئنة فإنه سلوك يسعى للكمال، وإذا صدر عن النفس الأمارة فهو سلوك مريض يصدر عن نقص وضعف. وينبه ابن القيم إلى أن الأفعال وإن تشابهت فى الظاهر فإنها تختلف فى الباطن : فالصبر والقسوة قد يتشابهان فى بعض مظاهرهما كالتحمل والجلدولكن أحدهما وهو الصبر صادر عن نفس مطمئنة راضية بقضاء الله محتسبة له سبحانه وتعالى، أما الثانى وهو القسوة فهو صادر عن غلظة وخشونة وانعدام فى الرحمة والمشاعر الإنسانية وهى صادرة عن نفس يزين لها الشيطان ويسحرها .

وعلى خلاف ما يراه بعض الباحثين فى علم النفس من خضوع هذه الصفات وما يرافقها من أفعال إما لغريزة داخلية (مثل الجنس) أو لمؤثر بيئى خارجى (مثيرات أو معززات فى البيئة) فإن الإمام ابن القيم يرى أن هذه الصفات تخضع للإرادة أو لحكم العقل يقودهما فى ذلك حكم الشرع بمعنى أنها تخضع لقوة متحدة من «الإيمان والعقل» . يقول رحمه الله: [٢١]

«ولا يخلص من هذا إلا أرباب البصائر، فإن الأفعال تصدر عن الإرادات، وتظهر على الأركان من النفسين الأمارة والمطمئنة فيتباين الفعلان فى الباطن ويشتبهان فى الظاهر، ولذلك أمثلة كثيرة منها المداراة والمداهنة، فالأول من المطمئنة والثانى من الأمارة. . .»، (الروح ص ٣٠٨، ٣٠٩).

وبمعنى آخر يمكن أن نقول : إن النفس وهى تنمو وتتغذى بالإيمان تصير إلى نفس مطمئنة تعمل على مراجعة ما يرد عليها من خواطر وما يأمرها به العقل من سلوكيات، تعرضها هنا على مصفاة الإيمان الذى نسجت منه هذه النفس، فيقبل ما يوافق ما أمر الله به وينتهى عما نهى الله عنه ، وتخرج الأفعال

(٢١) ابن القيم : الروح، مرجع سابق، ص ٣٠٨-٣٠٩.

ساعية لرضا الله سبحانه وتعالى محققة لرضا صاحبها بها إذا أقدم عليها عالما بأن فيها مرضاة ربه فيكون بين من ينادون :

﴿يأأيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠).

وأما إذا نمت فى طريق الشيطان وأصبحت وقوامها الأمر بالسوء واتباع خطوات الشيطان فإن كل سقطات السلوك وهناته وكل صغائر الصفات ستزينها لصاحبها دافعة به إلى المهالك، ويكون فيمن قال الله فيهم :

﴿إن المجرمين فى ضلال وسعر﴾ (القمر: ٤٧).

ثالثًا : الوسطية والاعتدال فى شخصية المسلم :

يناقش الإمام ابن القيم الحد المناسب أو المحمود من الأخلاق والذى ينبغى للمسلم أن يحاول الالتزام به، ويعتبر أن هذا الحد إذا تجاوزه الفرد دخل إلى الإفراط وإذا قصر عنه كان التفريط، وكل من الطرفين يمثل اختلالاً واضطرابًا، ويعنى ذلك أن الاعتدال والتوسط فى الصفات والأفعال هو الذى تبنى عليه الشخصية السوية ، شخصية المسلم المؤمن. وقاعدة الاعتدال والوسطية من المفاهيم الأساسية فى المنهج الإسلامى.

﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ (الأعراف : ٣١).

﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوما﴾ (الفرقان : ٦٧).

﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ (الإسراء : ٢٩).

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله فى كتابه «الفوائد» : [٢٢]

«للأخلاق حد، متى جاوزته صارت عدوانًا، ومتى قصرت عنه كانت نقصًا

---

(٢٢) أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية) الفوائد، القاهرة : مكتبة المتنبى، دون تاريخ، ص١٣٩-١٤٢.

ومهانة، فللغضب حد وهو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائض، وهذا كماله (أى كمال الغضب)، فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار، وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل. . وللحرص حد هو الكفاية فى أمور الدنيا وحصول البلاغ منها، فمتى نقص عن ذلك كان مهانة وإضاعة، ومتى زاد كان شرها ورغبة فيما لا يحمد الرغبة فيه.

وللحسد حد، وهو المنافسة فى طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره فمتى تعدى ذلك صار بغيًا وظلمًا يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على إيذائه، ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همة وذلة نفس، قال النبى ﷺ: «لاحسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس» – فهذا حسد منافسة يطالب الحاسد به نفسه أن يكون مثل المحسود لا حسد مهانة يتمنى بها زوال النعمة عن المحسود. . .».

و«للراحة حد، وهو إجمام النفس والقوى المدركة والفعالة للاستعداد للطاعة واكتساب الفضائل وتوفرها على ذلك بحيث لا يضعفها الكد والتعب ويضعف أثرها، فمتى زاد على ذلك صار توانيًا وكسلا وإضاعة وفات به أكثر مصالح العبد ومتى نقص عنه صار مضرًا بالقوى موهنا لها وربما انقطع به كالمنبت الذى لا أرضا قطع ولا ظهرًا أبقى. . .» (ص١٣١–١٤١).

ويحدد الإمام ابن القيم رحمه الله الضابط الذى يحدد لنا القدر الأمثل من الصفات أو الأفعال فيقول : (٢٣)

و«ضابط هذا كله العدل، وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفى الإفراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة، بل لا تقوم مصلحة البدن إلا به،

---

(٢٣) ابن القيم : الفوائد، مرجع سابق، ص١٤١.

فإنه متى خرج بعض أخلاطه عن العدل وجاوزه أو نقص عنه ذهب من صحته وقوته بحسب ذلك.

وكذلك الأفعال الطبيعية كالنوم والسهر، والأكل والشرب، والجماع والحركة والرياضة والخلوة والمخالطة وغير ذلك إذا كانت وسطًا بين الطرفين المذمومين كانت عدلاً، وإن انحرفت إلى أحدهما كانت نقصا وأثمرت نقصًا. فمن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهى، فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود. . ». (الفوائد ص١٤١).

ويناقش فى موضوع آخر أهمية تلبية حاجات الروح الموصلة لسعادة الآخرة بجانب حاجات النفس، أى تلبية مطالب الآخرة مع مطالب الدنيا، فيقول: [٢٤]

«لذة كل أحد حسب قدره وهمته وشرف نفسه، فأشرف الناس نفسًا وأعلاهم همة وأرفعهم قدراً من لذّته فى معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والتودد إليه بما يحبه ويرضاه، فلذته فى إقباله عليه، وعكوف همته عليه، ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله. وأكمل الناس من جمع بين لذة القلب والروح ولذة البدن فهو يتناول لذّاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الآخرة ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه ، فهذا ممن قال تعالى فيه : ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ (الأعراف : ٣٢). وأبخسهم حظًا من اللذة من تناولها على وجه تحول بينه وبين لذات الآخرة فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات ﴿أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ (الأحقاف :٢٠) ، فهؤلاء تمتعوا بالطيبات وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا فى وجه التمتع فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذى دعاهم إليه الهوى والشهوة وسواء أذن لهم فيه أم لا فانقطعت عنهم لذة الدنيا، وفاتتهم لذة الآخرة فلا لذة الدنيا دامت لهم ولا لذة الآخرة حصلت لهم» (الفوائد : ص١٥٠).

---

(٢٤) ابن القيم : الفوائد، مرجع سابق، ص١٥٠.

ويحدد الإمام ابن القيم الطريق الموصلة لهذا التوازن وهو أن يجعل المرء إشباع دوافعه وحاجاته (الحصول على اللذة) فى الدنيا طريقًا موصلا إلى لذة الآخرة ، بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله، إرادته وعبادته، وأن يكون الوصول إلى هذه اللذة (لذة البدن أو لذة الدنيا) بشكل لا ينقص حظه فى الآخرة ، وطريق ذلك ترك الذنوب والمعاصى. وحول هذا الجانب أى ترك الذنوب والمعاصى وما يترتب عليه من فوائد يقول رحمه الله : (٢٥)

«فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لا ينقص حظه من الآخرة وظفر بهما جميعًا وإلا خسرهما (يعنى الدنيا والآخرة) جميعًا، سبحان الله رب العالمين : لو لم يكن فى ترك الذنوب والمعاصى إلا إقامة المروءة وصون العرض وحفظ الجاه وصيانة المال الذى جعله الله قواما لمصالح الدنيا والآخرة، ومحبة الخلق وجواز القول بينهم، وصلاح المعاش وراحة البدن، وقوة القلب وطيب النفس ونعيم القلب وانشراح الصدر، والأمن من مخاوف الفساق والفجار، وقلة الهم والغم والحزن، و ز النفس عن احتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وحصول المخرج له مما ضاق على الفساق والفجار، وتيسير الطاعات عليه، وتيسير الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الفسوق والمعاصى، وتسهيل الطاعات عليه، وتيسير العلم والثناء الحسن فى الناس وكثرة الدعاء له والحلاوة التى يكتسبها وجهه والمهابة التى تلقى له فى قلوب الناس، وانتصارهم وحميتهم له إذا أوذى وظلم وذَبِّهم عن عرضه إذا اغتابه مغتاب، وسرعة إجابة دعائه، وزوال الوحشة التى بينه وبين الله وقرب الملائكة منه وبعد شياطين الإنس والجن منه، وتنافس الناس على خدمته وقضاء حوائجه وخطبتهم لمودته وصحبته، وعدم خوفه من الموت بل يفرح به لقدومه على ربه ولقائه له ومصيره إليه. وصغر الدنيا فى قلبه وكبر الآخرة عنده وحرصه على الملك الكبير والفوز العظيم فيها، وذوق حلاوة الطاعة، ووجد حلاوة

---

(٢٥) ابن القيم : الفوائد، مرجع سابق، ص١٥٢،١٥١.

الإيمان ودعاء حملة العرش ومن حوله من الملائكة له، وفرح الكاتبين به ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة فى عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه وفرحه بتوبته، وهكذا يجازيه بفرح وسرور لانسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهذا بعض آثار ترك المعاصى فى الدنيا، فإذا مات تلقته الملائكة بالبشرى من ربه بالجنة، وبأنه لا خوف عليه ولا حزن، وينتقل من سجن الدنيا وضيقها إلى روضة من رياض الجنة ينعم فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناس فى الحر والعرق وهو فى ظل العرش، فإذا انصرفوا من بين يدى الله أخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين و﴿**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾ (الفوائد ص ١٥١، ١٥٢).

ولعلنا من هذه الوقفات مع الإمام ابن القيم نرى كيف ينظر إلى شخصية المسلم على أنها شخصية تسودها حالة الاطمئنان أو صفة النفس المطمئنة. وهذه النفس تنبع منها أمهات الأخلاق ، وهى نفس اطمأنت بالإيمان بالله واتباع ما شرعه من الدين، وتزينها أمهات الأخلاق مثل الصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة والجود والحلم والعفو والصفح والاحتمال والإيثار وعزة النفس عن الدناءات والتواضع والقناعة والصدق وغيرها.. وهذه الصفات لها ظاهر قد يتشابه معها فيه مقابل لها، فإن كان هذا المقابل ينبع من النفس الأمارة فهو مقصود لغير الله ، وهو كذلك مضيع لصاحبه مورد له موارد التهلكة. ثم إن الإمام ابن القيم يضع حدودًا للأخلاق إن زادت عنها دخلت إلى الإفراط وإن قصرت عنها دخلت إلى التفريط ، وهذا الحد هو العدل أو التوسط بين طرفين مذمومين، ولعل أقرب الأمثلة على ذلك فضيلة أو خلق الشجاعة، فزيادتها تعنى عدم تقدير الموقف تقديرًا مناسبًا والإقدام على التهلكة ؛ ولذلك يسمى ذلك «تهورًا» لا ينتمى إلى الشجاعة، ونقصها سيؤدى بصاحبه إلى التقاعس حتى عن مواجهة أيسر المواقف أو أكثر إلحاحًا للمواجهة ويعتبرها ذلك «خورًا وانهزامًا».

ويجمع ابن القيم شتات الصفات وأصول الأخلاق المحمود منها والمذموم تحت مجموعات عامة فيقول رحمه الله :[٢٦]

«أصل الأخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها الخشوع وعلو الهمة.

فالفخر، والبطر، والأشر، والعجب، والحسد، والبغى، والخيلاء، والظلم، والقسوة، والتجبر، والإعراض، وإباء قبول النصيحة، والاستئثار، وطلب العلو، وحب الجاه والرئاسة وأن يحمد بما لم يفعل وأمثال ذلك كلها ناشئة من الكبر، وأما الكذب، والخسة، والخيانة، والرياء والمكر، والخديعة، والطمع، والفزع، والجبن، والبخل، والعجز، والكسل، والذل لغير الله، واستبدال الذى هو أدنى بالذى هوخير، ونحو ذلك فإنها من المهانة والدناء وصغر النفس.

وأما الأخلاق الفاضلة كالصبر، والشجاعة، والعدل، والمروءة، والعفة، والصيانة، والجود، والحلم، والعفو، والصفح، والاحتمال، والإيثار، وعزة النفس عن الدناءات، والتواضع والقناعة، والصدق، والإخلاص، والمكافأة على الإحسان بمثله أو أفضل، والتغافل عن زلات الناس وترك الاشتغال بما لا يعنيه وسلامة القلب من تلك الأخلاق المذمومة ونحو ذلك فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة... ». (الفوائد ١٤٤).

وقد علق الإمام ابن القيم أصول الأخلاق المحمودة على وجود همة عالية، ونية صحيحة، تدفعان صاحبهما إلى طلب كل رفيع من الأخلاق والعلو بها عن الدناءة والمهانة وصغر النفس، وكأننا بابن القيم يتحدث عن دافع للارتفاع الخلقى بديل عما يتحدث عنه الباحثون فى علم النفس من وجود دافع للإنجاز، ودافع الهمة العالية دافع يرتبط بالجانب الدينى الذى يجعل الفرد يرتفع بنفسه عن الدنايا. يقول رحمه الله فى هذا الصدد[٢٧].

---

(٢٦) ابن القيم : الفوائد، مرجع سابق، ص١٥٤.

(٢٧) ابن القيم : الفوائد، مرجع سابق، ص١٤٥.

«المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة، فمن فقدهما تعذر عليه الوصول إليه، فإن الهمة إذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره (أى تعلقت بالله وحده)، وإذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة إليه، فالنية تفرد له الطريق، والهمة تفرد له المطلوب، فإذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة إليه كان الوصول إليه غايته. وإذا كانت همته سافلة تعلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعلى، وإذا كانت النية غير صحيحة كانت طريقه غير موصلة إليه، فمدار الشأن على همة العبد ونيته وهما مطلوبه، وطريقه لا يتم له إلا بترك ثلاثة أشياء :

الأول : العوائد والرسوم والأوضاع التى أحدثها الناس.

الثانى : هجر العوائق التى تعوقه عن إفراد مطلوبه وطريقه أوقطعها.

الثالث : قطع علائق القلب التى تحول بينه وبين تجريد التعلق بالمطلوب.

والفرق بينهما (أى بين العوائق والعلائق) أن العوائق هى الحوادث الخارجية والعلائق هى التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها ، وأصل ذلك ترك الفضول التى تشغل عن المقصود من الطعام والشراب والمنام والخلطة ، فيأخذ من ذلك ما يعينه على طلبه ، ويرفض من التعلقات القلبية ما يقطعه عنه أو يضعف طلبه ، والله المستعان». (الفوائد ص ١٤٤، ١٤٥).

ولعلنا نلمس فى هذا العرض للإمام ابن القيم أنه حدد المتغيرات الثلاثة التى تؤثر فى سلوك الإنسان وهى ما يجده من مجتمعه، ويدخل فى تنشئة وصياغة أساليب تفكيره وانفعالاته وأفعاله، وما يقابله فى البيئة من عوائق تعرقل طريقه، وما يوجد داخل نفسه من علائق.

ولعل هذا التفريق الدقيق بين العوائق والعلائق هو ما يحاول بعض الباحثين النفسيين فى الوقت الراهن أن يخصوه بجانب من الدراسات الميدانية ، تحت مسمى العوائق الشخصية أو الذاتية Self Handicapping وشتان بين ما

يبحثون من جوانب مثل الخجل والقلق والمخاوف والغضب فى معزل عن معيار الشرع ، وبين ما يتناوله الإمام ابن القيم آخذًا فى اعتباره دائمًا جانب الشرع الذى يحدد لنا العوائق والعلائق والبدع وغيرها مما يفسد على الإنسان سبيل الهدى.

رابعًا : الجوانب المعرفية للشخصية :

الجوانب المعرفية Cognitive هى الجوانب المرتبطة بالعمليات العقلية وما يرتبط بها من مدخلات مثل الإحساس، وما ينتج عنها من نواتج مثل اللغة، وما بين ذلك من عمليات الإدراك والحفظ والتذكر والتفكير وغيرها.

لقد أغفل علم النفس الحديث موضوع العمليات المعرفية ردحًا طويلا من الزمن وخاصة حين سيطرت المدرسة السلوكية على فكر الباحثين النفسيين، فقد أعطت للبيئة الدور الأول والأخير فى توجيه سلوك البشر بعد استثارته، وجعلته مجردًا من كل إرادة وتفكير، وتوهمت أنه يسير فى استجاباته كما يستجيب أى كائن حى أدنى منه تبعًا لقوانين الإشراط (الكلاسيكى والإجرائى).

وقد بدأ الباحثون فى محاولة لتدارك ما فات بإدخال العمليات العقلية كمتغيرات وسيطة بين المثيرات والاستجابات. وقد سبق علماء المسلمين، الباحثين فى علم النفس إلى النظر إلى العمليات المعرفية على أنها المحرك الأساس للسلوك والانفعال، يقول الإمام ابن القيم : [٢٨]

«مبدأ كل علم نظرى وعمل اختيارى هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات والإرادات تقتضى وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطى العادة . فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها. فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها وإلاهها صاعدة إليه دائرة على مرضاته ومحابه، فإنه سبحانه به كل صلاح، ومن عنده كل هدى، ومن

(٢٨) ابن القيم . الفوائد، مرجع سابق، ص١٧٤.

توفيقه كل رشد، ومن توليه لعبده كل حفظ، ومن توليه وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء، فيظفر العبد بكل خير وهدى ورشد بقدر إثبات عين فكرته فى آلائه ونعمه وتوحيده وطرق معرفته وطرق عبوديته وإنزاله إياه حاضرًا معه مشاهدًا له ناظرًا إليه رقيبًا عليه مطلعًا على خواطره وإرادته وهمه، فحينئذ يستحى منه ويجله أن يطلع منه على عورة يكره أن يطلع عليها مخلوق مثله، أو يرى فى نفسه خاطرًا يمقته عليه» (الفوائد ص ١٧٣).

ويتابع ابن القيم حديثه فيقول فى موضع آخر:

«واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدى متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها الذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة، فردها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها». (الفوائد ص١٧٤).

إن الإمام ابن القيم يحدد لنا بناء على هذا النموذج الذى يدل على نبوغ عظيم. [انظر شكل رقم (١)] أن الخواطر والأفكار هى البداية، وأنها تدخل المجال الإدراكى للفرد وتنمو لتصبح تصورا لإجراءات ، ويترجمها الفرد إلى إرادات تدفعه إلى سلوكيات تقوم بها الجوارح، ومع تكرار السلوك يصبح عادة يقوم بها الفرد بعد ذلك بشكل تلقائى دون حاجة إلى هذه السلسلة. ويرى الإمام ابن القيم أن المؤمن يعرض هذه الخواطر على ميزان داخلى يشتمل على عاملين أو قوتين هما قوة الإيمان وقوة العقل وهما متفاعلتان ومتكاملتان فى عملهما.

يقول رحمه الله : (٢٩)

ومعلوم أنه لو لم يعط الإنسان إماتة الخواطر ولا القوة على قطعها تهجم عليه هجوم النفس إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلى رفع أقبحها وكراهته له ونفرته منه كما قال الصحابة :

---

(٢٩) ابن القيم : الفوائد، مرجع سابق، ص١٧٤.

النفس

النفس المطمئنة

النفس الأمارة

الإيمان + العقل المستبصر

خاطر
(حديث النفس)

الضلال + العقل المضل

قطع الأفكار والخواطر
عير المناسبة والإبقاء
على الخواطر الصحيحة

استمرار الخواطر
والأمكار غير المناسبة

الإرادة
الجوارح
العمل الصالح
الاطمئنان
زيادة الايمان
النعيم

النفس اللوامة
الندم
التوبة

الإرادة
الجوارح
العمل السيء
القلق والخوف والحزن
زيادة الضلال
العذاب

شكل رقم (١) تصور لبنية النفس

يارسول الله إن أحدنا يجد فى نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أحب إليه من أن يتكلم به، فقال : أوقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم، قال : ذاك صريح الإيمان». (الفوائد ص ١٧٤).

هكذا فسر لنا ابن القيم مبعث السلوك الظاهر بدءًا من الخاطر أو الفكرة، وحدد لنا أيضا كيفية الوقاية من الوصول إلى عادة تتمكن من الشخص ويصعب عليه التخلص منها.

ويؤكد الإمام ابن القيم أن الخواطر وتواردها على ذهن الفرد خصيصة من خصائص الإنسان لا يمكن الانفكاك عنها، وإنما كل ما يمكن أن يفعله هو أن يستبصر فى هذه الخواطر ويعرضها على المحك الأساس وهو الإيمان مستخدما العقل فى الحكم على استيفائها لشروطه (الإيمان).

يقول رحمه الله فى هذا الجانب : (٣٠)

«وقد خلق الله سبحانه النفس شبيها بالرحى الدائرة التى لا تسكن ولابد لها من شيء تطحنه فإن وُضع فيها حب طحنته وإن وضع فيها تراب أو حصى طحنته، فالأفكار والخواطر التى تجول فى النفس هى بمنزلة الحب الذى يوضع فى الرحى ولاتبقى تلك الرحى معطلة قط، بل لابد لها من شيء يوضع فيها، فمن الناس من تطحن رحاه حبا يخرج دقيقا ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملا وحصى وتبنًا ونحو ذلك فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه. (الفوائد ص ١٧٤).

ولعل ماينادى به الإمام ابن القيم منذ حوالى سبعة قرون من أن أساس العلاج يكمن فى منع الخواطر الفاسدة من أن تتمكن من الإرادة والجوارح فتصبح عادة، هو ما ينادى به اليوم المعالجون فى المدرسة المعرفية Cognitive والتى تعتبر أحدث مدارس العلاج النفسي، ومن بين روادها ألبرت إيليس، وميكنبوم،

(٣٠) ابن القيم : الفوائد، مرجع سابق، ص١٧٤.

وبيك وريمى الذين ينادون بتصحيح الأفكار والخواطر والتصورات للوصول إلى تصحيح التصرفات والمشاعر[٣١].

أما الفرق الجوهرى فإن هؤلاء يحددون فساد الأفكار والخواطر والتصورات على أساس شخصى قد لا يتفق عليه شخصان، أما عالمنا الإمام ابن القيم فإنه يحدد المعيار الذى نقيس إليه كل هذه الجوانب وهو معيار الإيمان والعقل. يقول رحمه الله : [٣٢]

«فإذا دفعت الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده، وإن قبلته صار فكرًا جوالا، فاستخدم الإرادة فتساعده هى والفكر على استخدام الجوارح، فإن تعذر استخدامها رجعا إلى القلب بالمنى والشهوة وتوجهه إلى جهة المراد، ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد. فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون ما لايعنيك، فالفكر فيما لا يعنى باب كل شر. ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة فيه، فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحق شيء بإصلاحه من نفسك فإن هذه خاصتك وحقيقتك التى تبتعد بها أو تقرب من إلهك معبودك الذى لا سعادة لك إلا فى قربه ورضاه عنك ، وكل الشقاء فى بعدك عنه وسخطه عليك، ومن كان فى خواطره ومجالات فكره دنيئًا خسيسًا لم يكن فى سائر أمره إلا كذلك. وإياك أن تمكن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك فإنه يفسدها عليك فسادا يصعب تداركه ويلقى إليك أنواع الوساوس والأفكار المضرة،

---

(٣١) للاطلاع على هذه النظريات انظر باترسون : C. H. Patterson (1986) Theories of Counseling and Psychotheapy (4th ed) New York. Harper & Row.

وانظر كذلك الشناوى، محمد محروس، نظريات الارشاد والعلاج النفسى، القاهرة : دار غريب للطباعة والنشر ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

(٣٢) ابن القيم : الفوائد، مرجع سابق، ص١٧٥.

ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك وأنت الذى أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكها عليك. (الفوائد، ص١٧٥).

لعل الإمام ابن القيم يرحمه الله قد لمس حجم ما يمكن أن يمثل المنهج الوقائى فى الإرشاد والعلاج النفسى، والذى يفضى كذلك إلى المنهج العلاجى. وقد جعل مراقبة الخواطر والأفكار العنصر الأول فى هذا الطريق الوقائى والعلاجى. ولأن معيار المسلم المؤمن هو معيار الشرع، معيار الإيمان والعمل الصالح، ووسيلته فى إدراك مدى البعد أو القرب عن هذا المعيار أو هذا الميزان هو العقل، لذا فقد جعل الإمام ابن القيم الإيمان والعقل بمثابة أداة واحدة متفاعلة يستخدمها المسلم فى مراقبة خواطره وأفكاره والحكم عليها وتحديد مدى موافقتها للشرع والعقل ، إذا تبين له فساد هذه الأفكار والخواطر ببعدها عن حكم الشرع فإن عليه أن يقطعها من بدايتها قبل أن تأخذ مجراها إلى العمل الظاهر، وأما إذا تبين له صلاح هذه الخواطر والأفكار بموافقتها لحكم الشرع ومقتضى الإيمان فإنه يمضى فى طريق تنفيذها عمليا .

إن المعالجين النفسيين يحاولون اليوم استخدام مجموعة من الأساليب المعرفية لوقف الأفكار السيئة ولإلغاء المعتقدات الخاطئة ولتغيير التصورات المشوشة ولتحسين نظرة الإنسان إلى عالمه وإلى نفسه، ويضعون هذه الأساليب تحت مسميات مثل وقف الأفكار thought Stopping (وولبيه Wolpe)، والعلاج العقلانى الانفعالى Rational Emotive Therapy (ايليس Ellis)، وأسلوب الحديث الذاتى Self Speech والتحصين الذاتى ضد الضغوط Stress Inoculation (ميكينبوم Meichenbaum) وتصحيح التصورات الخاطئة Misconceptions (ريمى Rimmy) والعلاج المعرفى Cognitive (بيك Beck) ، وضبط النفس Self Control (نوفاكو Novaco) – وهذه كلها يمكن أن تندرج تحت الأسلوب الذى اقترحه الإمام ابن القيم من مراقبة الخواطر والأفكار وقطعها من بدايتها، مع وجود اختلاف مهم كما قلنا من قبل ، وهو أن الإمام ابن القيم قد حدد المعيار

(الميزان) الذى نقيس إليه الأفكار والخواطر لنحكم على صلاحها فنقبلها أو بفسادها فنقطعها ونسد عليها الطريق، وهذا الميزان هو ميزان الإيمان ، ميزان الشرع ليصدر الحكم. أما وولبيه وإيليس وبيك وغيرهم فلم يحددوا لنا معيارًا واحدًا يتفقون عليه أو حتى يمكن أن يلتقى عنده المعالج أو المرشد مع المريض، أو المسترشد، إنما هذه المعايير تخضع لحكم المعالج وربما لمعتقداته ولثقافته مع كون كثير منهم يتخذ موقفًا معاديا للدين أو فى أيسر الأحوال لا يدخله فى اعتباره.

وبذلك تتضح لنا قوة الأسلوب الإسلامى كما يصوره الإمام ابن القيم، فالمعيار فيه معيار عال لم يضعه بشر وإنما تنزل به الوحى قرآنا يتلى، وأرشدنا إليه رسول الله ﷺ فى سنته المطهرة، ومن هنا فإن المسلم المؤمن الذى يمر بمثل هذه الخبرة، خبرة فكرة أو خاطر يعرضه على معيار الشرع فيلمس فساده ثم يقوم بقطعه بأن يتوقف مجراه، فإنه سيعايش خبرة خاصة ملؤها الإحساس بإشراقة الهدى وطمأنينة النفس.

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (الرعد: ٢٨).

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ (الأعراف . ٢٠١)

هذا الإحساس الذى ينبعث من نفس المؤمن حين يرد كيد الشيطان ويقطع عليه طريقه بإدراك واع منه بأساليب الشيطان وحيله وإدراك واع منه بأن الرجوع إلى الحق وإلى الصراط المستقيم إنما هو عودة إلى حظيرة الإيمان، هذا الإحساس لا شك يتفوق كثيرا على إحساس مسترشد يذعن لتفسيرات المعالج ويصد الأفكار أو الخواطر لمجرد أنها تنغصه وأن المعالج يفسرها له على أنها خاطئة أو غير منطقية دون معيار واضح وثابت يرجعان إليه ويتفقان عليه. . .
إن هذا الإحساس الذى ينبعث من نفس المؤمن حين يقطع الطريق على أفكار وخواطر فاسدة إنما ينبعث من فطرة سليمة ، فطرة تسلم الوجه لله وتدين

بالعبودية له وحده سبحانه وتعالى، وهى بذلك تستقبل هذا الموقف بفرح الضال الذى عاد إلى الطريق.

وهذه المقتطفات التى أوردناها من كتاب الفوائد إنما هى تمثل نموذجًا من كتابات الإمام ابن القيم فى الجوانب المعرفية ودقة صياغته لها وتحديده لعناصرها وتفاعلاتها ونواتجها. وللإمام ابن القيم عديد من اللمسات فى هذا الجانب، ولعل المناقشة المستفيضة التى أوردها فى مؤلفه إعلام الموقعين على الرغم من أنها جاءت فى الحديث عن الفقه وأصوله إنما تدل على سعة علم بهذه العمليات المعرفية التى مازال علماء النفس المحدثون يجدون صعوبة فى وصفها. ونحيل القارئ الكريم إلى الفصل الممتع الذى كتبه عن القياس وما يليه من فصول حول الموضوع نفسه ثم حديثه عن الأمثال.

يقول رحمه الله : (٣٣)

وقال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ (العنكبوت : ٤٣). فالقياس فى ضرب الأمثال من خاصة العقل، وقد ركز الله فى فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بينهما والفرق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما .

قالوا : ومدار الاستدلال جميعه على التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين فإنه إما استدلال بِمُعَيَّنٍ على معين، أو بمعين على عام أو بعام على معين أو بعام على عام، فهذه الأربعة هى مجامع ضروب الاستدلال»، (إعلام الموقعين، ج١، ص١٣١).

ويقول فى موضع آخر :

«والأقيسة المستعملة فى الاستدلال ثلاثة : قياس علة، وقياس دلالة، وقياس شبه، وقد وردت كلها فى القرآن». (ص١٣٢).

(٣٣) أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية) إعلام الموقعين عن رب العالمين، صيدا بيروت : المكتبة العصرية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج١، ص١٣١.

ويمضى بعد ذلك ليناقش كل نوع من هذه الأقيسة فى استفاضة رائعة، وتعتبر ذخيرة للباحثين المجدين الذين يتناولون العمليات المعرفية بالتحليل.

وفى مؤلفه مدارج السالكين نجد الإمام ابن القيم يتناول بالشرح والتفرقة مجموعة كبيرة من المصطلحات التى تدخل فى سلوك الإنسان ما يتناوله الباحثون النفسيون فى دراساتهم، وهو يعمل فيها فكره وسعة علمه حتى إنها تصبح فى رأينا ضرورة للباحث النفسى المسلم.

يقول رحمه الله: (٣٤)

«التذكر والتفكر».

قال صاحب المنازل:

«التذكر فوق التفكر، لأن التفكر طلب والتذكر وجود».

و«التذكر» تفعل من الذكر. وهو ضد النسيان، وهو حضور صورة المذكور العلمية فى القلب . واختير له بناء التفعل، لحصوله بعد مهلة وتدرج - كالتبصر والتفهم والتعلم.

«أبنية التذكر ثلاثة : الانتفاع بالعظة، والاستبصار بالعبرة، والظفر بثمرة الفكرة». (مدارج السالكين، ج١، ص٤٧٤- ٤٨٨).

خامسا : الانفعالات (السلوك الوجدانى) :

تعتبر الانفعالات جانبا مهما من جوانب سلوك الإنسان وحياته النفسية، وهى تشتمل على الجوانب النزوعية (التصرفات) والجوانب المعرفية (العمليات العقلية) والجوانب الوجدانية (الانفعالات والعواطف). وتمثل الانفعالات استجابات بدنية ونفسية إزاء موقف أو مثير معين وهى قد تكون سارة كما قد تكون مكدرة، ويطلق البعض على الحالات الخفيفة من الانفعالات اصطلاح

---

(٣٤) ابن القيم : مدارج السالكين ، مرجع سابق، ج١ ص٤٧٤-٤٨٨. وصاحب المنازل يقصد به الهروى مؤلف كتاب منازل السائرين.

الوجدان أو الشعور Feeling بينما يحتفظون باصطلاح الانفعال Emotion للحالات الشديدة .

ويعرف الانفعال بأنه : [٣٥] «اضطراب حاد يشمل الفرد كله ويؤثر فى سلوكه وخبرته الشعورية ووظائفه الفيزيولوجية الداخلية، وهو ينشأ فى الأصل عن مصدر نفسي، ونقول إن الانفعال اضطراب حاد لأنه يتميز بحالة شديدة من التوتر والتهيج، ولأنه أثناء الانفعال تتعطل جميع أنواع النشاط الأخرى التى يقوم بها الإنسان، ويصبح نشاطه كله مركزا حول موضوع الانفعال ويشتمل الانفعال على مجموعة من المكونات هى :

١ – إدراك الموقف الانفعالى.

٢ – التغيرات الفيزيولوجية الداخلية.

٣ – التغيرات البدنية الخارجية.

٤ – الخبرة الشعورية.

٥ – التوافق للموقف الانفعالى». (نجاتى، ١٩٨٤م، ص١٠٠).

والانفعالات من حيث هى استجابات تعتبر من نعم الله على الإنسان ليواجه المواقف المتنوعة بما يناسبها من تصرف – فالخوف يساعد على التصرف بما يوافق النجاة من الأخطار – والغضب يهيئ الإنسان لرد العدوان الواقع على ما يحبه وفي مقدمتها دينه ونفسه وعقله وعرضه ونسله وماله.

لقد تناول الإمام ابن القيم الانفعالات والمشاعر فى مواضع شتى من مؤلفاته. وقد مر بنا حديثه عن مجموعة منها مثل الجزع والحقد والحسد والموجدة والغضب وغيرها حين عقد المقارنة بين ما يشتبه على الإنسان مما يصدر عن النفس الأمارة فى مقابل ما يصدر عن النفس المطمئنة، وكذلك عندما تحدث عن حد الأخلاق . كما تحدث الإمام ابن القيم عن الانفعالات والمشاعر

(٣٥) محمد عثمان نجاتى : علم النفس فى حياتنا اليومية (ط١١) الكويت، دار القلم ١٩٨٤م.

التى يمر بها الإنسان فى مواقف شتى وخاصة عندما يمرض القلب وتسيطر على النفس أهواؤها ، ثم عند أوبه ورجوعه إلى ربه وصد الشيطان وسد الطريق على مسالكه له. ومن المؤلفات التى تحدث فيها عن هذه المواقف كتاب إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، وكتاب الفوائد، وغيرهما. وفى مؤلفه مدارج السالكين نجده يفرد فصولاً ممتعة للحديث عن مجموعة كبيرة من الانفعالات والمشاعر ، بل ويمضى وراء ذلك التفريق بين المسميات المختلفة كالتفريق بين الرجاء والتمنى، وبين الخوف والخشوع والوجل والإخبات، كما يتحدث عن الحزن وعن الحياء والسكينة والطمأنينة، والمحبة والشوق، والقلق، والوجد، والسرور، والغربة والاغتراب. . . إلخ.

فحين يتحدث عن الطمأنينة يقول : (٣٦)

«الطمأنينة سكون القلب إلى الشىء وعدم اضطرابه وقلقه» (مدراج السالكين ج٢ ص٥٣٤).

وحين يتحدث عن السكينة يقول :(٣٧)

«وأصل السكينة هى الطمأنينة والوقار والسكون الذى ينزله الله فى قلب عبده عند اضطرابه من شدة الخوف فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات» (ج٢ ص٥٢٥).

ويقول عن الحياء : (٣٨)

«الحياء من الحياة، ومنه الحيا للمطر لكن هو مقصور، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح– فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم». (ج٢، ص٢٧٠).

---

(٣٦) ابن القيم : مدارج الساكين : مرجع سابق، ج٢ ص٥٣٤.

(٣٧) ابن القيم . مدارج السالكين : مرجع سابق، ج٢ص٢٥٢.

(٣٨) ابن القيم : مدارج السالكين : مرجع سابق، ج٢ ص ٢٧٠.

ويعود بعدها فيقسم الحياء إلى عشرة أقسام و أنواع : حياء جناية، وحياء تقصير، وحياء إجلال، وحياء كرم، وحياء حشمة، وحياء استصغار للنفس واحتقار لها، وحياء محبة، وحياء عبودية، وحياء شرف وعزة، وحياء المستحى من نفسه.

وحين يقارن بين «الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» و «والوجل» و «الهيبة» يقول : (٣٩)

* الخوف : هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

* والخشية : أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله ، قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر: ٢٨)، فهى خوف مقرون بمعرفة، وقال النبى ﷺ : «إنى أتقاكم لله وأشدكم له خشية». فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإن الذى يرى العدو والسيل ونحو ذلك له حالتان:

* أحدهما : حركة للهرب منه وهى حالة الخوف.

* والثانية : سكونه وقراره فى مكان لا يصل إليه فيه وهى الخشية : ومنه انخش الشىء.

* وأما الرهبة : فهى الإمعان فى الهرب من المكروه وهى ضد «الرغبة» التى هى سفر القلب فى طلب المرغوب فيه ...

* وأما «الوجل» : فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته.

* وأما «الهيبة» : فخوف مقارن للتعظيم والإجلال ، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة.

* و«الإجلال» : تعظيم مقرون بالحب. . (مدارج السالكين ج١ ص٥٤٩، ٥٥٠).

---

(٣٩) ابن القيم : مدارج السالكين : مرجع سابق، ج٢ ص ٥٤٩، ٥٥٠.

سادسًا : الفروق الفردية :

على الرغم من وجود عناصر مشتركة بين البشر تحدد معالم شخصياتهم فإن هناك جوانب عديدة تفرق بينهم حتى يصبح لكل واحد منهم شخصيته التى نعرفه بها. وكما حدد الإمام ابن القيم المعالم العامة للشخصية حين تحدث عن حالات النفس المطمئنة، واللوامة، والأمارة، وكما عاد فجمع أصول الأخلاق المحمودة فى الخشوع وعلو الهمة، وجمع أصول المذموم من الأخلاق فى الكبر والمهانة والدناءة، فإنه يحدد أن هناك فروقا بين الأفراد بعضهم والبعض يجب أن تؤخذ فى الاعتبار سواء فى جوانب الدين أم جوانب الدنيا .

يقول فى كتابه تحفة المودود: (٤٠)

«ومما ينبغى أن يعتمد حال الصبى، وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها، فيعلم أنه مخلوق له، فلا يحمله على غيره ما كان مأذونًا فيه شرعا، فإنه إن حمله على غيرما هو مستعد له لم يفلح فيه، وفاته ما هو مهيأ له، فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك جيد الحفظ واعيًا، فهذه من علامات قبوله وتهيؤه للعلم، لينقشه فى لوح قلبه ما دام خاليا فإنه يتمكن فيه، ويستقر، ويزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه، وهو مستعد للفروسية، وأسبابها من الركوب والرمى، واللعب بالرمح، وأنه لا نفاذ له فى العلم، ولم يخلق له مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها، فإنه أنفع له وللمسلمين، وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك، ورأى عينيه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع، مستعدا فيها، قابلا لها، وهى صناعة مباحة نافعة للناس، فليمكنه منها، هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه فى دينه، فإن ذلك ميسر على كل أحد لتقوم حجة الله على العبد، فإن له على عباده الحجة البالغة، كما له عليهم النعمة السابغة والله أعلم». (تحفة المودود ص ٢٤٣، ٢٤٤).

(٤٠) أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية) تحفة المودود بأحكام المولود، دمشق : مكتبة دار البيان ١٣٩١هـ - ١٩٧١م، ص٢٤٣، ٢٤٤.

هكذا يلمس الإمام ابن القيم فى العرض الموجز ما يتحدث عنه الباحثون الآن تحت مفهوم الفروق الفردية والذى يعتبر مبدأ يستخدم فى التعليم، والإرشاد النفسى والمهنى، وفى التوجيه التربوى والخدمة الاجتماعية والطب النفسى وغيرها. وقد أشار بصفة خاصة إلى الاستعدادات التى تعتبر نقطة الانطلاق لمجالات الحياة والتى باعتبارها يدخل الأفراد إلى ما يناسبهم من التعليم والعمل، وهذه الاستعدادات هى التى تتحول إلى قدرات نتيجة التدريب. كما يعتبر هذا الذى تحدث عنه الإمام ابن القيم سبقًا كبيرا فيما يعرف الآن بالإرشاد المهنى، وعلم النفس المهنى، والذى يرجعه كثير من الباحثين إلى الفكرة التى نادى بها الأمريكى بارسونز فى كتابه كيف تختار مهنة (١٩٠٩م) [٤١] والذى يقوم على فكرة الرجل أو الشخص المناسب للعمل المناسب، وهذا المعنى قد جمعه الإمام ابن القيم فى عبارته السابقة .

سابعًا : نمو الشخصية :

لم يهمل الإمام ابن القيم الحديث عن نمو الشخصية، ولعله – كما كان فى كثير مما تحدثنا عنه من جوانب الشخصية – له السبق أيضًا فى التحدث عن أهمية مرحلة الطفولة فى حياة الشخص، وعن الدور الذى يلعبه الآباء فى تكوين شخصية الأبناء، كما تحدث أيضًا عن مراحل النمو وقسمها إلى مراحل متعاقبة أعطى كلا منها اسما مميزًا. وربما يكون مؤلفه «تحفة المودود بأحكام المولود» من أمتع الكتب التى تناقش نمو الإنسان منذ كونه جنينًا.

يقول رحمه الله : [٤٢]

«ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خلقه، فإنه ينشأ على ما عوده المربى فى صغره من حردٍ وغضب ولجاج وعجلة وخفة مع هواه،

---

(٤١) بارسونز : F. Parsons (1909) Choosing a Vocation Boston : Houghton Mifflin

(٤٢) ابن القيم : تحفة المودود : مرجع سابق، ص٢٤١.

وطيش وحدة، وجشع، فيصعب عليه فى كبره تلافى ذلك، وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، فلو تحرز منها غاية التحرز، فضحته ولابد يومًا ما. ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم، وذلك من قبل التربية التى نشأوا عليها. وكذلك يجب أن يجتنب الصبى إذا عقل : مجالس اللهو والباطل، والغناء، وسماع الفحش، والبدع، ومنطق السوء، فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته فى الكبر، وعز على وليه استنقاذه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور، ويحتاج صاحبه إلى استجداد طبيعة ثانية، والخروج عن حكم الطبيعة عسر جدا. . .». (ص ٢٤٠، ٢٤١).

هكذا نجد الإمام ابن القيم يتحدث عن التنشئة الاجتماعية ودور الأبوين فيها، وكيف أنهما قد يدعمان فى الابن سلوكًا فاسدًا كما أنهما قد يعرضانه لنماذج سيئة يتعلم منها ويقلدها، ويؤكد دور التربية ودور الوقاية.

أما فى حديثه عن مراحل النمو فإنه يستهله بالحديث عن مرحلة الحمل وكون الفرد فيها جنينًا، ويتحدث عن تطور الجنين استنادًا إلى الآيات القرآنية والأحاديث المروية عن الرسول ﷺ، ثم تحدث بعد ذلك عن سبب الشبه بالأبوين أو أحدهما وسبب الإذكار والإيناث، وفى هذا الجانب يسجل ابن القيم للمسلمين السبق فى جوانب كثيرة لم تكن معروفة لغيرهم، مثل كون الإنسان مخلوقًا من نطفة الذكر ونطفة الأنثى، كما يقرر القرآن ذلك. وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن سن التمييز وهو حوالى سبع سنين، ثم فى سن العاشرة حيث يضرب على ترك الصلاة كما أمر به النبى ﷺ وهذا تأديب وتمرين». (ص٢٩٦). ثم فى المرحلة بعد العشر إلى سن البلوغ يسمى مراهقًا مناهزًا للاحتلام، ثم البلوغ ثم الرشد من نحو سبع عشرة سنة إلى نحو الأربعين، ثم يبدأ فى الضعف. ويربط ابن القيم بين مراحل النمو ومجموعة من الأسماء التى تطلق عليها فيقول : [٤٣]

(٤٣) ابن القيم : تحفة المودود : مرجع سابق، ص٣٠٢،٣٠١.

«ثم بعد الأربعين يأخذ فى النقصان وضعف القوى على التدرج، كما أخذ فى زيادتها على التدرج. قال الله تعالى : **﴿الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة﴾** (الروم : ٥٤). فقوته بين ضعفين، وحياته بين موتين، فهو أولا نطفة، ثم علقة ثم مضغة، ثم جنين مادام فى البطن، فإذا خرج فهو وليد، فما لم يتم سبعة أيام فهو صديغ، لأنه لم يشتد صدغه، ثم مادام يرضع فهو رضيع، فإذا قطع عنه اللبن فهو فطيم، فإذا دب ودرج فهو دارج، قال الراجز :

(ياليتنى قد زرت غير خارج) أم صبى قد حبا ودارج

فإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو : خماسى، فإذا سقطت أسنانه فهو مثغور، وقد ثغر، فإذا نبتت بعد سقوطها فهو مثغر (بوزن مدكر)، بالتاء والثاء معًا، فإذا بلغ السبع وقاربها فهو مميز، فإذا بلغ العشر فهو مترعرع وناشئ، فإذا قارب الحلم، فهو يافع ومراهق، ومناهز للحلم، فإذا بلغ فهو بالغ، فإذا اجتمعت قوته فهو حزوَّر واسمه فى جميع ذلك غلام مالم يخضر شاربه، فإذا اخضر شاربه وأخذ عذاره فى الطلوع، فهو باقل، وقد بقل وجهه بالتخفيف، ثم هو ما بين ذلك وبين تكامل لحيته فتى وشارخ بحصول شرخ الشباب له، فإذا اجتمعت لحيته فهو شاب إلى الأربعين، ثم يأخذ فى الكهولة إلى الستين، ثم يأخذ فى الشيخوخة، فإذا أخذ شعره فى البياض قيل شاب، فإذا ازداد قيل وخطه الشيب، فإذا زاد قيل شمط، فإذا غلب شيبه فهو أغثم، فإذا اشتعل رأسه ولحيته شيبا فهو متقعوس، فإذا انحط قواه فهو هرم، فإذا تغيرت أحواله وظهر نقصه فقد رد إلى أرذل العمر، فالموت أقرب إليه من اليد إلى الفم» (تحفة المودود ص ٣٠١، ٣٠٢).

ولا يقف الإمام ابن القيم فى كتابه «تحفة المودود» عند الحديث عن مراحل النمو والنصائح التى يوجهها للآباء فى التعامل مع أبنائهم ومسئوليتهم فى ذلك، بل يتناول بالحديث ما يعترض الطفل من مشكلات [٤٤].

---

(٤٤) ابن القيم : تحفة المودود: مرجع سابق، ص ٢٣٣.

«وينبغي أن يوقى الطفل كل أمر يفزعه من الأصوات الشديدة الشنيعة والمناظر الفظيعة، والحركات المزعجة، فإن ذلك ربما أدى إلى فساد قوته العقلية لضعفها، فلا ينتفع بها بعد كبره، فإذا عرض له عارض من ذلك، فينبغى المبادرة إلى تلافيه بضده، وإيناسه بما ينسيه إياه، وأن يلقم ثديه فى الحال، ويسارع إلى رضاعه ليزول عنه ذلك المزعج له، ولا يرتسم فى قوته الحافظة، فيعسر زواله، ويستعمل تمهيده بالحركة اللطيفة إلى أن ينام، فينسى ذلك، ولا يهمل هذا الأمر، فإن فى إهماله إسكان الفزع والروع فى قلبه، فينشأ على ذلك ويعسر زواله ويتعذر». (تحفة المودود، ص٢٣٣).

ولعل هذا النموذج الذى أورده الإمام ابن القيم يشتمل على كل ما يحاوله المعالجون النفسيون فى الوقت الحالى لمعالجة الخوف، وفيه جانب الوقاية مقدم على جانب العلاج ثم العلاج بالتطمين بالضد، أو ما يعرف الآن بالعلاج «بالكف بالنقيض والتخلص من الحساسية»، عن طريق إرضاع الطفل من أمه وإيناسه بما ينسيه الفزع وهو يناسب أيضًا أسلوب التشتيت أو الإشغال Distraction وهذا النموذج الذى ينصح به الإمام ابن القيم يماثل الأساليب التى نتجت عن تجارب مارى كوفر جونز (١٩٢٤م)، وجوزيف ولبيه (١٩٥٨م) للإشراط المضاد Counter Conditioning والكف بالنقيض Reciprocal - Inhibition . ومما هو جدير بالذكر أن الإمام ابن القيم قد اعتبرها علاجا بالضد «فينبغى المبادرة إلى تلافيه بضده».

ثامنا : اضطرابات الشخصية :

رأينا عبر هذه الدراسة كيف أقام الإمام ابن القيم تصوره للسلوك البشرى على أساس من المنهج الإسلامى ، وأن النفس تشتمل فى بنيتها على أركان : أمارة، ومطمئنة، ولوامة. وإن نمو الفرد فى أحضان الإيمان وعرضه لخواطره وأفكاره على ميزان الإيمان والعقل يجعله يقبل الصالح منها ويرفض الفاسد

فتسود لديه حالة النفس المطمئنة ، ويصبح الالتزام الإيمانى أمراً سهلا ليس فيه مشقة وعادة مألوفة يشعر معها بالسعادة واللذة بتحقق وإشباع مطالب بدنه ومطالب آخرته، وهذا هو نسيج الصحة النفسية للمسلم. أما إذا غلبت على الفرد النفس الأمارة بالسوء وتمكن الشيطان منه، وأضله عقله بعد الالتزام بحكم الشرع وميزان الإيمان، فإن الأعمال تختلط عليه حتى يرى سيئها أحسنها، ومآله الذى لا مفر منه الاضطراب، الذى يطلق عليه الإمام ابن القيم فى كثير من مؤلفاته مرض القلب.

لقد خصص الإمام ابن القيم وهو الفقيه العالم الداعية كثيرا من كتاباته للحديث عن أمراض القلوب وأسبابها، حتى لا يكاد يخلو مؤلف منها، وإن بدت فى بعض المؤلفات بشكل أكبر مثل مؤلفه إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (جزءان)، ومدارج السالكين (ثلاثة أجزاء) والفوائد، والجواب الكافى، والروح. . . وغيرها. وهو ينظر إلى أمراض القلوب من المنطلق نفسه الذى تبصَّر به فى نفس الإنسان على أساس من الالتزام بمنهج الإسلام من عدمه، فمرض القلب ما هو إلا انحراف النفس عما أمر الله به وإتيانها ما نهى عنه.

وفى كتابه الروح فإنه يجمع أصل كل عمل فاسد فى الكِبْر والمهانة، فالكبر يصد عن الحق ويعمى البصيرة ويؤدى إلى البغى والعدوان، والمهانة والدناءة تنخفض بالمرء إلى الأسافل من الأعمال والأخلاق فتمنعه عن طلب الرفيع منها وتزين له الوضيع منها.

وفى كتابه مدارج السالكين يجمع الإمام ابن القيم مفسدات القلب فى خمسة أسباب : (٤٥)

«وأما مفسدات القلب الخمسة فهى التى أشارإليها الهروى مؤلف منازل

---

(٤٥) ابن القيم : مدارج السالكين : مرجع سابق، ج١، ص٤٨٨.

السائرين، من كثرة الخلطة، والتمنى، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام، فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب». (مدارج السالكين، ج١، ص٤٨٨) .

وتجمع هذه الجوانب الخمسة بين الإسراف فى العلاقات الشخصية مع ما يصاحبها من تعلم من نماذج سيئة والتأثر بأفكارهم والانقياد لأهوائهم، والتمنى وهو ما يعبر عنه الباحثون النفسيون بأحلام اليقظة والبعد عن الواقع، فإن التمنى لا يشتمل على عمل فى حين أن الرجاء يكون مصحوبا بجهد، والتعلق بغير الله لأنه ضلال عن الطريق وعدم اهتداء إلى الإله الواحد الحق الذى خلقنا لعبادته فلا يكون هناك إخلاص فى العمل، والشبع وهو يمثل نموذجًا للإسراف فى إشباع الحاجات الأساسية والتغالى فى ذلك مما يلهى عن إشباع مطالب الآخرة ، وكذلك الأمر فى المنام حيث يفوِّت فى كثرته على الإنسان لذة العبادة ولذة السعى .

ولا يقف الإمام ابن القيم عند عرض هذه المفسدات بل يفرد لها فصولا لشرحها وبيان آثارها ، وفى مؤلفه إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان فإنه يفرد فصولاً عديدة للحديث عن أمراض القلوب فيتحدث عن انقسام القلوب إلى صحيح وسقيم وميت، حقيقة مرض القلب، أمراض القلب طبيعية وشرعية، حياة القلب، القرآن متضمن لأدوية القلب وعلاجه من كل أمراضه، علامات مرض القلب، علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه، ومكائد الشيطان لابن آدم. . . إلخ .

وقد تناول الإمام ابن القيم بعد حديثه عن النفس وأنواعها وأمراض القلوب وأسبابها، بالحديث مجموعة كبيرة من الآفات التى تصيب الأشخاص والمجتمعات والتى أوضح الإسلام شرع الله فيها سواء منها ما يتعلق بالعقيدة أو العبادات أو المعاملات بين الناس، أو الأخلاق، وهى فى عددها أكبر من أن نتناوله بالعرض الموجز. ولكن ما نود أن نؤكده فى هذا المقام أن هذه الآفات كما يراها الإسلام هى أسباب تعس الأفراد والمجتمعات، وأن البعد عن المنهج

الإسلامى هو الموقع فيها، وأن قصور الباحثين هو الذى صرفهم عنها وشغلهم بمسميات مثل العصاب والقلق والاكتئاب وهى كلها إنما تأتى نتيجة مباشرة أو لاحقة لتلك الآفات التى تصاب بها المجتمعات والأفراد والتى تغلق قلوبهم عن الحق، فيمرض الأفراد وتمرض المجتمعات يقول رحمه الله : (٤٦)

«وقد يمرض القلب ويشتد مرضه، ولا يعرف به صاحبه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته ، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح،ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بسبب حياته :

«وما لجرح بميت إيلام»

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها، فهو يؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النفس، وليس فيها أنفع منه». (إغاثة اللهفان، ج١، ص٦٨، ٦٩).

ويقول فى موضع آخر : (٤٧)

«ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه، الذى لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن، وإليه يأوى، وبه يفرح، وعليه يتوكل، وبه يثق، وإياه يرجو، وله يخاف، فذكره قوته وغذاؤه محبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والإلتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه، فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة، فإن فى القلب فاقة

---

(٤٦) ابن القيم : إغاثة اللهفان : مرجع سابق، ج١، ص٦٨، ٦٩.

(٤٧) ابن القيم : إغاثة اللهفان : مرجع سابق، ج١، ص٧١-٧٣.

لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبدًا، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له، وعبادته وحده فهو دائمًا يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذى له خلق الخلق، ولأجله خلقت الجنة والنار، وله أرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولولم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء وكفى بفوته حسرة وعقوبة...». (ص٧١).

«وبالجملة فالقلب الصحيح : هو الذى همه كله فى الله، وحبه كله له، وقصده له، وبذله له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث». (ص٧٣).

هكذا فى تناغم واتساق تامين يتحدث ابن القيم عن أمراض القلوب وعن صحتها، وقوام ذلك كله هو الالتزام بواجب العبودية لله وطاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه، فذلك هو الطريق الموصل لصحة القلب، والبعد عنه هو المؤدى إلى مرضه .

ولعل ما تشهده البشرية الآن من ضغوط هى فى معظمها من صنع الإنسان نفسه بالتخلى عن الدين والانسياق وراء الماديات وإشباع الحاجات البدنية وإهمال الحاجات الروحية والصراع بين الإنسان وأخيه الإنسان والظلم والبغى والعدوان واقتراف الآثام والانزلاق إلى مهاوى الجريمة وتعاطى المسكرات والمخدرات، وهذه كلها قد أدت إلى تفاقم الاضطرابات النفسية وفى مقدمتها عدوان الإنسان اللدودان القلق والاكتئاب.

لقد وضَّح الإمام ابن القيم أن عدو الإنسان هو نفسه التى بين جنبيه، وأن الشيطان يحاول بلا هوادة أن يجد طريقه إلى القلب من خلال الأفكار والخواطر التى لو وجدت طريقها إلى الإرادة وإلى الجوارح لأصبحت عادات يصعب زوالها، كما أوضح أن المؤمن يبنى «مصفاة» بداخله أساسها الإيمان والعقل لتمر عليها

هذه الخواطر والأفكار فيقبل منها ما يوافق الإيمان ، وبذلك يخلص قلبه ويصح وينجو من المرض أما الذى لم يخلص إيمانه فإن هذه المصفاة تتعطل وبذلك تجد الأفكار الفاسدة طريقها إلى الإرادة وإلى الجوارح فتصبح القبائح والآثام طريقه وعادته المألوفة. والرجوع إلى الدين الحق والتمسك به عقيدة وشريعة هو الطريق الموصل إلى الصحة ، صحة القلب وسلامته أو بلغة علم النفس الصحة النفسية Mental Health أو السعادة وطيب العيش Well Being.

وقد بدأ بعض الباحثين مؤخرًا فى الحديث عن نوع من الشخصية أطلقوا عليها الشخصية الصلبة أو الشديدة Hardy Personality وهى شخصية تتميز بالضبط وبمواجهة الضغوط والشدائد دون استسلام لها أو انفعال بالغضب أو الخوف، ولعل الإسلام هو الذى حدد معالم هذه الشخصية منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان كما نلمسه فى الحديث الشريف. عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب». [رواه البخارى].

وهذه الشخصية تتوافر فى المؤمن الحق الذى يدرك غاية وجوده وهى عبادة الله، ويعمل للآخرة كما يعمل للدنيا، ويرضى بالقضاء ويتمسك بالصبر، ويضبط تصرفاته ويتحكم فيها ويلتزم حد الاعتدال فى أفكاره ومشاعره وتصرفاته.

تاسعًا : العلاج النفسى :

ترتبط أساليب العلاج النفسى بالنظريات التى نشأت فى ظلها، وتتسق معها اتساقًا كاملا. والمتأمل فى فكر الإمام ابن القيم وكتاباته يجد أنه يجمع فيها نسقًا واحدا لا تحيد عنه مقدار أنملة، وهذا النسق – كما ذكرنا من قبل – هو نسق الإيمان الذى يتخذ منه معيارًا للحكم على الخاطر والفكرة منذ ورودها على ذهن المرء ، ويستمر هذا المعيار معه حتى لو نجح الخاطر فى الوصول إلى

الجوارح وظهوره فى شكل فعل ظاهر، فإن المسلم كما يقول الإمام ابن القيم يلزمه نوعان من المحاسبة «محاسبة قبل وقوع الفعل». وهذه لها دور وقائى و«محاسبة بعد وقوع الفعل». وهذه لها دور علاجى .

لو أردنا أن نلخص نظرة الإمام ابن القيم فى العلاج لقلنا : إنها نموذج إيمان معرفى، نموذج يستخدم العقل فى التعرف على موافقة الفكرة أو الخاطر لميزان الشرع، أو معيار الإيمان، وأن العلاج يكمن أساسا فى قطع الأفكار أو الخواطر من بدايتها إذا لم تكن مستوفية لشروط الإيمان ، وبالتالى يقطع عليها طريق الظهور والاستحكام فى شكل عادات سلوكية.

كذلك فإن من بين ما يجعله ابن القيم قاعدة وقائية علاجية أن يلتزم المسلم الحد المحمود من الأخلاق فلا إفراط ولا تفريط، وهو يضرب العديد من الأمثلة على ذلك. أما أساليب العلاج وتصحيح ما وقع فيه فهى الأساليب الإيمانية المعروفة من محاسبة النفس والتوبة والإنابة والرجوع إلى الله والدعاء والذكر والعبادات. وقد أورد الكثير من هذه الجوانب فى كتبه مثل مدارج السالكين، والوابل الصيب من الكلم الطيب، وإغاثة اللهفان، وطريق الهجرتين وباب السعادتين، والجواب الكافى (الداء والدواء) والطب النبوى. . . وغيرها.

وبذلك فإن المسلم قد تعترض طريقه هنات تثيره – أكبرها هو ما يتعلق بالجوانب الشرعية الإيمانية وأساليب تصحيحها هى أساليب إسلامية بحتة تأتى التوبة فى مقدمتها. ولكى يصل المسلم إلى واقع التوبة فلابد له أن يكون قد عرض نفسه وأعماله على ميزان الإيمان ، وتبين له ما قصر فيه ووجه القصور ، يقول رحمه الله : (٤٨)

«ومن منزلة المحاسبة يصح له نزول منزلة «التوبة»، لأنه إذا حاسب نفسه، عرف ما عليه من الحق فخرج منه، وتنصل منه إلى صاحبه، وهى حقيقة «التوبة» فكان تقديم المحاسبة عليها لذلك أولى.

---

(٤٨) ابن القيم : مدارج السالكين : مرجع سابق، ج١، ص١٨٩.

ولتأخيرها عنها وجه أيضًا وهو أن «المحاسبة» لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة.

والتحقيق : أن التوبة تقع بين محاسبتين، محاسبة قبلها، تقتضى وجوبها، ومحاسبة بعدها تقتضى حفظها. فالتوبة محفوفة بمحاسبتين. وقد دل على المحاسبة قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ...﴾ (الحشر : ١٨).

فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر : هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح ؟ (مدراج السالكين ج١ ص ١٨٩).

ويقول فى مكان آخر :[٤٩]

«وشرائط التوبة ثلاثة : الندم، والإقلاع، والاعتذار».

ناقش ابن القيم فكرة الاعتذار التى أدخلها الهروى فى شروط التوبة فيقول رحمه الله :

«فحقيقة التوبة : هى الندم على ما سلف منه فى الماضى، والإقلاع عنه فى الحال، والعزم على ألا يعاوده فى المستقبل.

والثلاثة تجتمع فى الوقت الذى تقع فيه التوبة، فإنه فى ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم. فحينئذ يرجع إلى العبودية التى خُلق لها. وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة». (مدارج السالكين ج١ص٢٠٢) .

وفى الواقع فإن كل ما يعمله الإنسان متصلا بشؤون دنياه له أيضا علاقة بواقع إيمانه وله بيان فى الكتاب والسنة، فالعمل والإخلاص فيه، والأسرة وبناؤها والعلاقات التى تسود بين أفرادها، والمجتمع وما بين أفراده من علاقات ومصالح، وشغل الإنسان وفراغه، كلها جوانب لابد للإنسان أن يراقب

(٤٩) ابن القيم : مدارج السالكين : مرجع سابق، ج١، ص٢٠٢.

ربه فيها، وأكثر ما يحدث من اضطرابات نفسية إنما يأتى من خلل فى هذه الجوانب لبعدها عن منهج الإسلام. فالصراع بين الناس يأتى نتيجة الجور والبغى من بعضهم (ممن ضعف إيمانه) على بعض، والخلل داخل الأسرة يأتى من عدم التزام الشرع وما يفرضه من المسؤولية والعدل على كل فرد من أفرادها، وقد يكون أكثره كما يقول الإمام ابن القيم من تقصير الآباء فى تربية أبنائهم وتعريضهم لنماذج سيئة يتعلمون منها، وقد يكونون هم أنفسهم (أى الآباء) هذه النماذج السيئة. والتقصير فى العمل إنما يكون لفقدان معنى الإخلاص وهو أمر يتصل بحفظ الأمانة وحفظ العهد، وهى أمور يلزم الإسلام بها أتباعه. وهكذا كلما تتبعنا أمرا من الأمور التى نظن أنها منفصلة عن الدين نجد أنها فى الواقع ذات صلة وثيقة به، لأنه يجمعها شخص واحد يتسق سلوكه، فالذى يهدر الوقت ويضيع الصلاة سنجده فى إهدار وقت العمل أكثر، والذى سيسقط حق الله فى ماله فإنه سيكون إلى غش الناس أسرع، وهكذا، فكما أن صلاح الأعمال بصلاح الخواطر فإن صلاح السلوك كله بصحة الإيمان، لأن الميزان الذى نحكم به على الخواطر والأعمال كما قلنا هو ميزان الإيمان، وأما العقل فهو الأداة التى تجعلنا نحكم الحكم الصحيح تبعًا لهذا الميزان..

ومن هنا فإن نموذج التوبة ذلك الأسلوب الإسلامى يقع كما يقول ابن القيم بين محاسبتين ، أو بلغة علم النفس بين قياسين، المحاسبة الأولى قبل التوبة؛ لأنها هى التى تحدد لنا مدى البعد عن مسار الإيمان. والمحاسبة الثانية بعد التوبة وهى محاسبة تعين المسلم على معرفة ما إذا كان قد التزم بما عقد العزم عليه.

ويحاول الباحثون النفسيون فى السنوات الأخيرة اتباع نموذج قريب من نموذج التوبة ، وهو يبدا أيضًا بمراقبة الذات ثم يتلو ذلك عملية التصحيح ، وأخيرا الحكم على هذا التصحيح، والتشابه أو القرب الذى أشير إليه هنا هو تشابه

الإطار وليس تشابه المحتوى، فأسلوب مراقبة الذات كما يقترحه هؤلاء الباحثون أسلوب ذاتى لا يقيس السلوك إلى شىء موضوعى وإنما يقيس السلوك إلى الإحساس الذاتى فهو نموذج خاو، لأنه سيتباين فى محتواه بين شخص وآخر، ويخضع فقط إما لحكم العقل أو لحكم العاطفة، ولا يربط بين أفعال الدنيا وجانب الدين، أما النموذج الإسلامى فهو نموذج ثابت قائم على منهج الإسلام، المنهج الثابت الواضح الذى شرعه خالق الإنسان، سبحانه وتعالى، لهذا الإنسان لهدايته وإصلاح حياته وأخراه، ولذلك فمحتواه معلوم للإنسان بحكم الهداية والتبليغ، وليس أمرًا اجتهاديا بين الفرد ونفسه أو حتى بينه وبين مرشد آخر.

ومن هنا نقول إن نموذج التوبة فى مجال العلاج يمكن بجانب كونه أساسا فيما يتصل بجوانب الإيمان، نموذج إسلامى يمكن أن نستخدمه أيضًا في سائر شؤون الحياة. والإسلام دين المسؤولية وهو يطلب من كل مسلم أن يتحمل مسؤوليته نحو ربه فى العبودية له سبحانه ونحو الآخرين، ولا يمكن أن يوجد انحراف خارج هذه الجوانب، بل إن الباحث المدقق يعرف أنها كلها جوانب متكاملة. فكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن العبادة إنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضى عنه.

والذى يمكن أن نخلص إليه هنا هو ما يأتى:

١- إن عبودية الإنسان لربه هى غاية حياته كما حدد القرآن ذلك: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ (الذاريات: ٥٦).

٢- إن العبودية لله يمكن أن تشمل كل ما يقوم به الإنسان من أعمال يرضى الله عنها. كما يعرفها بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله [٥٠] حيث يقول: «العبادة: هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة...». (ص٣٨).

---

(٥٠) تقى الدين أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية) العبودية (ط٥) دمشق، المكتب الإسلامى، ١٣٩٩هـ، ص٣٨.

٣- إن الإنسان عليه أن يراقب عمله ويحاسب نفسه ليس عن العمل فقط ولكن على بداية الأعمال وهى الخواطر والأفكار ويعرضها على ميزان الإيمان مستخدمًا عقله الذى كرمه الله به فى الحكم عليها (أى على الأفكار والأعمال).

٤- إن قطع الأعمال من بدايتها منذ أن تكون أفكارًا وخواطر أسهل وأولى من تركها إلى أن تصبح عادات.

٥- إن التوبة والرجوع والإنابة وتصحيح ما صدر عن الإنسان سواء فى حق ربه وهذا طريقه التوبة والإيمان والعمل الصالح أو فى حق نفسه أو في حق الآخرين بما يفرضه الإسلام عليه، هذه كلها أساليب تصحيح السلوك ومعالجته .

الخلاصة

عرضنا فى هذه الأوراق لجانب من فكر الإمام الفقيه المحدث العلامة ابن قيم الجوزية حول الإنسان ومنزلته وحول النفس وأحوالها وما يتفرع عنها من صفات تنتمى إلى النفس الأمارة أو إلى النفس المطمئنة، وكيف أن هناك لكل خُلُقٍ حدًّا إذا تجاوزه مال إلى الإفراط وإذا قصر عنه مال إلى التفريط ، وأن النفس دائرة كالرحا، وأن ما تطحنه بين شقيها هى الأفكار والخواطر، وهذه الأفكار والخواطر منها ما هو صالح يناسب منهج الإيمان ومنها ما هو فاسد يلقيه الشيطان للإنسان ليضله عن الصراط المستقيم. فإذا تركت الأفكار والخواطر فإنها تصل إلى الإرادات، والإرادات تسلمها إلى الجوارح فتخرج أعمالا وأقوالا وتصبح بتكرارها عادات. وأن المؤمن يعرض هذه الخواطر والأفكار على ميزان الإيمان ويستخدم الأداة التى وهبها الله له وهى العقل فى الحكم على مدى موافقتها لمنهج الإيمان أو عدم موافقتها له، وأن صاحب النفس المطمئنة الذى اعتادها سرعان ما يستبعد هذه الخواطر والأفكار من بدايتها. وأما صاحب

النفس الأمارة فإنه لضعف ميزان الإيمان عنده يكون حكمه على هذه الخواطر والأفكار حكمًا فاسدًا مما يجعلها تتحرك إلى الإرادات والجوارح وتخرج أعمالا ظاهرة، ثم تصبح عادات مستحكمة. وإذا قويت النفس اللوامة عنده فإنه يمكن أن يحاسب نفسه على ما فكرت فيه، فيمنعه من بدايته وهذا أفضل، فإذا وقع الفعل فإنه يندم عليه ولكن الندم وحده لا يكفى بل لابد من مسار إجرائى، للتصحيح والعلاج وهو مسار التوبة. وقد يكون التنبيه من خارج الفرد عن طريق الموعظة من الآخرين ، وهنا فإنه قد يبدأ فى محاسبة نفسه والحكم على ما فكر فيه أو ما أقدم عليه فعلا بأنه إثم أو فسوق أو عصيان، وبناء على هذا الحكم تتتابع خطوات التوبة. ويمكن أن نلخص فكر الإمام ابن القيم حول شخصية الإنسان باعتبارها السلوك المتسق فيما يأتى :

١ – إن الإنسان مخلوق ذو خصوصية فى الخَلْق والتكريم.

٢ – إن الإنسان مخلوق لعبادة الله سبحانه وتعالى وحده وكل أعماله تدور فى هذا المسار.

٣ – إن الإنسان يولد على الفطرة ، والفطرة هى الإسلام الخير.

٤ – إن للأبوين دورًا مهمًّا فى تربية الطفل وتنشئته على القيام بالواجب الذى من أجله خلق وهو عبادة الله، والالتزام بما شرع

٥ – إن النفس الإنسانية بداخلها أحوال تتفاعل بعضها مع بعض هى النفس الأمارة، والنفس المطمئنة والنفس اللوامة.

٦ – فى الوقت الواحد لا يكون للإنسان إلا نفس واحدة هى السائدة فهى إما أمارة أو مطمئنة أو لوامة.

٧ – إن النفس المطمئنة هى التى تحتكم إلى الإيمان وتستفيد فى الحكم من العقل، وهى التى تشبع حاجات الدنيا وتلبى مطالب الآخرة.

٨ - إن النفس الأمارة هى التى تستجيب لنزغات الشيطان الذى يلبس عليها دينها وحياتها فترى الخير قبيحًا وترى القبيح جميلا.

٩ - وإن الظاهر الذى يبدو هو إما قلب صحيح قد التزم صاحبه بالإيمان، أو قلب مريض قد خضع صاحبه للشيطان.

١٠- إن بداية الأعمال الظاهرة خواطر أو أفكار باطنة، والنفس دائما تتعامل مع الخواطر والأفكار وهذه تتعامل مع الإرادات فإذا نجحت فإن الإرادات تأمر الجوارح، فيخرج العمل من الباطن إلى الظاهر.

١١- إن أمثل أساليب الوقاية هو وقف الخواطر المنافية للشرع من بدايتها، وهذا يستلزم من المسلم أن يكون محاسبًا لنفسه عارضًا لخواطره وأفكاره وأعماله على ميزان الإيمان، مستفيدًا مما وهبه الله من عقل فى هذا الحكم.

١٢- وأما أساليب العلاج فهى تسلتزم اتخاذ طبيعة جديدة، والعلاج ليس بالأمر السهل ولكنه ممكن لمن هداه الله إلى مخالفة نفسه والعزم على التغيير والتصحيح.

١٣- يؤكد ابن القيم مبدأ الفروق الفردية، وأهمية توجيه الأبناء بناء على هذه الفروق .

١٤- كما يؤكد كذلك الدور الى يقوم به العقل واضعًا ميزان الإيمان أمامه دائما.

١٥- يرى ابن القيم أن أفضل منهج تنمو فيه شخصية المسلم هو الطاعة لله والخوف والرجاء ومحاسبة النفس وقطع الخواطر والأفكار من بدايتها وإلزام النفس بما يخالف هواها وإيجاد توازن بين مطالب الدنيا ولذتها وبين مطالب الآخرة ولذتها مع كون الآخرة أولى، لأنها موقف الحصاد الذى يعمل المؤمن من أجله.

١٦- وينظر الإمام ابن القيم إلى مرض القلب على أنه راجع إلى البعد عن طريق الله واتباع خطوات الشيطان.

١٧ – كما يرى أن العلاج والتصحيح إنما هو فيما شرع الله وأن القرآن هو الشفاء من أمراض القلوب.

١٨– ويرى أن صحة الإنسان تقع بين ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وتشتمل على العمليات الآتية (المنازل) :

«اليقظة» و «البصيرة» و «الفكرة» و «العزم».

وهذه العمليات يمكن أن نضاهيها بما يقرره علم النفس الحديث من عمليات مثل الانتباه، والإحساس، والإدراك، والتفكير، والدافعية، فاليقظة تشتمل على الاحساس والانتباه، والبصيرة تشتمل على الإدراك والتذكر، والفكرة تشتمل على التفكير، والعزم يشتمل على الدافعية وعلى إتيان السلوك .

يقول رحمه الله : (٥١)

«فلنرجع إلى ذكر منازل : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ التى لا يكون العبد من أهلها حتى ينزل منازلها :

فذكرنا منها «اليقظة» و «البصيرة» و «الفكرة» و «العزم».

وهذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالأساس للبنيان، وعليها مدار السفر إلى الله ولا يتصور السفر إليه بدون نزولها ألبتة. وهى على ترتيب السير الحسى فإن المقيم فى وطنه لا يتأتى منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر. ثم يتبصر فى أمره وخطره، وما فيه من المنفعة له والمصلحة، ثم يفكر فى أهبة السفر، والتزود وإعداد عدته، ثم يعزم عليه، فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة «المحاسبة» وهى «التمييز» بين ما له وما عليه فيستصحب ما له أو يؤدى ما عليه؛ لأنه مسافر سفر من لا يعود». (مدارج السالكين، ج١، ص١٨٨، ١٨٩) .

وهذا النموذج الذى نستقرئه من كتابات الإمام ابن القيم والذى فصله على

---

(٥١) ابن القيم : مدارج السالكين : مرجع سابق، ج١، ص ١٨٨، ١٨٩.

أساس من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، هو نموذج شامل لتفسير سلوك الإنسان سواء في معانيه الدنيوية أو عمله وسعيه للآخرة، وفي رأينا أن التفريق بين الجانبين لا مكان له في حياة المسلم المؤمن الذي يعرف أن غاية خلقه هي عبادة الله سبحانه وتعالى وأن وظيفته الموصلة لهذه الغاية هي الخلافة في الأرض وعمرانها، ومن هنا تبدو قوة هذا التصور للشخصية عن أي نموذج آخر لا يستند إلى المنهج الحق، منهج الإسلام، وصدق الله القائل: ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ (النحل: ٩٧).

رحم الله إمامنا ابن القيم رحمة واسعة جزاء ما ترك من فكر وعلم ونفعنا بعلمه، وعلمنا ما ينفعنا، ونفعنا بما علمنا.

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع

١- العربية :

ابن تيمية. تقى الدين أحمد بن عبد الحليم : العبودية (ط٥) دمشق المكتب الإسلامى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

ابن قيم الجوزية - أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب :
مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (ثلاثة أجزاء)
القاهرة دار الحديث- د.ت

ابن قيم الجوزية - أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب
إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (جزءان)
تحقيق محمد حامد الفقى بيروت ، دار المعارف. د.ت

ابن قيم الجوزية - أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب
الروح لابن القيم : فى الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء.
بيروت : دار الكتب العلمية ج ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م

ابن قيم الجوزية : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب
الفوائد. القاهرة - مكتبة المتنبى د.ت

ابن قيم الجوزية : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب
إعلام الموقعين عن رب العالمين
صيدا - بيروت - المكتبة العصرية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م

ابن قيم الجوزية : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب

تحفة المودود بأحكام المولود.

دمشق – مكتبة دار البيان ١٣٩١ – ١٩٧١م

الفيروز أبادى، مجد الدين محمد بن يعقوب : القاموس المحيط (٣ أجزاء)
بيروت ، دار الفكر ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م

غنيم ، سيد سيكولوجية الشخصية – محدداتها – قياسها – نظرياتها.
القاهرة : دار النهضة العربية ١٩٧٨

نجاتى، محمد عثمان : مفهوم الصحة النفسية فى القرآن الكريم والحديث الشريف نشرة الطب الإسلامى – العدد الثالث – الأبحاث وأعمال المؤتمر العالمى الثالث للطب الإسلامى حـ٥ الكويت اكتوبر ١٩٨٤

نجاتى ، محمد عثمان – علم النفس فى حياتنا اليومية (ط ١١) الكويت – دار القلم ١٩٨٤م

٢- الأجنبية :

Allport, G. (1937) Personality : A Psychological interpretation New York : Henry Holt.

Allport, G. (1961) Pattern and growth in personality. New York : Holt, Rinehart and Winston.

Allport, G. odbart, (1936) Trait names. Apsych-lexical study. Psych. logical Manographs 47, No 211, 1-171

Berne, E. (146) Transactional analsis Psychetherayy Now York : Grove Press

Buss. A. H. finn, S.E (1987) classification of Pensnality traits. Journal of personality and social psychology 52, 432-444.

Maddi, S. (1980) Personality theories : Acomparative analysis (4 th ed) New York : Academic Press.

Montana, c.f (1977) Beneath the mask :An lntroduction to theories of Pesanality. New York : Praeges.

Pansons, F (1959) Shoosing avocqtion : Boston : Houghtonrifflin.

Patterson, C. H. (1986) Theories of Counseling and Psychotherapy (4 th ed) New York : Harper & Row.

البحث الثالث

الأهداف العامة لمساعدة الأفراد على مواجهة مشكلاتهم النفسية كما تعرضها نظريات الإرشاد والعلاج النفسى الغربية دراسة تقويمية فى ضوء المنهج الإسلامى

* ألقى هذا البحث فى ندوة التأصيل الإسلامى للخدمة الاجتماعية. المعهد العالمى للفكر الإسلامى القاهرة ١-٣ صفر ١٤١٢ - ١١- ١٢ اغسطس ١٩٩١.



الأهداف العامة لمساعدة الأفراد على مواجهة مشكلاتهم النفسية
كما تعرضها نظريات الإرشاد والعلاج النفسى الغربى
«دراسة تقويمية فى ضوء المنهج الإسلامى»
مع عرض للبدائل الإسلامية

مقدمة :

حين يعترى الإنسان عائق يقف فى طريق تحقيقه لأحد أهدافه فإننا نقول إن هذا الفرد فى موقف مشكلة Problem .

ولأن الأهداف التى يتبناها الفرد فى حياته متنوعة وغير ثابتة ؛ لذا فإن المشكلات تكون أيضا متنوعة فى نوعيتها متغيرة فى زمن حدوثها واستمراريتها.

وربما تكون المشكلات النفسية – وهى المشكلات التي تتصل أساسا بالسلوك الإنساني، أو التى تتصل بعملية من العمليات النفسية مثل العمليات العقلية المعرفية أو الجوانب الانفعالية أو الجوانب السلوكية – ربما تكون المشكلات النفسية من أهم ما يواجه الإنسان من مشكلات مما يدخله إلى دائرة واسعة من المشكلات المترتبة عليها سواء فى توافقه الشخصى أو الاجتماعى أو المهنى أو الزواجى والأسرى أوالدراسي. وفى نفس الوقت فإن المشكلات النفسية قد تكون نتيجة طبيعية لوجود مشكلات أخرى سواء بدنية أو مالية أو اقتصادية أو إجتماعية أو غيرها.

والمشكلة النفسية تظهر نفسها فى جملة صور منها إحساس الفرد نفسه باختلاف سلوكه وأدائه عن ذى قبل كأن ينقص مقدار نومه أو تزداد كمية مخاوفه ، ومنها تأذى الآخرين وتضررهم من سلوك الفرد واعتباره خروجا عن

المتعارف عليه فى إطار المجتمع الذى يعيش فيه والقيم السائدة فى هذا المجتمع. بل إن مثل هذا النوع من المشكلات قد يوقع الفرد تحت طائلة القانون والأنظمة ويعرضه للمساءلة والعقاب. ومن المشكلات ما يلاحظه الآخرون أيضا على الفرد وإن كان لا يمثل تعديا عليهم ولكنهم ينتبهون لمظاهر هذه المشكلة على الفرد حتى بدون أن ينتبه الفرد نفسه إليها ، ومن الأمثلة الواضحة فى ذلك الاضطراب العقلى الشديد .

إن الفرد الذى يعانى من مشكلة نفسية يكون بحاجة إلى شخص متخصص يساعده بجهده وتخصصه ومن خلال العلاقة المهنية على مواجهة المشكلة. ومن بين التخصصات التى تعمل لمساعدة الأفراد الذين لديهم مشكلات نفسية:

١ – علم النفس الإكلينيكى .

٢ – علم النفس الإرشادى .

٣ – الخدمة الاجتماعية .

٤ – الطب النفسى .

وتجتمع هذه التخصصات فى الوقت الحاضر فى عائلة واحدة تعرف بتخصصات المساعدة Helping Professions وهى التخصصات التى تجمع بينها الخصائص الآتية: (جورج وكريستيانى George & Cristiani 1981)

١ – تفترض أن السلوك له سبب وأنه يمكن تعديله.

٢ – تشترك فى الغاية التى تسعى لتحقيقها، وهى مساعدة المستفيدين على أن يصبحوا أكثر فاعلية وأكثر تكاملا من الناحية النفسية.

٣ – تستخدم العلاقة المهنية كوسيلة أساسية لتقديم العون.

٤ – تؤكد على أهمية الوقاية.

٥ – تقوم على أساس من تدريب متخصص .

وسواء اهتم المتخصص بتحديد أسباب يعزو إليها المشكلة أم لا فإن جميع هؤلاء المتخصصين يؤكدون على ضرورة تحديد هدف أو أهداف عامة ينطلق منها المتخصص فى عمله، بالإضافة إلى أن بعض المدارس النظرية (مثلا مدرسة العلاج السلوكى) ترى ضرورة تحديد أهداف للعملية الإرشادية أو العلاجية تقوم على أساس فردى لكل مسترشد على حدة .

وتهدف هذه الورقة إلى عرض لأهداف العمل فى مساعدة الأفراد على مواجهة مشكلاتهم النفسية من واقع ما تحدده نظريات الإرشاد والعلاج النفسى الغربية وتحليل هذه الأهداف وتقويمها فى ضوء المنهج الإسلامى، مع عرض للبدائل الإسلامية التى يمكن الانطلاق منها كأهداف مناسبة لمساعدة الأفراد فى حل مشكلاتهم سواء فى مجالات الإرشاد أو العلاج النفسى أو الخدمة الاجتماعية أو الطب النفسى. إن النظريات التى تتناول جوانب الإرشاد والعلاج النفسى قد تعددت كثيرا، وتحاول كل نظرية أن تحدد لها شخصية متباينة عن النظرية الأخرى، وبصفة خاصة فيما يتعلق بطبيعة الإنسان، وعوامل نمو الشخصية، وتفسير المرض النفسى، وعملية الإرشاد أوالعلاج، وأهداف الإرشاد أو العلاج ودور المرشد أوالمعالج.

وقد نظر واضعو هذه النظريات إلى النفس البشرية من مناظير شتى فمنهم من رأى الإنسان وعاء لدوافع قائمة على الشر حيث توجه سلوكه غريزتان هما غريزة الجنس وغريزة العدوان (فرويد Freud)، ومنهم من رآه وعاء لدوافع تنطلق من الخير وإلى الخير، فإذا طرأ عليه القلق والاضطراب النفسى فإنما يكون ذلك أمرا عارضا وسرعان ما يعود إلى طبيعته الخيرة إذا وجد السبيل إلى ذلك (المدرسة الإنسانية)، أما الفريق الثالث فقد رأى سلوك الإنسان يعبر عن طبيعته، وهذا السلوك تحكمه عوامل البيئة من مثيرات ومدعمات، وأن السلوك لا يمكن أن نصفه بالسواء أو عدم السواء، وأنه لا ينطلق من طبيعة فطرية سواء من الخير أو

الشر، أى أنهم رأوا الإنسان ذا طبيعة محايدة بلا خير ولا شر وإنما هو نتاج البيئة من حوله (المدرسة السلوكية).

ومن هذه المنطلقات الثلاثة بنى المنظرون نظريات ومفاهيم عن كيف تنمو الشخصية، ولماذا ينشأ المرض النفسى، فمنهم من رأى المرض النفسى على أنه نتيجة صراع داخلى بين جوانب النفس المختلفة أو بين جوانب الشر المنبعثة من طبيعته وجوانب الخير خارجه والتى يفرضها عليه المجتمع وينقلها الأبوان إليه فى طفولته بما يساعد على تكون الضمير ونشوء هذا الصراع الذى يؤدى بالفرد إلى كبت ما لا يناسب مطالب المجتمع أو الضمير فى منطقة بعيدة هى منطقة اللاشعور، ولكن هذه المكبوتات قد تعاوده فى منعطفات أخرى من حياته مهددة لذاته ومنشئة للقلق والعصاب بصفة عامة، ويمثل هذه الوجهة فى تفسير المرض النفسى المدرسة السيكودينامية والتى بدأت بنظرية التحليل النفسى لفرويد.

أما المدرسة السلوكية فهى تنظر إلى السلوك السوى والسلوك المضطرب على أنهما مجرد استجابات تخضع لعلاقات مشروطة تربطها بمثيرات تقع قبلها (بافلوف فى الإشراط الكلاسيكى) أو مدعمات أو أحداث تمثل عقابا تقع بعدها (سيكنر فى الإشراط الإجرائى) أو نتيجة ملاحظة سلوك يقوم به الآخرون (باندورا فى التعليم الاجتماعى).

أما المدرسة الإنسانية فإنها ترى أن السلوك المضطرب ينشأ نتيجة عدم الاتساق بين الخبرة التى يمر بها الفرد وبين ذاته التى بناها من خبرات اعتبرها إيجابية لأنها أكسبته رضاه عن ذاته، وأيضا رضا الآخرين ذوى الأهمية فى حياته (يمثل هذه المدرسة كارل روجرز).

وفى الواقع أنه يوجد من نظريات الإرشاد والعلاج النفسى ما ينتمى إلى مدرسة واحدة فيتبنى الخطوط العامة لها مع إبقائه على هوية خاصة به ومنها ما يمكن أن ينتمى إلى أكثر من مدرسة.

فعلى سبيل المثال نجد أن نظريات العلاج الجشطلتى ترى أن المرض والاضطراب النفسى ينشأ نتيجة انشغال الفرد بأشياء لم تتم فى الماضى أو أشياء لم تقع بعد وما زالت فى علم الغيب، (جشطلتات) فى الوقت الذى لا يركز فيه كثيرا على الحاضر، ومرجع ذلك إلى عدم استجماعه لمكونات ذاته ونقص الوعى والمسئولية. (بيرلز فى العلاج الجشطلتى). ورأت مدرسة أو نظرية أخرى أن الجوانب العقلية تتوسط بين المثيرات والاستجابات ، وأنه ليست المثيرات هى التى تؤدى إلى سلوك ومن بينه سلوك المرض وإنما الأفكار التى يتبناها الفرد هى التى تؤثر على النتائج (ألبرت إيليس فى العلاج العقلانى والانفعالي، وآرون بيك فى العلاج المعرفى). وترى نظرية أخرى أن اندماج الفرد مع أشخاص لهم هوية نجاح يساعد على النمو السوى بينما اندماجه مع أشخاص لهم هوية فشل وافتقاده إلى الحب وإلى الشعور بالقيمة الذاتية يؤدى به إلى هوية الفشل المعبرة عن الاضطراب النفسى (ويليام جلاسر فى العلاج بالواقع). وتتبنى نظرية العلاج بالمعنى التى طورها فرانكل وجهة نظر أن الإنسان يمرض نفسيا ويضطرب سلوكه لأنه يفتقد إلى معنى لحياته أو ما أطلق عليه الفراغ الوجودى. ومازالت نظرية أخرى ترى أن اضطراب السلوك إنما يتمثل فى اضطراب التنشئة ووجود أنماط من التحويلات غير الملائمة فى علاقات الفرد بغيره نتيجة عبوره مرحلة الطفولة النفسية بسرعة أو سرعة الدخول إلى الرشد النفسى أو العكس (إيرك بيرن فى العلاج بتحليل التعاملات)، وتركز نظريات العلاج الأسرى على أن الاضطراب النفسى يرجع إلى خلل فى بناء الأسرة وعلاقة الأجيال المتتابعة بعضها ببعض وعدم كفاءة الأسرة كمنظومة دينامية تربطها علاقات (مثل بووين فى نظرية المنظومة الأسرية). (١)

إن هذا التعدد فى تناول موضوع الاضطراب والمرض النفسى وفى تفسيره جعل المدارس بل والنظريات المختلفة للإرشاد والعلاج النفسى تحدد أهدافا

(١) انظر فى هذه النظريات للمؤلف : نظريات الإرشاد والعلاج النفسى - القاهرة : دار غريب (١٤١٤ هـ ١٩٩٤م).

خاصة بها، وإن كان يجمعها جميعا هدف أساسى وهو مساعدة الفرد على الوصول إلى الصحة النفسية ، لكنها كما ذكرت قد حددتْ لها أهدافا خاصة تميز كل نظرية عن غيرها، وتنسق مع باقى الأفكار المتصلة بالنظرية– وعلى سبيل المثال فإن نظرية التحليل النفسى جعلت محور المرض النفسى تدافع المواد المكبوتة فى اللاشعور إلى الشعور ومقاومتها من جانب الفرد كما سبق القول، ومن هنا قامت فكرة العلاج لدى هذه النظرية، أى عملية التحليل النفسى على أساس مساعدة المريض على استحضار المادة المخزونة فى اللاشعور عن طريق التداعى الطليق وتذكر الأحداث الماضية والتعامل مع الأحلام وتفسير هذه المكبوتات له .

أهداف الدراسة :

من هذا العرض السريع يتبين لنا معه تعدد المنطلقات التى تنطلق منها نظريات الإرشاد والعلاج النفسى، الأمر الذى جعل هذه النظريات تتباين تباينا كبيرا فى مكوناتها وأساليبها ، بل والدور الذى عهدت به إلى المرشد أو المعالج النفسى، وجعلها تبدو كما يذكر بيرلوف Perlof كغابة متلاطمة الأشجار. ولأن الذى يحرك المرشد أو المعالج فى سلوكياته بل والأساليب التى يستخدمها هو الهدف الذى يسعى إليه أو الأهداف، فإن المرشد أو المعالج المسلم يهمه أن يعرف ما إذا كانت تلك الأهداف متسقة مع المنهج الإسلامى أم لا. وهذا هو ما تهدف هذه الدراسة إلى إنجازه فى محاولة للوصول إلى الأهداف الإرشادية والعلاجية المناسبة والأصول الإسلامية التى تستند إليها ومدى قرب الأهداف التى تحددها نظريات الإرشاد والعلاج النفسى الغربية أو بعدها عن الطريق الذى يرتضيه المرشد أو المعالج المسلم لعمله، طريق المنهج الإسلامى .

وسوف أستعرض فى هذه العُجالة مجموعة من هذه الأهداف مُرجعا لها إلى ما تنتمى إليه من نظرية أو نظريات، وعارضا لها على محك المنهج الإسلامى

حتى يتبين مدى أصالتها وملاءمتها للتطبيق من جانب المرشد المسلم أو ما يقابلها فى المصادر الإسلامية.

١- حل الصراعات الداخلية :

ترتبط هذه الفكرة أو هذا الهدف بالمدرسة السيكودينامية . وقد بدأت هذه المدرسة بنظرية التحليل النفسى التى وضعها سيجموند فرويد من خلال عمله مع المرضى، ويرى المعالج بالتحليل النفسى أن هدفه الأساسى هو مساعدة المريض على استحضار المخزونات أو المكبوتات الموجودة فى حيز اللاشعور إلى حيز الشعور والتعامل معها. ويعتمد المعالج فى ذلك على مجموعة من الأساليب مثل التداعى الحر (الطليق)، وتشجيع التحويل من المريض إلى المعالج، والتعامل مع مواد لا شعورية ، وبصفة خاصة الأحلام، وكذلك التفسير الذى يصاحب هذه الإجراءات والذى يقوم به المعالج.وعملية التحليل النفسى، وهى عملية طويلة (فى زمنها) ومؤلمة(حيث يتعامل فيها المريض مع أحداث قديمة وقد تكون مؤلمة)، تقوم أساسا على مفهوم ، أو مفاهيم خاطئة ، ومن منطلق مريض مؤداه أن سلوك الإنسان محكوم أساسا بغريزة الجنس وغريزة العدوان. وهاتان الغريزتان، ومحورهما الشر ووجود رغبات محرمة، تعارضهما من جهة أخرى ضوابط المجتمع والأخلاق ، ولذلك فإن الصراع دائم بين مكونات العقل كما يراها فرويد والتى أطلق عليها مسميات «الهو» للتعبير عن مصدر الشهوات، و«الأنا الأعلى» الذى يعبر عن القيم والضمير و«الأنا» كجانب تنظيمى بينهما، وكذلك الصراع بين اللاشعور بما يحتويه من مواد مكبوتة رفضها وعارضها الأنا الأعلى فدفعت إلى هذا اللاشعور(وهو تصور فرضى يكاد يقتصر على المدرسة السيكودينامية وحدها) وبين الشعور أو الوعى ومحاولة هذه المكبوتات الخروج من مخزنها الذى لا يملك صاحبه (الفرد نفسه) مفاتيحه . والذى يحاوله المعالج بالتحليل النفسى خلال رحلة العلاج الطويلة – التى قد تستغرق سنوات ،

ولجلسات تتكرر كل أسبوع بواقع مرتين– هو مساعدة مريضه على أن يستحضر ما فى اللاشعور إلى حيز الشعور ويتعرف عليه ويتعامل معه من خلال تفسير المعالج، وهذا الذى يستحضره يرتبط جميعه بالغريزتين اللتين قصر التحليل النفسى أمر توجيه سلوك الإنسان عليهما : الجنس والعدوان.

وإذا تناولنا هذا الهدف من وجهة نظر إسلامية فإن المنطلق الذى أقامه عليه التحليل النفسى منطلق لا يقره الإسلام ، ولا يمكن أن نسعى إليه فى إرشادنا أو علاجنا على النحو الذى أقيم عليه . ومما هو جدير بالذكر أن نظرية التحليل النفسى قد لاقت هجوما وانتقادات شديدة وفى أثناء حياة فرويد نفسه، بل وعلى يد أعز أصدقائه آدلر Adler ثم كثير من بعده، فيقول أحدهم: ماذا ننتظر من علم نفس نشأ من العمل مع المرضى سوى أن يكون هو نفسه علم نفس مريضا– وكما يقول آخر : إن أصحاب نظرية التحليل النفسى وضعوا على أعينهم نظارات سوداء فرأوا الدنيا كلها سوداء .

على أن فكرة الصراع نفسها وداخل النفس البشرية فكرة نجد لها جذورا فى أصولنا الإسلامية. إنها فكرة الصراع بين الخير والشر فى نفس الإنسان، بل وفكرة التفاعل الذى ينشأ نتيجة لذلك بين جوانب ثلاثة للنفس اشتقها علماء المسلمين أمثال الغزالى وابن تيمية وابن القيم، من القرآن الكريم وهى النفس الأمارة، والنفس المطمئنة، والنفس اللوامة.

وقد حاول بعض الباحثين المسلمين عقد تناظر بين هذه الجوانب الثلاثة وبين تقسيم فرويد ولكنهم أخطأوا من جملة أوجه من أهمها :–

١ – أن النفس الأمارة كما يناقشها الأئمة على ضوء تحديد القرآن لها بأنها أمارة بالسوء لا تقتصر على جانب واحد وهو جانب الجنس كما حدده فرويد لذلك الجانب الذى سماه «الهو» وإنما تتعدى ذلك إلى عشرات بل مئات من الجوانب ويأتى فى أولها الانحراف عن عقيدة التوحيد وأكبرها الشرك بالله

وتشتمل على الظلم والتكبر والفساد فى الأرض والزنا وتعاطى الخمور والمخدرات والقتل والكذب والغش والسرقة وكل ما يدخله الإسلام فى الكبائر والإثم والفسوق والعصيان.

٢ - إن حالات النفس الثلاثة التى أشار اليها القرآن، إنما هى حالات واضحة المعالم والفصول حيث يمكن أن يدرك المرء نفسه فى أية حال يكون، ذلك أن معايير الإسلام واضحة، فإذا أتى المسلم بعمل من أعمال الخير التى يؤمر بها فإنه بغير شك يحس بالرضا والاطمئنان ، وإذا جاء بعمل من أعمال الإثم والفسوق والعصيان فلا شك أنه سيدرك أنه قد تجاوز حده وعصى ربه. أما الحالات التى أشار إليها فرويد فهى حالات فرضية ليس هناك معيار واحد يدلنا على ما يكون عليه الفرد منها .

وقد وضع الإسلام لأتباعه معايير الهدى والرشاد تنزل بها القرآن وفصلتها سنة المصطفى ﷺ فعلا وقولا وتقريرا، وتصبح عملية حل الصراع الذى قد لا يستغرق مقدار لحظة من الزمن بين الخير والشر، عملية ذاتية لا تحتاج إلى معالج أو مرشد إلا أن يكون الفرد نفسه فى حالة من الجهل . وحتى إذا وقع فيما تحضه عليه النفس الأمارة (أى الجانب أو الحالة للنفس التى تعرف بالنفس الأمارة) فإن التخلص من آثارها لا يكون فى القلق، ولا فى الحيل الدفاعية، ولا فى استحضار شىء من اللاشعور (إذا افترضنا وجود مثل هذا الجانب أصلا) وإنما هو فى التذكر ، وفى الندم، وفى الاستغفار وفى التوبة ، إن المسلم المؤمن يدرك أن له عدوا يتداخل مع نفسه، وذلك هو الشيطان، وأن عليه واجبا أن يحارب هذا الشيطان بطاعة ربه ومجاهدة نفسه والسبق إلى الخيرات وعمل الصالحات.

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾
(الأعراف ٢٠١)

﴿قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى﴾ (الأعلى ١٤-١٥)

﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾ (الشمس ٧ – ١٠)

﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى﴾ (النازعات ٣٧ – ٤٠)

و ما يحتاجه المعالج والمرشد المسلم فى هذا الجانب هو أن يلجأ إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله وإلى النماذج الصالحة يذكر بها المسترشد ويساعده على أن يقتدى جانب الإيمان وأن يبتعد عن مداخل الشيطان وأن يستعين بالله عليه ويستعيذ به منه.

إن حل الصراع فى هذه الحالة يقوم على أساس من الوعى والإدراك الكاملين. بل وتشخيص أسباب المشكلة فى صورة واقعية محددة المعالم وليست مجرد أفكار لا تلامس الحياة. إنه يقوم على أساس استخدام المنهج الإيمانى وتحكيم العقل فى تحديد أسباب الانحراف، وبذلك فإن حل الصراع فى الإسلام يكون فى المستوى الشعورى، المستوى الواعى والمسئول حيث حياة المسلم كلها، ينبغى أن تقوم على الوعى بما حوله وعلى مسئوليته عما يعمل .

﴿وسوف تسألون﴾ (الزخرف٤٤)

﴿وقفوهم إنهم مسئولون﴾ (الصافات٢٤)

ويمكن أن نقول إن الهدف الإسلامى فى هذه الحالة يصبح : تزكية النفس.

٢- التعامل مع الأفكار غير المنطقية:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الاضطراب أو المرض النفسى إنما ينشأ نتيجة اضطراب فى التفكير، كيف ينظر المرء إلى الحوادث، وما هو تفسيره لها، وما هى خبرته المعرفية من قبل.

وإذا أخذنا مثالا من هذه الوجهة تلك النظرية التى عرضها ألبرت إليس A.Ellis باسم العلاج العقلانى الانفعالى ، نجد أن إليس ينظر إلى ما يعانيه

الفرد من انفعالات كدرة مثل القلق والحزن على أنها لا تنتج عما وقع له من أحداث قريبة تبدو فى الظاهر وكأنها أسباب لهذه الانفعالات، وإنما هو نتيجة لأفكار خاطئة موجودة لدى هذا الشخص حول الأحداث التى وقعت، كما يرى أن الهدف الأساسى للعلاج يكمن فى التعرف على الجانب غير العقلانى (غير المنطقى) فى التفكير ثم مهاجمة هذا الجانب لتوضيح عدم عقلانيته، يلى ذلك إحلال الأفكار الصحيحة أو العقلانية مكانه ثم يكون بعد ذلك ما يكون من أساليب لتعديل السلوك.

لقد اختلف إيليس عن المدرسة السلوكية فى تحديده لمسببات السلوك غير السوى فلم يقصرها على المثيرات الموجودة فى البيئة وإنما ربطها أساسا بالأفكار الخاطئة التى يتبناها الفرد والتى يكون قد تعلمها من الثقافة التى يعيش فيها.

لو نظرنا لهذا الهدف من زاوية إسلامية، نجد أنه يمثل بصفة عامة منهجا إسلاميا فى الإرشاد والعلاج، والمتتبع لتطور الدعوة الإسلامية يجد أن الإسلام بدأ بإعلام الناس أن هناك خللا يشوب عقيدتهم- ويتمثل هذا الخلل فى الشرك بالله، ثم أرشدهم إلى العقيدة الصحيحة.

﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد﴾ (سورة الإخلاص)

﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون﴾ (الكافرون١-٢)

﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله ..﴾ (محمد ١٩)

ثم تلا ذلك تصحيح باقى العقيدة، وتصحيح مسالك الناس من خلال التدرج فى تحريم بعض العادات والسلوكيات السيئة والضارة ، وبتعليمهم سلوكيات إيمانية طيبة عن طريق الترغيب والقدوة الحسنة ممثلة فى رسول الله ﷺ وفى سنة الخلفاء الراشدين بعده ومن خلال التشريع القرآنى والنبوى (بالأمر والنهى وتوضيح الحلال والحرام) والسنة النبوية بما تشمله من أقوال وأفعال وتقريرات للرسول ﷺ ...

ولا شك أنه يتبين للباحث المسلم أن أسلوب تخطىء الأفكار الفاسدة أو المعتقدات الضالة يعتبر نموذجا أو خطا أساسيا من خطوط المنهج الإسلامى سواء اتصل هذا بالجانب الخاص بالعقيدة أم بكافة الجوانب المتعلقة بحياة الإنسان، ونحن نقرأ فى القرآن الكريم فى شأن الشرك بالله وإنكار البعث :

﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، آلله خير أما يشركون * أمَّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها، أإله مع الله بل هم قوم يعدلون * أمَّن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا، أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ريكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون * أمَّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرى بين يدى رحمته أإله مع الله، تعالى الله عما يشركون * أمَّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض، أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون * بل ادَّارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها، بل هم منها عمون. ﴾ (سورة النمل ٥٩-٦٦).

﴿أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ (يس٧٧-٧٩)

كما استخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب فى تصحيح الأفكار الخاطئة والاتجاهات السلبية فتقرأ عن الاتجاه نحو الإناث :

﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون﴾ (النحل ٥٨)

﴿وإذا الموءودة سئلت * بأى ذنب قتلت؟﴾ (التكوير٨-٩)

﴿لله ملك السموات والأرض، يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور* أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير﴾ (الشورى ٤٩-٥٠)

٣ - زيادة الوعى :

يقصد بالوعى Awarenss * أن يكون الإنسان ملامسا للواقع وللحقائق، وتعتبر زيادة الوعى هدفا أساسيا من أهداف نظرية العلاج الجشطلتى - بحيث يمكن للفرد أن يلامس خبراته الشخصية والواقع الذى يعيش فيه وأن يعايش هذه الخبرات وهذا الواقع.

إن المرض النفسى فى رأى أصحاب العلاج الجشطلتى ينشأ عن انشغالات المرء بأحداث لم تتم فى الماضى وأحداث لم تقع فى المستقبل ، وعدم معايشة الحاضر وعدم تقدير المسئولية وعدم الملامسة المباشرة لما يمر به من خبرات، وتعتمد نظرية العلاج الجشطلتى فى تحقيق هذا الهدف على جملة أساليب تهدف إلى استحضار قدرات الفرد ليشعر بما حوله ويلامسه، وبالتالى يزداد إدراكه لواقعه وما يجرى حوله وتقل انشغالاته التى لا فائدة من ورائها حول ماض ضاع فيه شيء، ومستقبل ينشغل به انشغالا كبيرا.

ومن وجهة النظر الإسلامية، فإن الإسلام ينبه أتباعه دائما والبشرية عموما إلى زيادة الوعى بما حولهم وباستخدام حواسهم استخداما واعيا ودقيقا وصولا بهم إلى الحقائق الإيمانية.

وفى هذا يقول القرآن الكريم :

﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾ (الذاريات ٢١)

﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض..﴾ (يونس ١٠١)

---

* يعرف جرفين (١٩٨٢) Griffin الوعى بأنه يشتمل على خبرة التفكير حول شيء.. بما فى ذلك التعرف على العلاقات القائمة بين الأشياء والأحداث التى نفكر بشأنها.

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت * فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر﴾ (الغاشية١٧-٢١)

﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ (النمل ٦٩)

إن هذه الآيات التى تتكرر كثيرا فى كتاب الله تؤدى بالمسلم إلى التنبه وملامسة الواقع من خلال تعامله مع الكون من حوله .

إن أساليب زيادة الوعى التى استخدمها الإسلام كثيرة . ومن بين هذه الأساليب إعادة عرض الأحداث ليزداد الوعى بها بعد تحليلها . نأخذ أمثلة لذلك مما أورده القرآن الكريم والسنة النبوية :

﴿وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم * إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون * ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾. (آل عمران ١٢١ - ١٢٣)

﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين * إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى آخراكم فأثابكم غما بغم لكى لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون * ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾. (آل عمران ١٥٢-١٥٤)

وهذه الآيات تشتمل بجانب التذكير وزيادة الوعى على عديد من أساليب العلاج والإرشاد ومن بينها أسلوب الأفكار الخاطئة وتوضيح الحقائق.(١)

ونطالع فى السنة النبوية المطهرة نموذجاً فريداً فى الإرشاد وزيادة الوعى ومخاطبة العقل.

روى أبو أمامة: «أن غلاما شابا أتى النبى ﷺ فقال له: يا نبى الله: تأذن لى فى الزنا؟ فصاح الناس به فقال عليه الصلاة والسلام : «أدن» فدنا حتى جلس بين يديه. فقال ﷺ : «أتحبه لأمك؟» فقال : لا جعلنى الله فداك. قال عليه الصلاة والسلام «كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، أتحبه لابنتك ؟» قال : لا ، جعلنى الله فداك ، قال : «كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم. أتحبه لأختك؟» قال : لا جعلنى الله فداك ، فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال : «اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه» ، فلم يكن شيء أبغض إليه منه (يعنى الزنا). «رواه أحمد»

٤- تقليل انشغالات الفرد والتركيز على الواقع والحاضر:

مثل بيرلز فى نظريته فى العلاج الجشطلتى لانشغالات الفرد بأحداث سبقت فى حياته بمثال إنسان عطش، حصل على قدر من الماء لا يروى ظمأه فلا يزال منشغلا بعطشه حتى بعد أن حصل على الماء، ويرى بيرلز أن مبعث القلق عند الناس هو شدة انشغالهم بالماضى أو بالمستقبل وعدم التركيز على الحاضر وما يقع فيه . ويرى أن العلاج يجب أن يستهدف زيادة وعى الفرد بما يقع حوله فى المكان والزمان متخذا من مبدأ هنا والآن Here and now مبدأ أساسيا فى العلاج حيث يعمل من خلاله على زيادة انتباه الفرد إلى ما يقع حوله وعدم تشتيت انتباهه بالبحث فى الماضى أو فى المستقبل.

ولو بحثنا فى هذا الهدف العلاجى نجد أنه يمكننا أن نراه مناسبا من الناحية الإسلامية فى التطبيق الإسلامى، ولقد لفت القرآن الكريم نظر المؤمنين إلى أن الانشغال بالماضى أمر غير مرغوب.

(١) من الأساليب التى ظهرت حديثا فى الإرشاد أسلوب استرجاع الأحداث وكذلك اسلوب تأطير المشكلات Reframing

﴿لكى لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون﴾ (آل عمران ١٥٣)

﴿لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾ (الحديد ٢٣)

وكذلك الانشغال بما يقع فى المستقبل لا يستقيم مع حياة المؤمن الذى يسلم وجهه وأموره كلها لله.

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (التوبة ٥١)

﴿وفى السماء رزقكم وما توعدون﴾ (الذاريات٢٢)

﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ (الأنبياء -٣٥)

ويجمع ذلك دعاء الرسول صلوات الله وسلامه عليه الذى ورد فى حديث رواه أنس بن مالك رضى الله عنه :

«اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» . (اخرجه البخارى)

ويرى الشراح أن الهم يرتبط بالمستقبل، وأن الحزن ينصرف إلى ما مضى، ويقول القرآن على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام : ﴿قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ (الأعراف -١٨٨)

وفى جانب من الحديث الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : «اعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك». وفى رواية للترمذى: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك بشىء إلا قد كتبه الله عليك»

والانصراف عن الانشغال بالماضى أو المستقبل يعنى الانصراف عن التفكير المتشائم المثقل بالأحزان والهموم والمخاوف والقلق، أما الماضى فهو ما

عمل الإنسان ولا يفيد فيه إلا الاستغفار والتوبة، وأما الحاضر فهو ما يستطيع المرء أن يحقق فيه ما شرعه الله فى دينه لهداية بنى الإنسان، وأما المستقبل فهو ما نجهز له فى حاضرنا بعمل الصالحات ولكنه لا يشغلنا بما قد يقع فيه من أحداث فعلم ذلك عند الله.

﴿قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله﴾ (النمل ٦٥)

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ (الأنعام ٥٩)

﴿وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير﴾ (لقمان -٣٤)

لا شك أن كثيرا من الأمراض النفسية التى يتعامل معها المعالج النفسى سواء كان القلق أو توهم المرض أو الخوف أو الاكتئاب أو الهيستريا، بل وكذلك الأمراض البدنية التى ترجع إلى أسباب نفسية (تعرف بالأمراض السيكوسوماتية) والانحرافات الأخلاقية بل وربما الأمراض الذهانية (العقلية) التى لا ترجع لأسباب عضوية إنما ترجع إلى انشغالات كثيرة بأمور لا يملك الإنسان حيالها شيئا من ناحية منعها أو عدم منعها، وإنما يملك أسباب حصانة نفسه ووقايتها من الرضوخ المؤلم لهذه الانشغالات، الانشغال حول الغد بما فيه من رزق وبما فيه من صحة وبما فيه من عمر وبما فيه من أحداث، ولعل هذه الانشغالات الكثيرة التى أصبحت سمة الكثيرين فى عصرنا هى ما يمثل الضغوط النفسية التى جعلت البعض منهم يهربون إلى عالم اللاواقع من خلال تعاطيهم للمخدرات بدلا من انطلاقهم لعالم الواقع متحصنين بالإيمان ومتسلحين به، مما حدا ببعض الباحثين فى مجال علم النفس أن يطلقوا على هذا العصر- عصر القلق- وربما يكون كل عصر مر على الإنسان هكذا لا ينجو منه إلا من تزود بخير الزاد، التقوى ، وصدق الله العظيم

﴿والعصر* إن الإنسان لفى خسر* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ (سورة العصر)

٥- الوصول إلى هوية النجاح :

يرتبط هذا الهدف الإرشادى بنظرية العلاج بالواقع التى طورها ويليام جلاسر Glass-er حيث يرى أن الطفل يولد ولديه حاجة لتكوين هوية، وأنه يرتبط بهذه الحاجة حاجتان فرعيتان هما الحاجة للحب والحاجة للشعور بالأهمية، وأن الشخص قد يطور هوية نجاح أو هوية فشل، وذلك من خلال اندماجه مع الآخرين وإشباع الحب والأهمية.

وتعتبر هوية الفشل مرادفا للاضطراب والمرض النفسى، وهى راجعة إلى ابتعاد الفرد عن الواقعReality وعن المسئولية Responsibility ، وعن الاستقامةRight ، ويقرر جلاسر أن هدف العلاج بالواقع هو الوصول بالمسترشد إلى تحقيق هوية نجاح من خلال إدماجه مع شخص له مثل هذه الهوية (المرشدمثلا) فى علاقة تتسم بالحب والتقدير ، وسعيا به نحو تنمية المسئولية وملامسة الواقع واتباع الطريق الصحيح ، ومن خلال خطة واقعية يدرك فيها الفرد مسئوليته عن أعماله وعن إصلاح حياته.

إن هوية النجاح وهوية الفشل إذا نظرنا إليهما من وجهة نظر الإسلام لوجدنا أن معاييرهما واضحة لكل مسلم ، وهى كذلك للمرشدين والمعالجين ، ويمكن الاستفادة منها على أنها ركائز للعلاج والإرشاد، فهوية النجاح هى الهوية التى حددها الخالق سبحانه وتعالى فى وصفه للمؤمنين وهى التى امتدحها الرسول ﷺ وأثنى على ما قامت به.

والإسلام يندب أبناءه لمعايشة الواقع والتعامل معه ومواجهته وعدم الهروب منه ، ومجاهدة النفس بالصبر والعمل، وهو كذلك يطالبهم بتحمل المسئولية بدءا بمسئوليتهم أمام الله عز وجل فى تحقيق واجب العبودية له وحده وامتدادا بها إلى المسئولية بكافة أنواعها. وهو يحدد لهم معالم الحق والطريق المستقيم، وهو دعاء المؤمنين فى كل صلاة، ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾. كما أن الإسلام يرى أن الانحراف والنكوب عن الصراط إنما هو سبب كل انحراف.

ويحدد لنا القرآن هوية النجاح فى أكثر من موضع فى مجموعة كبيرة من الصفات يثنى عليها الحق سبحانه وتعالى، كما يحدد هوية الفشل فى مواضع كثيرة أيضا فى مجموعة كبيرة من الصفات يصف أصحابها بالكفر والنفاق والإثم والفسوق والعصيان.

ومن بين الصفات التى يمتدحها القرآن والسنة النبوية المطهرة ما يلى:

الإيمان – التقوى – البر – الإحسان – الإيثار – التعاون – التطهر – التعفف – الصبر – الوفاء – التراحم – صلة الرحم – بر الوالدين – الإحسان إلى الجار– العدل – حفظ الأمانة وغيرها .

ومن الصفات التى ذمها وتوعد أصحابها بالعذاب :

الكفر والشرك ، والنفاق والرياء ، والكذب والإفساد فى الأرض – الزنا، السرقة، البغى، الظلم ، العدوان ، قطع الأرحام ، قتل النفس التى حرم الله ، الغش، الشح ، أكل مال اليتيم – شهادة الزور والتولى من الزحف – رمى المحصنات الغافلات – إشاعة الفاحشة فى مجتمع المسلمين – الغيبة والنميمة والتجسس وغيرها .

ومن الآيات فى هذا الصدد :

أولاً : من الصفات الحميدة :

﴿قد أفلح المؤمنون* الذين هم فى صلاتهم خاشعون* والذين هم عن اللهو معرضون* والذين هم للزكاة فاعلون* والذين هم لفروجهم حافظون* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون* والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون* والذين هم على صلواتهم يحافظون* أولئك هم الوارثون* الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.﴾ (المؤمنون ١–١١)

ويلاحظ أن هذه الآيات قد بدأت بإضفاء صفة الفلاح وانتهت بمكافأة عظيمة هى الخلود فى الفردوس.

ثانيا – من الصفات المذمومة:

﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ (محمد ٢٢)

﴿إن الانسان خلق هلوعاً* إذا مسه الشر جزوعاً* وإذا مسه الخير منوعاً* إلا المصلين* الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ (المعارج ١٩-٢٣)

إن الحب الحقيقى فى حياة الإنسان هو حبه لله ورضا الله عنه. والتقدير الحقيقى يستشعره من خلال حسن إسلامه. ويمكن للمرشد الناجح أن يكون قدوة للمسترشد بأن يتخلق بخلق الإسلام في كل تصرفاته، وبذلك يساعد المسترشد على تكوين هوية نجاح من خلال تشجيعه على التخلق بهذا الخلق العظيم.

٦- تنمية الشعور بالمسئولية *:

من بين الأهداف التى يسعى إليها المعالجون فى تناولهم للأمراض النفسية بالعلاج، العمل على زيادة شعور المسترشد أو المريض بالمسئولية وتحمل هذه المسئولية . وتعنى المسئولية أن يدرك الفرد ما يعمله أو يفكر فيه والنتائج المترتبة على ذلك، وأن يكون قادرا على تحمل ما يترتب على تصرفاته من نتائج.

وقد برز هدف تنمية المسئولية لدى المسترشد أو المريض في نظريات العلاج الجشطلتى (بيرلز) والعلاج بالواقع (جلاسر) ، وكذلك فى العلاج المتمركز حول الشخص (روجرز).

ولو نظرنا لهذا الهدف من وجهة نظر إسلامية لوجدنا أنه هدف يتسق مع المنهج الإسلامى، وإن كان يختلف فى أصل اشتقاقه وفى وسائل تحقيقه.

والإسلام هو الدين الوحيد بين الأديان السماوية الذى يقرر بوضوح أن كل نفس تحاسب عما اكتسبت، وأنه مادام الإنسان قد بلغ العلم بالدين وأوتى جوانب الرشد والقدرة على التمييز فإنه يحاسب عن عمله .

* يقسم هارت (١٩٦٨) Hartm المسئولية إلى مسئولية دور، ومسئولية سببية، ومسئولية طاقة، ومسئولية قانونية .

﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾

(البقرة ١٣٤)

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ (المدثر٣٨)

﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا﴾ (آل عمران ٣٠)

ولهذا فقد أوكل الله سبحانه وتعالى إلى الإنسان أمر ترشيد نفسه وتزكيتها بموافقة ما أنزله الله من نور وهداية .

﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ (القيامة ١٤)

والمسئولية كما يحددها الإسلام تشتمل كافة أنشطة الحياة وأنظمة المجتمع- وعلى سبيل المثال فهناك مسئولية ترتبط بالدور الذى يفترض أن يضطلع به الفرد ، ومنها مسئولية الوالد عن أولاده وأهل بيته إنفاقا وتوجيها ووقاية.

ومنها مسئولية الأسباب أو إلحاق الضرر بالغير والتى تنتج عن فعل مباشر أو فعل غير مباشر ، وكذلك المسئولية المرتبطة بالطاقة كمسئولية القيادة والولاية وتكليفات العبادات على اختلافها . والمسئولية الجنائية لما يقع منه.

إن كثيرا من الأمراض التى تعرض للنفس البشرية إنما هى اختلالات فى توازن النفس تهرب بها من الواقع ومن مسئولية مواجهة هذا الواقع، وقد يكون الهروب فى صورة قلق نفسى، وقد يكون فى صورة أمراض بدنية ذات منشأ نفسى (الأمراض النفسية البدنية) أو يكون الهروب فى الانحراف والعدوان وتعاطى المخدرات.. وقد يصل الهروب من الواقع ومن المسئولية بالشخص إلى المرض العقلى. إن سلوك الهروب والابتعاد سواء كان باستخدام بعض أساليب الدفاعية مثل التبرير أو الإنكار أو العدوان أم فى صورة سلوكيات مرذولة مثل

الكذب وقول الزور ، أم فى صورة أعراض مرضية، كلها جوانب يحاول بها الفرد أن يتخلص من المسئولية ومن تهديدها له .

والواقع أن الإسلام بمنهجه العظيم يكفل بناء جانب المسئولية لدى الفرد منذ نعومة أظافره . وفى تحديد أركان العقيدة ما يجعل علاقة الفرد قائمة أساسا بينه وبين خالقه سبحانه وتعالى ، ويجعله مسئولا بالالتزام بما أمره به والبعد عما نهى عنه. وفى جوانب الشريعة ما يكفل للفرد أن يتحمل مسئوليته عن عباداته صلاة وصياما وزكاة وحجًا إلى بيت الله الحرام، والقيام بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه وحرمه، والقيام بواجبات وتكليفات إزاء نفسه وإزاء الآخرين بما يفرضه عليه دوره.وهذا كله لو استدمجناه فى أنفسنا منذ الصغر كان كفيلا بتحقيق جانب تحمل المسئولية وتجنيب الإنسان الوقوع فى المهلكات والدخول إلى دائرة الانحراف والمرض النفسى.

إن الباحث فيما يطلق عليه الأطباء النفسيون اختلالات الخُلُق، ويضعونه بين أخطر الاضطرابات النفسية حيث لا يقتصر ضررها على الفرد وإنما يمتد إلى المجتمع، والتى ضمنوها الانحرافات الجنسية، والعدوان والجريمة والغش وتعاطى الخمور والمخدرات وغيرها، إنما يتبين له حقيقة واضحة للعيان ، هى أن الذين ينجرفون إلى هذه الاضطرابات إنما هم أناس تخلوا عن المسئولية بل إنهم لم يتعلموا المسئولية أصلا، ومن المتوقع أن يكون بناؤهم الدينى واهيا للغاية إن لم يكن منعدما.

وربما يكون أول ما يجب على المرشد أو المعالج أن يقوم به فى العمل مع هذه الفئات هو مساعدتهم على تنمية الشعور بالمسئولية، من خلال تقوية جوانب العقيدة وتدريبهم على تحمل التكليفات الدينية ، وكيفية محاسبة النفس على ضوء ما شرع الله ومراقبة الله فى السر والعلن.

إن الباحث المدقق ليلمس حقيقة أن الإسلام كله بناء للمسئولية.

أليست العقيدة الصحيحة، عقيدة التوحيد، هى الالتزام بالمسئولية، مسئولية الوفاء بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم أمام ربهم عزوجل.

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ (الاعراف ١٧٢-١٧٣)

أليست العبادات وتنظيماتها المكانية والزمانية والنوعية والكمية وحدودها تبنى أساس المسئولية كل يوم بل وفى اليوم عدة مرات كما فى الصلاة؟

أليس فى التزام الرجل نحو زوجته وأولاده والتزام المرأة نحو زوجها وأولادها والتزام الأبناء نحو الآباء والتزام أولى القربى بعضهم نحو بعض ثم التزام الأغنياء نحو الفقراء والأقوياء نحو الضعفاء ، كله تنظيم للمسئولية ؟ بل إن المسئولية فى الإسلام تتضمن كل الجوانب التى تترقى معها إجراءات الإرشاد من مستوى إرشادى إنمائى يربى المسلم على كل ما ينفعه، ومستوى وقائى يجنبه كل ما يضره، ومستوى علاجى يتعامل مع المشكلات بين الفرد ونفسه وبينه وبين الآخرين، وقبلها ما يقع من الفرد حين يبتعد عن المسئولية نحو ما كلفه به ربه سبحانه وتعالى .

بل إن الإسلام ينفرد بخاصية هامة وهى فتح باب التوبة التى يبدأ فيها المرء بالتعرف على ما اقترفه، وكذلك بإمكانية الفرد أن يعاقب نفسه حين يتخلى عن مسئوليته فى صورة كفارات يكون هو الرقيب على نفسه فى أدائها أمام الله سبحانه وتعالى سواء كانت فى صورة تحرير رقاب أو إطعام لمساكين أو فى صورة صيام أو غيرها. أليست هذه قمة التربية على المسئولية؟.

ونطالع فى السنة النبوية ما ينبهنا إلى أهمية المسئولية.

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال :

«مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا.» رواه البخارى .

كما يوضح الرسول ﷺ فى حديث آخر أن المسئولية تلزم كل إنسان بحسب موقعه.

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، فكلكم راع ومسئول عن رعيته» (متفق عليه)

وعن المسئولية الشخصية نقرأ فى السنة المطهرة :

عن أبى برزة فضل بن عبد الأسلمى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه» (رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح)

وعن المسئولية عن وقاية الأهل يوجه القرآن الكريم المؤمنين :

﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة﴾ (التحريم ٦)

ويقول مخاطبا الرسول ﷺ وليعلم المؤمنين جميعا.

﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها، لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾ (طه ١٣٢)

كما يوجه الرسول ﷺ إلى مسئولية تربية الأبناء :

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه، قال : قال رسول ﷺ:-

«مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم فى المضاجع» (حديث حسن رواه أبو داود بإسناد حسن)

ونقرأ فى كتاب الله عن مسئولية الوالدات :

﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ (البقرة ٢٣٣)

وعن مسئولية الآباء فى الإنفاق :

﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ (البقرة ٢٣٣)

وعن المسئوليات المشتركة بين الزوجين :

﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾ (البقرة ٢٢٨)

وعن مسئولية دور الرجل فى الأسرة :

﴿الرجال قوامون عن النساء﴾ (النساء ٣٤)

إن الإسلام حقا هو دين المسئولية ، يربى عليها الفرد والمجتمع ، ويجب على المرشد أن يستفيد بهذا المبدأ .

٧- مساعدة المسترشدين على تكوين معنى لحياتهم :

يرى فرانكل Fankle صاحب نظرية العلاج بالمعنى Logotherapy أن فقدان الشخص لمعنى فى حياته أو ما أطلق عليه الفراغ الوجودى هو فى الواقع أساس المرض النفسى.. وقد بنى فرانكل فكرته هذه من معايشته للتعذيب فى معسكرات النازى حيث لمس فيها أن آلام الناس كانت تقل بمساعدتهم بعضهم بعضا .(١)

---

(١) تاريخ الدعوة الإسلامية ملىء بالنماذج التى بإسلامها تحملت العذاب البدنى والنفسى وفى صدر الدعوة نجد آل ياسر ونجد بلال بن رباح. ومن الأمثلة فى ذلك الخنساء التى اشتهرت فى الجاهلية بمرثياتها لأخيها صخر (وهو أخ لها من أبيها) ثم فى الإسلام حين استشهد أبناؤها الأربعة فى معركة من معارك الفتح قالت : الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم وأرجو أن يجمعنى بهم.

ونحن نعجب لمثل هذا الهدف العلاجى أو مثل هذا التعليل لنشوء المرض ، نحن نعجب لما وصل إليه حال الناس فى المجتمعات الغربية بعد أن تخلوا عن جانب الدين الذى يذكى فى النفس استشعار الرابطة التى تربطها بخالقها جل وعلا، رابطة العبودية لله وحده!

لا نعجب إذن حين نعرف أن كتبا كثيرة بدأت تكتب عن الموت والاستعداد له ، وأن أنواعا من العلاج والإرشاد بدأت تدخل عالم المسنين فى الغرب لتقلل من اضطرابهم لدى الاقتراب من الموت ، الذى قد يستمر لعشر سنوات أو عشرين سنة أو ثلاثين سنة! ! وهو ما جعل كثيرا ممن دخلوا إلى الشيخوخة فى تلك البلاد يقضون جانبا كبيرا من حياتهم فى مستشفيات الأمراض العقلية ، وكثير منهم على قناعة ذاتية أنه لا حياة بعد الموت وأن الموت هو خاتمة حياة عاشها فى ترف وفساد .

أليس هذا الخلل الذى أسماه فرانكل انعدام المعنى ، أو الهدف فى الحياة، هو خلل فى العقيدة – لم يدركه ؟

ولو نظرنا إليه من وجهة نظر إسلامية لوجدنا أن القرآن الكريم قد حدد للإنسان غاية وحيدة تقوم حياته عليها ، هى عبادة الله وحده، وأن هذه الغاية يحققها من خلال تكليفات ووظائف تساعده على الوصول إليها، ويجمعها ذلك التكليف الربانى من المولى سبحانه وتعالى إلى بنى الإنسان أن يقوموا بواجب الخلافة فى الأرض وعمرانها ..

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات ٥٦)

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ..﴾ (البقرة ٣٠)

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين* لا شريك له﴾ (الأنعام ١٦٢-١٦٣)

قد يكون سبب المرض النفسى راجعا إلى عدم فهم الشخص لهذه الغاية العظمى فى حياته، والتى يظل قائما عليها مادام فيه عرق ينبض وعقل يعى.

إن على المعالج المسلم أن يراعى هذا الجانب فى عمله مع المرضى والمسترشدين فى إطار العلاج والإرشاد ، ذلك أن هذا المعنى العظيم لحياة الإنسان هو أقوى ما يحصنه ضد أمراض الشيخوخة النفسية ، وما يعرف «بقلق الموت» والذى أرى أنه مازال بعيدا عن مجتمعاتنا الإسلامية بفضل العقيدة القوية. فالمسلم عندما تتقدم به السن يزيد من الوقت المخصص للعبادة والتردد على المساجد وفعل الخيرات والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإصلاح بين الناس، ولقد نعجب أن يكتب باحث مسلم كتابا عن قلق الموت تقليدا لكتّاب الغرب فى حين نقرأ لبعض علماء المسلمين من السلف كتبا تقرب لهم معايشة الموت، إن توضيح غاية الخلق لدى العامة وأن بعد الموت بعثا وحسابا وجنة أو نارا إنما يساعدهم على العمل للآخرة ، والعمل للآخرة ، يعين على الصالحات وهو أمر يساعد على وقاية مجتمعاتنا من شر ما يهدد البشرية من قلق أفسد عليها حياتها وأطلق الصراعات والجريمة والفسوق والمجون والمخدرات وما تعج به مستشفيات الغرب النفسية بمرضى العقول.

نقول إن هذا الهدف من وجهة نظر إسلامية يمكن أن يصبح :

«مساعدة المسترشدين والمرضى على إدراك أن الغاية من خلقهم هى عبادة الله وحده والقيام بوظيفة الخلافة فى الأرض وعمرانها والعمل على استدماج ذلك فى كل أنشطة حياتهم» . ويكفى أن نتذكر قول الله تعالى

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ (المؤمنون ١١٥)

﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ (القيامة ٣٦)

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين﴾ (الأنعام ١٦٢)

يكفى أن نتذكر هذه المعانى وأن نذكر مرضانا فى العلاج والمسترشدين فى الإرشاد لنساعدهم بإطلاق طاقاتهم فى الإخلاص لله فى عبادته وحده، والالتزام بماشرعه لهم من الدين والعمل فى دنياهم بما يحقق وظيفة عمران الأرض والقيام بواجب الخلافة الذى يضمن لهم سعادة الدارين.

﴿آلم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين* الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون* والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ (البقرة ١-٥)

٨ - مساعدة المسترشدين والمرضى على اكتساب الأمن النفسى :

يتفق الباحثون فى مجال علم النفس على أن الأمن يمثل دافعا أو حاجة قوية فى حياة الإنسان، وهى تأتى فى القوة بعد الحاجات البدنية (الفيزيولوجية) كالطعام والشراب والنوم، مباشرة. وبذلك نظر بعض هؤلاء الباحثين إلى المرض النفسى على أنه نتيجة لانعدام الأمن داخل الفرد أو انعدام شعوره به .

ومن بين الذين جعلوا توفير الأمن النفسى أساسا فى علاجاتهم كارل روجرز صاحب نظرية العلاج المتمركز حول الشخص[1]، حيث يرى أن الاضطراب النفسى لدى الفرد يأتى نتيجة افتقاده لعلاقة آمنة مع الأشخاص ذوى الأهمية فى حياته، والذين يحتاج إلى موافقتهم ورضاهم عن تصرفاته ، وأن المعالج عليه أن يوفر علاقة إرشادية أو علاجية تضفى الأمن على هذا المسترشد أوالمريض الذى يعمل معه، علاقة خالية من التهديد الذى اعتاد أن يستقبله ممن حوله ، ويجعله بالتالى يرفض ذاته، فيعود مع هذه العلاقة الآمنة إلى التعامل مع خبراته مما ينهى آلامه واضطراباته النفسية ويساعده على تحقيق ذاته .

إن الأمن كما يراه روجرز أمن خاص يتعلق برضا الفرد عن نفسه ورضا الآخرين عنه، ولو تفحصنا هذا المفهوم للأمن من ناحية إسلامية لوجدنا أنه مفهوم قاصر يرتبط بفكر قاصر . ذلك أنه يرى أن الفرد حين يمر بخبرة ما فإنه يعرضها على شروط أو معايير أطلق عليها شروط الأهمية ، وهى الشروط التى يفرضها عليه الأشخاص ذوو الأهمية فى حياته بدءا بالأبوين لكى يحققوا له

---

(١) كان يعرف فيما مضى بالعلاج المتمركز على العميل

مطلبا هاما فى حياته (من وجهة نظر روجرز) وهو الحصول على رضاهم والذى يعتبر جانبا هاما فى إشباع حاجته الأساسية والوحيدة من وجهة نظر روجرز، والتى أسماها بتحقيق الذات. فإذا ما وافقت الخبرة تلك الشروط فإن الفرد يستشعر الرضا ويستدمج هذه الخبرة ويضيفها إلى ذاته وإذا لم توافق الخبرة شروط الأهمية فإن الفرد يحاول استبعاد هذه الخبرة ولكنها لا تنفصل عنه وتصبح عامل تهديد ومصدر القلق والمرض النفسى.

أما مفهوم الأمن الداخلى للفرد فى الإسلام، فإنه مفهوم يرتبط تماما بمفهوم الإيمان بل ويشتق منه ، إنه أمن يستلهمه المؤمن ويستشعره أولاً من علاقته بخالقه جل وعلا ووفائه بما أمر به وانتهائه عما نهى عنه، فإذا ما وافق المعيار الإيمانى معيار المجتمع ومعيار الأبوين فلا خلاف. أما إذا اختلف المعياران فمعيارنا الأساسى هو ما يحدده المنهج الإسلامى، والرضا الذى يسعى إليه الفرد هو رضا الله عنه، ورضاؤه هو عما تقرب به إلى ربه سبحانه وتعالى .

لنتأمل ذلك التحديد لمعنى الأمن فى القرآن كما يرد على لسان أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام حين يخاطب قومه قائلا :

﴿وكيف أخاف ما أشركتم، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون* الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون* وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم﴾ (الأنعام ٨١-٨٣)

هكذا يربط القرآن بين الأمن والإيمان، أى أن الإيمان هو السبيل الأساسى لاكتساب الأمن الداخلى... والإيمان يزود الفرد بقبول لا يدانيه قبول .. إنه القبول من الله والرضا الذى يحقق النفس المطمئنة.

﴿يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾ (الفجر ٢٧-٣٠)

أما الأمن الذى يمكن للمسترشد أو المريض أن يستشعره نتيجة وجوده فى علاقة إرشادية أو علاجية مع مرشد أو معالج لا يشعره بالتهديد فلا شك أن هذه الصفة يجب أن يتسم بها المعالج المسلم من خلال الرفق . ولو تأملنا فى الحديث الذى أورده الإمام أحمد والذى رواه أبو أمامة عن الشاب الذى جاء يطلب من الرسول صلوات الله وسلامه عليه أن يأذن له فى الزنا لرأينا كيف أن الرسول ﷺ أشعره بالأمن وطلب منه أن يدنو منه ثم أخذ يخاطبه عقليا ووجدانيا .

ويوصينا الرسول ﷺ بالرفق– فيقول فى حديث روته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها :–

«إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ولا ينزع من شىء إلا شانه» (أخرجه مسلم)

ويخاطبه ربه جل وعلا :

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر...﴾ (آل عمران ١٥٩)

ويأمره فى موضع آخر:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ (النحل ١٢٥)

وبذلك فإن مساعدة المسترشد على اكتساب الأمن، تأتى من خلال علاقة آمنة يسودها الرفق والتقبل، تقبل الإنسان الذى كرمه الله، هذه العلاقة يوفرها المرشد تأسيا بالرسول ﷺ، ثم يأتى بعد ذلك عمل المرشد الدءوب لمساعدة المسترشد على تعميق جانب الإيمان بداخله وتنمية المعايير الإيمانية التى يمكن على أساسها إدراك الخبرات التى يمر بها ، فما وافق هذه المعايير فعليه أن يتقبلها حتى لو اختلفت مع معايير من حوله ، وما اختلف منها مع هذه المعايير فعليه أن يرفضها من نفسه حتى لو رضى عنها من حوله ، إن المعيار الأكبر هنا هو استيفاء حقوق الله سبحانه وتعالى والتى يتحقق بها رضاه عز وجل ، وهذا

ينعكس بدوره على الفرد فى صورة أمن عميق، هو الانعكاس الحقيقى للإيمان وهو الزاد الأول للصحة النفسية للفرد.

مرة أخرى مع حديث الرسول ﷺ الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما :

عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: كنت خلف النبى ﷺ يوما فقال: «يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذى وقال : حديث حسن. وفى رواية غير الترمذى: «احفظ الله تجده أمامك . تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة. واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا».

ومن بين ما يساعد المسترشد المسلم على اكتساب الأمن بعد الشعائر التعبدية المفروضة الدعاء، الاستغفار، التوبة، التوكل على الله، وذكر الله، وعمل الخيرات.

٩- مساعدة المرضى والمسترشدين على مواجهة الواقع والتعامل معه:

سبق أن ذكرنا أن كثيرا من المشكلات التى يأتى بها المرضى إلى العيادات النفسية تكون نتيجة لوقوعهم تحت ضغط عوارض تقابلهم فى الحياة أو أزمات شديدة (محن) يمرون بها، وعدم مقدرتهم على التعامل مع الواقع (جلاسر فى العلاج بالواقع، روجرز فى العلاج المتمركز حول الشخص، بيرلز فى العلاج الجشطلتى) وأن السبيل إلى مساعدة هؤلاء الأشخاص هو من خلال ملامستهم للواقع والتعامل معه وعدم الهروب منه.

وانطلاقا من هذا الهدف نجد الكثير من البرامج التى تساعد الأفراد والجماعات على حل مشكلاتهم واتخاذ القرارات المناسبة والاستفادة مما لديهم

من إمكانيات ومن مثل هذه البرامج تأهيل المعوقين وبرامج الإرشاد المهنى وبرامج التدريب على حل المشكلات وبرامج مواجهة الأزمات النفسية الشديدة.

إن الفرد الذى يأتى إلى مثل هذه البرامج إنما هو فرد يعانى من نقص أو عجز فى القدرة على مواجهة مطالب الحياة وضغوطها، وتعتمد الأساليب التى تستخدم فيها على تعريفه بنفسه وبالواقع الذى يحيط به وإطلاق طاقاته نحو تحمل المسئولية وعدم الهروب من هذا الواقع .

إذا نظرنا لهذا الهدف من منطلق إسلامى لوجدنا أنه هدف يتسق مع النهج الإسلامى الذى يعمل دائما على تكوين وبناء الإنسان الصالح النافع لنفسه وللناس فى الدارين ، وتكوين الجماعة والمجتمع الصالحين بكل معانى الصلاح. وبجانب ما ذكرناه من قبل عن اهتمام الإسلام بتنمية الوعى لدى الإنسان وتنبيهه إلى ما فى نفسه ونعم الله فى خلقه وإلى ما حوله من الكون بحركته وسكونه وما يترتب على ما يقوم به من فرائض تعبدية على مدار اليوم وعلى مدار الفصول وفى شهور معينة (مثلا الصيام) وفى أماكن محددة (الحج) . وهذه العبادات التى تتم ويقوم بها المسلمون تشمل الأرض بأركانها وتشمل الزمان بساعاته ودقائقه مما أراه قمة التنبيه لوعى البشرية جمعاء .

وقد ربط المنهج الإسلامى بين جوانب التفكير والمشاعر والسلوك ربطا محكما فشحذها شحذا كبيرا بدءا بالعقيدة وانطلاقا مع العبادات والمعاملات وكافة شئون الحياة.

ويحدد لنا القرآن الكريم المنهج التربوى فى مواجهة الواقع حين يبلغ الأبناء فيقول: ﴿يأيها الذين آمنوا ليستئذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات، من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء، ثلاث عورات لكم، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن، طوافون عليكم بعضكم على بعض، كذلك يبين الله لكم الآيات، والله عليم حكيم * وإذا بلغ

الأطفال منكم الحلم فليستئذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته. والله عليم حكيم﴾ (النور ٥٨-٥٩)

﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن الله كان عليا كبيرا* وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا﴾ (النساء ٣٤-٣٥)

إن هذه الآيات وما يتصل بها من آيات اشتملت عليها سورة البقرة وسورة النساء، وسورة الطلاق تشتمل على ما ينظم حياة الأسرة والعلاقات بداخلها والمسئوليات والحقوق والواجبات ، وكذلك علاج ما قد يطرأ عليها من مشكلات بدءا بالوقاية وانتهاء بإنهاء العلاقة بالطلاق وما يترتب على ذلك. وهذا التنظيم لم يترك مجالا لما يسعى إليه الباحثون فى الغرب من أساليب للعلاج الأسرى Family Therapy والعلاج الزواجى Marital Therapy بل إن الغرب يبحث اليوم فى استخدام أسلوب التحكيم الذى رأيناه فى الآيات الكريمة فى سورة النساء بعد ما لوحظ أن أكثر من نصف الزيجات لديهم يئول إلى الطلاق (تمرى، ويير Emery &Wyer ١٩٨٧) بل إن تنظيم الطلاق فى الشريعة الإسلامية تنظيم عظيم وكريم فى حين أن الطلاق فى الغرب (الذى كانوا يحرمونه إلى عهد قريب فى الديانة المسيحية) قد يستغرق أكثر من عشر سنوات يقضيها الزوجان فى هجر وفى مشكلات قبل أن تحكم المحكمة بطلاقهما.

ومن النماذج الإرشادية المتصلة بملامسة الواقع ما نطالعه فى السنة النبوية متضمنا لما أصبح يعرف الآن بالتوجيه والإرشاد المهنى.

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا من الأنصار جاء النبى ﷺ يسأله: فقال «لك فى بيتك شىء؟» قال : بلى ، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه،

وقدح نشرب فيه الماء. قال : «ائتنى بهما» قال : فأتاه بهما . فأخذهما رسول الله ﷺ بيده ثم قال« من يشترى هذين؟» فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم قال: «من يزيد عن درهم؟» مرتين أو ثلاثا ، قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما للأنصارى وقال: «اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فأتنى بها» ففعل فأخذه رسول الله ﷺ فشد فيه عودا وقال: «اذهب واحتطب ولا أراك خمسة عشر يوما» فجعل يحتطب ويبيع فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فقال : « اشتر ببعضها طعاما وببعضها ثوبا» ثم قال : هذا خير لك من أن تجىء والمسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة. إن المسألة لا تصلح إلا لذى فقر مدقع، أو لذى غرم مفظع أو دم موجع» «رواه بن ماجه»

لقد ساعد الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذا الرجل بأن يستفيد من طاقاته البدنية وأن يواجه الواقع ويعرف مسئوليته .. وفى مثل هذا يوجه الخليفة عمر بن الخطاب الرعية فيقول : لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

وفى مواجهة الشدائد فإن الإسلام يدعو أتباعه إلى الصبر ويشجعهم عليه ويعدهم بالفوز بسببه :

﴿إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب﴾ (ص ٤٤)

﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (الزمر١٠)

ويأمر باتخاذ كل ما يمكن إزاء مواقف الخطر:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم..﴾ (الأنفال ٦٠)

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولون ربنا الله ...﴾ (الحج ٣٩- ٤٠)

﴿وخذوا حذركم﴾ (النساء١٠٢)

﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم، قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا﴾ (النساء ٩٧)

﴿ يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا﴾ (النساء ٧١)

﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ (البقرة ١٩٥)

كما يأمرهم بالاعتدال ، والوسطية في كل أمور حياتهم :

﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ (الإسراء ٢٩)

﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ (الأعراف ٣١)

﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ (البقرة ٢٨٦)

﴿لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها﴾ (الطلاق ٧)

وفي مجال المشكلات الاجتماعية : نجد رعاية المعوقين، ولقد استخلف رسول الله ﷺ ابن أم مكتوم وهو أعمى على المدينة في بعض غزواته.

ويرشد الرسول ﷺ إلى مساعدة الشباب في الزواج«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» (رواه الترمذي وأحمد)

وفي شأن من لا يجد زواجا يقول القرآن الكريم:

﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله...﴾ (النور٣٣)

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء .»

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا – كأنهم تقالوها – فقالوا

وأين نحن من النبى ﷺ، فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .. قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا. وقال آخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر : وأنا اعتزل النساء فلا اتزوج أبدا. فجاء رسول الله ﷺ فقال : «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى» (رواه البخارى ومسلم)

كما تحدد السنة النبوية أولويات اختيار الزوجة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال :

«تنكح المرأة لأربع، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك» (متفق عليه)

ويوجه الإسلام أتباعه إلى القوة وعدم الضعف أو الخور فى مواجهة مشكلات الحياة ونقرأ فى السنة النبوية :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف وفى كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان». (رواه مسلم)

وفى حديث آخر : عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». (رواه مسلم)

١٠- المساعدة على ضبط النفس :

مبدأ ضبط النفس وتقوية الإرادة، من الأهداف الأساسية للعلاج المعرفى الذى يعد أحدث المدارس فى ميدان الإرشاد والعلاج النفسى ، وهو مبدأ يعتمد على تقوية الإرادة لدى المسترشدين واستخدام طاقاتهم العقلية، ويقوم على أن سلوك الإنسان لا يخضع مباشرة للمثيرات التى تسبقه ولا للمعززات (المدعمات) التى

تعقبه على النحو الذى قال به السلوكيون مثل بافلوف وواطسون وسيكنر ، وإنما هناك عمليات عقلية تتوسط بين المثيرات والسلوك وبين المعززات والسلوك.

وضبط النفس هدف له أصوله الإسلامية العميقة ، بل الإسلام يعمق هذا المبدأ إلى درجة أبعد وهى مجاهدة النفس، والعبادات التى يؤديها المسلم كلها تساعده على بناء هذا الجانب فى حياته، فالصلاة لها شروطها ولها مواقيتها، والصيام له شروطه ويحتاج إلى عزيمة وإلى ضبط النفس ومنعها من كل مشهياتها، والزكاة تحتاج إلى تدريب النفس على الإنفاق مما تحب التزاما بطاعة الله بل وتشجيع المسلم على ما وراء الزكاة المفروضة فى صورة بر وصدقات. وكذلك الحج له شروط ويعزز فى المسلم ضبط النفس..

إن المحور الأساسى للإسلام هو تدريب النفس البشرية وتقويتها بإلزامها بطاعة الله وحده وإلزام المسلم بتزكية هذه النفس من خلال العبادات ، ومن خلال تصحيح المعاملات ومواجهة ظروف الحياة والالتزام بآداب الإسلام مما يساعد على بناء شخصية قوية جادة ملتزمة تدعو للخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، لا تجذبها الشهوات ولا يجرها الإسراف ولا تغريها المغريات ولا تلهيها الملهيات عن العبودية لله والقيام على واجب الخلافة ، وحياة المسلم كلها حركة قوية بين إيمان وعمل ، عقيدة وشريعة.

لننظر فى جانب هام يسعى الإسلام إلى تكوينه وتقويته فى كل مسلم وهو جانب الصبر الذى يعتبر ركنا هاما فى إيمان الفرد، فنجد أن الله سبحانه وتعالى قد امتدح به عباده المؤمنين وأوصى به رسوله الكريم ، وأمر المؤمنين أن يجعلوه خلقا لهم .

﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ (الحج ٣٥)

﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ (الأنفال ٤٦)

﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ (الأحقاف ٣٥)

إن الإسلام قد بنى فى المؤمنين الأوائل خلق الصبر، ولعل فى قصة أبى طلحة مع زوجته حين مات ابنه وأخذت تمهد له بمثال عن استرداد الأمانة، وفى قصة الخنساء حين استشهد أبناؤها الأربعة فقالت : الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم وأسأله سبحانه أن يجمعنى بهم. وفى جهاد المسلمين الأول ما يرينا كيف صبروا وجاهدوا وتحملوا الأذى.

﴿فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾ (آل عمران ١٤٦)

وقد أمرنا الإسلام بأن نضبط شهواتنا ودوافعنا فلا نشبعها إلا من حلال.

﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله...﴾ (النور٣٣)

﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ (طه ١٣١)

وأن نشبع هذه الدوافع على النحو الذى يساعدنا على عبادة الله سبحانه وتعالى والقيام بواجب الخلافة وأن نلتزم فى إشباعها حد الاعتدال.

﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ (الأعراف ٣١)

كما أمرنا أن نضبط انفعالاتنا وبصفة خاصة ما يؤدى منها إلى الإضرار بالآخرين وارتكاب الآثام كانفعالات الغضب والكراهية والحقد والحسد والحزن والخوف.

﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ (آل عمران ١٣٤)

﴿ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا...﴾ (الحشر ١١)

﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ (الحشر ٩)

ونطالع فى السنة النبوية أن رجلا جاء إلى الرسول ﷺ وقال له : يا رسول الله أوصنى. فقال له الرسول المعلم : «لا تغضب»

فردد مرارا قال «لا تغضب». (أخرجه البخارى)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه: أن الرسول الله ﷺ قال:

«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»(متفق عليه)

وعن معاذ بن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله سبحانه على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء» (رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن)

١١-المساندة النفسية :

يرى كثير من الباحثين أن أحد أهداف العلاج النفسى توفير المساندة النفسية للمرضى فى موقف العلاج بما يساعدهم على إعادة بناء شخصيتهم واستدماجهم لجوانب متصدعة منها ...

ويعتبر هذا الهدف أساسيا لأولئك المرضى الذين مروا بخبرات مؤلمة مثل الأشخاص الذين تعرضوا لنكبات فردية أو جماعية والذين يمرون بحالات اكتئاب استجابى والذين يعانون من نوبات شديدة حادة كحالات عصاب الصدمة وحالات توهم المرض .

وتعتمد فكرة المساندة النفسية على تقديم العون من خارج الفرد أى مساندة بيئية حيث تكون قواه الذاتية قد أخفقت فى مواجهة الواقع مواجهة كافية .

ومن وجهة نظر إسلامية فإن هذا الهدف أيضا يعتبر هدفا أصيلا يدخل فى بنية الشخصية المسلمة .

ولو استعرضنا تاريخ الدعوة الإسلامية لرأينا كيف مر المسلمون وهم فئة قليلة مستضعفة فرض عليهم ما يشبه الحصار الكامل فى شعب من شعاب مكة،

كيف مروا بهذه المرحلة اعتمادا على مساندة بعضهم لبعض وانطلاقا من قوى داخلية مبعثها الإيمان تنطلق من كل واحد منهم لتساند الآخر.

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ (البقرة ١٥٥-١٥٦)

وفى صلب العقيدة الإسلامية ما يبنى جانب المساندة الذاتية التى يمد بها المرء نفسه اعتمادا على نبع غزير هو نبع الإيمان، واستشعارا بالأمن النفسى فى جانب الإيمان فعقيدة التوحيد عقيدة المسلم تجعله يؤمن بالقدر خيره وشره.

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (التوبة ٥١)

ويمكن أن نصور هذا الجانب على النحو التالى :

١ - تزود العقيدة الإسلامية المسلم بقوة داخلية استشعارا برابطة عبوديته لله وحده وأن عليه أن يرضى بما قدره الله عليه . (الإيمان بالقدر خيره وشره).

٢ - الاعتقاد بأن الله قادر على أن يذهب عنه الضر وأن يلهمه الصبر على ما أصابه وطريقه إلى هذا الإنابة إلى الله والاستغفار والدعاء والاسترجاع..

٣ - أن المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وأن المسلم الذى تعتريه مشكلة أو مصيبة يلقى العون من غيره من المسلمين ما داموا قادرين عليه ولو كان ذلك بالتحدث معه وتذكيره بضرورة التسليم بقضاء الله والصبر عليه ، ويتدرج هذا إلى تقديم كل عون ممكن من مأوى ومأكل ومشرب ورعاية بجانب مساعدته على إطلاق طاقاته الإيمانية ليبنى المساندة من داخله.

ونطالع فى الهدى النبوى : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال الرسول ﷺ:

كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل فى دابته تحمله عليها وترفع له عليها متاعه صدقة. والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة. (متفق عليه).

ونرى المشهد يتكرر فى صورة عظيمة حين استقبل الأنصار فى المدينة، المهاجرين وقد جاءوا إليهم بلا زاد ولا مأوى ولا مال ، وكيف شارك كل منهم أخاه ونزل له عن جزء مما يملك .

وفى الهدى الإسلامى ما يدعو المسلمين جميعا إلى هذا الواجب يسارعون إليه، ففى الحديث الشريف:

«والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه»

ومن حديث للرسول صلوات الله عليه وسلامه رواه النعمان بن البشير رضى الله عنهما:

«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (متفق عليه)

ومن حديث له صلى الله عليه وسلم : «والكلمة الطيبة صدقة»

وفى هدى القرآن الكريم :

﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ...﴾ (المائدة ٢)

أليس فى الزكاة وهى ركن أساسى من أركان الإسلام صورة عظيمة من صور التكافل والمساندة .

والإسلام ينطلق فى جانب المساندة النفسية اعتمادا على طاقات داخلية زودها الإسلام بزاده وقوته، وهى جوانب الإيمان التى تساعد الفرد على مواجهة الشدائد .

﴿إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ (المعارج١٩-٢٣)

وعن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «على كل مسلم صدقة. قال : أرأيت إن لم يجد؟ قال«يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق»، قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال «يعين ذا الحاجة الملهوف» ، قال : أرأيت إن لم يستطع؟ قال« يأمر

بالمعروف أو الخير» قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال «يمسك عن الشر فإنه صدقة» (متفق عليه)

١٢- تعليم المرضى أو المسترشدين سلوكيات جديدة وإبطال السلوكيات القديمة غير المرغوبة :

يعتبر هذا الهدف هدفا عاما لكل أنواع الإرشاد والعلاج النفسى ، ولكنه مع ذلك يمثل هدفا أساسيا فى العلاج السلوكى مع ضرورة أن تتفرع منه أهداف فرعية ترتبط بالشخص موضوع المعالجة وبظروفه.

ويفترض المعالجون السلوكيون أن السلوك السوى وغير السوى إنما هو سلوك مكتسب نتيجة العلاقات مع أحداث البيئة سواء كانت مثيرات تقع قبل السلوك (بافلوف ، وواطسون)، أو لأحداث لاحقة تقع بعد السلوك(مدعمات أو عقاب) – (سكينر) . أو نتيجة ملاحظة لأحداث تقع أمامه(باندورا) . وقد أطلقوا على النوع الأول الإشراط الكلاسيكى وعلى النوع الثانى الإشراط الإجرائى وعلى النوع الثالث التعلم الاجتماعى (التعلم بالملاحظة) .

وتقوم طرق الإرشاد والعلاج السلوكى على تحليل الروابط بين السلوك وبين ما يؤثر فيه سواء كانت مدعمات (معززات) أو عقابا، أو سلوكيات يقوم بها آخرون ويلاحظها الفرد ويقلدها ، ثم العمل على التدخل بناء على ذلك. وقد يكون التدخل بالتدعيم (لغرس سلوك جديد، أو تقوية سلوك ضعيف موجود) أو بالعقاب (لإضعاف سلوك أو إلغائه) أو الانطفاء (لإلغاء التدعيم وبالتالى توقيف السلوك) أو بالتشكيل والتسلسل بتدريب الفرد على سلوكيات مجزأة وتدعيمه (لإكسابه سلوكا جديدا) أو بعرض نماذج سلوكية يلاحظها ويلاحظ ما يترتب على السلوك من نتائج وذلك بهدف غرس سلوك جديد أو تقوية سلوك ضعيف أو إضعاف سلوك موجود أو إلغائه (التعلم بالعبرة) .

ومن وجهة نظر إسلامية يمكن أن نرى أن تعديل السلوك من خلال عمليات

تعليمية يتسق مع المنهج الإسلامى- ولكن الإسلام اعتبر جانب العقل الذى خص الله به بنى البشر وما يحدث فيه من عمليات تؤدى إلى توظيف المعلومات والاستفادة بها - جانبا أساسيا فى تعديل السلوك وهو مالم يفعله المعالجون السلوكيون وكان مطعنا لهم دخل منه أصحاب المدرسة المعرفية السلوكية والمدرسة المعرفية. ومن الأساليب التى نجدها فى المصادر الإسلامية:

١ - استخدام الموعظة التى تقوم على تحليل الموقف والسلوك وبيان ما يترتب عليه ومواطن الخطأ فيه ومساعدة الفرد على الحكم على هذا السلوك وتغييره.

٢ - استخدام أساليب التدعيم من خلال الثواب وامتداح السلوك المرغوب ومن يقوم به ومساعدة أتباع الإسلام على تنمية التدعيم من داخلهم بتقريبهم إلى الله سبحانه وتعالى.

٣ - استخدام أسلوب العقاب لإبطال السلوك أو إضعافه.

٤ - استخدام النماذج السلوكية الصحيحة - وأول النماذج هى التأسى بأعمال الرسول ﷺ.

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ (الأحزاب٢١)

واستخدام نماذج أخرى يمتدحها القرآن ويمتدحها الرسول ﷺ ...

﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ (الحشر٩)

﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾ (الإنسان٨)

ومن حديث للرسول ﷺ (هذه يد يحبها الله ورسوله)

ومن حديث آخر «إن سعدا لغيور، وأنا أغير من سعد والله أغير منا»

واستخدام النماذج الضمنية [1] التى وردت فى القصص القرآنى وما اشتمل

(١) النماذج الضمنية هى التى لا تظهر مباشرة للفرد ويبنى لها صورة ذهنية بناء على وصف، مثلما يحدث فى القصص ، وهى تتساوى فى تأثيرها مع النماذج الصريحة أو المباشرة التى يراها الفرد.

عليه من نماذج سلوكية :كانت لها نتائج مثيبة أو عقابية ، ففى قصص الأنبياء وقصص أشخاص مثل قارون وصاحب الجنتين وما انتهت إليه من نتائج نماذج سلوكية تعليمية ...

٥- الإهمال والإعراض والعزل والهجر : (تدريب الإغفال) :

وهذه أساليب متنوعة يجمعها مبدأ العقاب السلبى الذى يعنى الحرمان من شيء مرغوب وهى أساليب سبق إليها الإسلام ويتبعها المعالجون السلوكيون فى مواقف شتى ومشكلات متنوعة .

٦- الكف بالنقيض :

وذلك باستخدام استجابة قوية مضادة لاستجابة مؤلمة مثل الخوف والغضب- ولعل فى الدعاء والاستغاثة بالله سبحانه وتعالى وفى التكبير والتهليل ما يعارض خبرة مؤلمة كخبرة الخوف.

٧- وقف الخواطر :

ويعلمنا القرآن كيف نوقف نزغ الشيطان بالاستعاذة بالله، وهو أسلوب علاجى هام فى حالات كثيرة مثل حالات الوساوس وشرود الذهن واسترجاع الأحداث الماضية.

عود على بدء :

لقد تعرفنا فيما تم عرضه على الأهداف التى تضعها النظريات الغربية للإرشاد والعلاج النفسى للمرشدين والمعالجين والتى يعملون على تحقيقها من خلال عمليات الإرشاد أو العلاج النفسى، ورأينا من خلال عرض هذه الأهداف على محكات إسلامية مدى صلاحيتها أو عدم صلاحيتها فى الإرشاد والعلاج النفسى فى إطار الثقافة الإسلامية وعلى أيدى مرشدين ومعالجين مسلمين .

ورغم ما يبدو فى بعض الأحيان من أن المسمى الذى يحمله الهدف لا غبار عليه من وجهة نظر إسلامية فإنه سرعان ما يظهر من المناقشة أن المحتوى

والأسلوب بل والهدف من الهدف إن صح هذا التعبير يبتعد كثيرا عن المنهج الإسلامى، فلا الواقع هو الواقع ولا الأمن هو الأمن ولا الصراع هو الصراع بل لا نغالى إذا قلنا ولا المسئولية هى المسئولية.

إن السبب فى اختلاف هذه الأهداف فى مضمونها عن المنشود إسلاميا يرجع من وجهة نظرى إلى ثلاثة أسباب رئيسية :

١ – اختلاف المنطلقات الأساسية التى تنطلق منها النظريات وبصفة خاصة فى النظر إلى الإنسان .

٢ – اختلاف الأصول التى تشتق منها الأهداف والقيم التى تقوم عليها.

٣ – اختلاف الأساليب الموصلة إلى الأهداف.

وسوف نناقش فيما يلى كل جانب من هذه الجوانب الثلاثة :

١ – اختلاف المنطلقات الأساسية وبصفة خاصة فى النظر إلى الإنسان:

وقد رأينا من قبل كيف أن كل نظرية للإرشاد تبدأ بمسلمة يضعها صاحب النظرية كمنطلق يبنى عليه النظرية، وهذه المسلمة تتصل بقضية الخير والشر فى حياة الإنسان– وقد كانت أول المدارس الغربية التى ظهرت فى مجال العلاج النفسى تلك النظرية التى قدمها سيجموند فرويد تحت اسم التحليل النفسى والتى نظر فيها إلى الإنسان نظرة تشاؤمية واعتبر أن حياته وشخصيته وتطوره النمائى كله مرتبط بالجنس باعتباره غريزة أساسية تبدأ مع الطفل منذ ولادته .. ثم عاد وأضاف بناء على اقتراح من زميله وصديقه ألفريد أدلر غريزة العدوان ، وقال : إن الغريزة الأولى هامة للحياة كما أن الثانية هامة للموت . وفى رأى فرويد أن كل سلوك يقوم به الإنسان إنما يكون نتيجة لهاتين الغريزتين.

هذه النظرة المتشائمة السوداء للإنسان وأنه لايحمل فى نفسه أى خير وأن ما يظهره من خير قد يكون مجرد حيلة دفاعية تحميه من القلق، قد صبغت كل أفكار فرويد وآراءه وكتاباته . فكانت بقية نظرياته أو مكونات نظريته– حول

«الواقع» فى مقابل «اللذة» و«الشعور» فى مقابل «اللاشعور»، «والهو» فى مقابل «الأنا الأعلى» تصور عمليات صراعية مستمرة فى حياة الإنسان محورها كما يرى هو الجنس والعدوان.

لقد استمرت آراء فرويد لفترة طويلة فى ساحة العلاج النفسى تدعو لها أبواق اليهود وتروج لها فى كل مكان حتى انتقلت من عالم العلاج النفسى إلى عالم الأدب والفن.

ورغم ذلك فمنذ بداياتها لاقت فكرة التحليل النفسى بناء على أهمية غريزة الجنس ودروها الذى ضخمه فرويد، معارضات حتى من أقرب أصدقائه له وهو أدلر الذى قطع علاقته بفرويد واستقال من رئاسة جمعية التحليل النفسى وأنشأ ما عرف بعلم النفس الفردى ...

لقد اختزل فرويد الإنسان إلى صورة غريزية ولم يأبه لما يتميز به الإنسان عن الكائنات الأخرى مما كرمه به خالقه سبحانه وتعالى

﴿ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ (الإسراء ٧٠)

إن فرويد لم يقم نظريته على مصدر مقبول من مصادر المعرفة، فهو لم يقمه على أساس دينى ولا على أساس علمى وإنما على مجرد افتراضات صور له كثيرا منه خياله المريض بل وشخصه المريض ، وسحب الباقى منها من ممارسة قائمة على هذا الخيال المريض مع المرضى . ونظرية فرويد بجانب ذلك مملوءة بالطلاسم الغامضة وهى تجرى وراء الماضى وتحاول على حد تعبير كثيرين الحفر فيه ويصعوبة بالغة . فى حين تعتمد فى كثير من جوانبها على التعامل مع الأحلام، وفلتات اللسان، والتفسير من جانب المعالج حيث المريض لا يدرى من أين اشتق هذا التفسير.

وفكرة الصراع التى يصورها فرويد بين «الهو» (مستودع الشهوات) «والأنا

الأعلى» (المعبر عن الضمير وعن المجتمع) ودخول «الأنا» كعامل منظم أو مصلح هى فكرة كما ذكرنا من قبل مبعثها غريزة واحدة هى الجنس تضاف إليها غريزة أخرى هى العدوان. وحل الصراع فى رأى المعالجين بالتحليل النفسى يقوم على استحضار المكبوتات (وكلها فى رأيهم متصلة بالجنس والعدوان) من مخزن بعيد عن متناول الفرد (اللاشعور) إلى حيز فى متناول هذا الفرد (الشعور) وهى عملية قد تستمر أربع سنوات أو تزيد وعلى مدى ساعتين أسبوعيا يستمع فيها المحلل النفسى إلى ذكريات قديمة من الطفولة ما دون الخامسة من العمر ويحاول بكل جهده أن يجعل المريض يتذكر أى شيء- أى صورة فى هذه المرحلة فى علاقاته بوالديه ثم يضفى عليها المحلل من خياله وطلاسم التحليل النفسى التفسير.

لا شك أن هذا المنطلق المتشائم حول صورة الإنسان المختزلة إلى غريزتى الجنس والعدوان قد قيدت العلاج بالتحليل النفسى وبعدت به عن القيم الدينية والأخلاقية ، وصبغت كل نظرية التحليل النفسى بالجنس والعدوان . . . نعم إن الجنس والعدوان آفتان من آفات البشرية وخاصة حين تبتعد عن منهج الدين، ولكن أليس هناك آفات أخرى تصيب الإنسان، الكفر بالله والشرك به وارتكاب الكبائر ، والفسوق، والعصيان ، بما يشتمل على عشرات من الانحرافات.

ثم أين المكونات التى تحدث عنها فرويد من «الهو» إلى «الأنا» «والأنا الأعلى» «والشعور» «وتحت الشعور» (ما قبل الشعور) «واللاشعور» ... وهل كل النمو الذى يمر به الطفل هو نمو جنسى؟ اليس هناك نمو عقلى وإدراكى وأخلاقى واجتماعى ودينى ومهنى؟

وإذن فما بنى على باطل فهو باطل، ومن يرى أن الإنسان قد عدم كل بذرة للخير فيه وأن كل تربته قد بذرت ببذور الجنس والعدوان لا شك أنه لن يرى فى المرضى وفى الأسوياء سوى هذه الشهوات ولا مكان عنده لغيرها . . . إن الصورة الباقية من نظرية فرويد فى عالمنا اليوم صورة واهية- وحتى تلك الجوانب التى

حدث بها عن الجهاز العصبى والذى كان موضوع تخصصه فى الطب قد خطأه الأطباء فيه.

وما عاد من آثار غير حكاياته (الملفقة فى صورة روائية) وتلك المفاهيم التى بثها فى الإرث السيكولوجى مثل الشعور واللا شعور والهو، والأنا، والأنا الأعلى ، والحيل الدفاعية، وكلها مفاهيم لا نعرف مكانها ولا كيف يكون الفرد عندها وما زال حولها جدل كبير.

أما المدرسة الثانية والتى انطلقت من أعمار بافلوف فى روسيا وأعمال واطسون فى الولايات المتحدة والتى عرفت بالمدرسة السلوكية، فقد بدأت تنظيرها من تجارب على الحيوانات فى المختبر وتبنت فكرة أن الإنسان هو سلوك أو مجموعة استجابات تنشأ نتيجة مثيرات تقع فى البيئة ، وأن هذا الإنسان هو كالصفحة البيضاء لا خير فيها ولا شر ولا هدف له ولا فطرة بداخله ، وإنما هو كائن فى بيئة يستقبل منها المثيرات ويستجيب لها بسلوك .

ومرة أخرى نجد أنفسنا مع مجموعة معالم تحدد لنا النظرية :

١ – التعميم من تجارب على الحيوانات إلى سلوك الإنسان.

٢ – الإنسان لا إرادة له وهو خاضع تماما للمثيرات فى البيئة من حوله.

٣ – إنه بوسعنا (كما يحدث مع حيوانات التجارب) أن نصنع ما نريده فى أى فرد أو كما ادعى واطسون فى مقولته الشهيرة «أعطنى مجموعة من الأشخاص وأنا أصنع لك منهم العالم كما أصنع منهم اللص» .

٤ – إن الإنسان خلو فى أصل فطرته من الخير كما أنه خلو من الشر وكل ما يطرأ عليه يأتى نتيجة التعلم ، أى بالاكتساب من البيئة وتبعا لقوانين الإشراط.

٥ – وفى العلاج الذى بنى على أساس من المدرسة السلوكية والذى ظهر متأخرا عن ظهور السلوكية نفسها بحوالى نصف قرن فإن المعالجين لا يفرقون بين السواء واللاسواء (الانحراف) وإن كل ما يصدر عن الفرد إنما هو سلوك وتعلم ولا نسميه إلا سلوكا.

٦ – إنه كما يحدث المرض بطريقة لا إرادية (خاضعة للبيئة) فإن السواء يمكن أن يحدث بنفس الطريقة أى من خلال التعلم فى البيئة ودون تدخل إرادى من الفرد.

٧ – لا دور للعمليات العقلية ولا للجوانب الانفعالية فى تعلم السلوك.

هكذا مرة أخرى اختزل السلوكيون الإنسان إلى آلة كما اختزله الفرويديون إلي غريزة (صورة حيوانية).

ومن هنا فإن صلاحية أساليب المدرسة السلوكية تبدو واضحة حيث يغيب دور العقل ، مع المتخلفين عقليا ، ومع الأطفال الصغار. أما نجاحها مع الكبار فقد لا يزيد عما يحدث إذا لم يكن هناك تدخل.

وهكذا مرة أخرى تسقط نظرية بعد ما ازدهرت لما يزيد على ثلاثة أرباع القرن فى تفسير التعلم وما يزيد عن ثلاثين سنة فى ممارسات العلاج.

ولقد ظهرت بعد ذلك المدرسة الثالثة وهى المدرسة الإنسانية التى أعلنت أنها ترد إلى الإنسان إنسانيته وتتعامل مع ما يتمتع به الإنسان من مشاعر، ورأت أن غاية الغايات فى حياة الإنسان هو أن يحقق ذاته

– رأى ذلك ماسلو حين وضع هرمه الشهير للحاجات ، وجعل تحقيق الذات فى قمته، ورأى ذلك روجرز حين قصر حاجات الإنسان على تلك الحاجة الوحيدة، تحقيق الذات– ورغم أن هذه المدرسة مالت إلى الخير باعتباره أساس تكوين الإنسان وأن الشر عارض له– لكنها بعدت عن الحقيقة حين جعلت هدف الإنسان الأسمى هو تحقيق ذاته!– ثم ماذا بعد تحقيق الذات؟ لا شيء سوى الحاجات الإضافية. كذلك غالت النظرية فى تفاؤلها.

أما المدرسة الرابعة وهى المدرسة المعرفية والتى مازالت وليدا لم تبد معالمه كاملة فإنها تنحو ناحية العقل وعملياته، وتعتبر أن هذه العمليات مسئولة عن السلوك ، وليس المثيرات ولا المعززات. وقد تكون هذه المدرسة قد

ارتقت بالإنسان فى سلم النظرة إليه عما سبقها من نظريات إذ قدرت للعقل أهميته، ولكن مرة أخرى أين المشاعر؟ ومرة أخرى العقل من أين وإلى أين وماذا يحكمه أو يهيمن عليه؟ وهل كل حياة الإنسان هى عمليات عقلية؟

إن هذه المنطلقات الخاطئة تجعل الأهداف التى عرضناها غير قابلة للتطبيق فى ضوء المنهج الإسلامى إذا قبلنا معها منطلقاتها التى بدأت منها ...

فالمنهج الإسلامى ينظر إلى الإنسان على أنه المخلوق المكرم الذى كرمه الله على سائر خلقه ، وخلقه بيديه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وخلق كل شيء وسخره من أجله وأرسل إليه رسله– وفى هذا يقول الإمام ابن القيم :

«فاعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه أن كرمه وفضله وشرفه. وخلقه لنفسه وخلق كل شيء له ، وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره . وسخر له ما فى سمواته وأرضه وما بينهما، حتى الملائكة الذين هم أهل قربه استخدمهم له وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته وظعنه واقامته. وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلمه منه وإليه. فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات ...» (مدارج السالكين جـ١ ص ٢٣٥) .

وينظر الإسلام للإنسان على أنه مفطور على الخير ، كما أنه يمكنه أن يتعلم الخير والشر. وفى هذا يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه:

«كل مولو د يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة جمعاء هل ترى فيها من جدعاء»

ونقرأ فى كتاب الله من الآيات ما يدل على ذلك :

﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (الروم ٣٠)

والدين القيم هو دين الإسلام . والإسلام هو الخير :

﴿ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾ (الشمس ٧-١٠)

وقد بدأت الآيات بالتسوية، والسواء هو الخير. ثم بعد ذلك قرر القرآن أن النفس لديها قبول للخير وللشر .

وفى هذا الصدد يقول الأستاذ سيد قطب :

«النفس البشرية ذات استعداد للخير والشر ، وعمل الإنسان هو الذى يرجح فيها أحد الاستعدادين . . . عمله الفردى وعمله الجماعى . . ومن ثم يتضمن منهج الحركة الإسلامية ضرورة إقامة الوسط للخير. الذى يساعد على تنمية الفضائل، ويعمل على كبح الرذائل. لأن فى هذا ضمانا لترجيح استعدادات الخير ويصبح هو المعروف. وكبح استعدادات الشر فيصبح هو المنكر» (ص ٣٦٨-مقومات التصور الإسلامى) .

إن المنهج الإسلامى يقدم لنا فى القرآن والسنة النبوية تصورا كاملا للإنسان وعلاقته بخالقه وعلاقته بالكون، وهذا التصور هو الذى يكون منطلقا للوجهة الإسلامية فى الإرشاد والعلاج النفسى ، ومن ثم يجب أن تصاغ الأهداف الخاصة بالإرشاد والعلاج النفسى على أساسه.

وفى التصور الإسلامى فإن الإنسان لا ينفصل عن حقيقة عبوديته لله خالقه ورازقه، ولا تبتعد حاجاته البدنية عن حاجاته الروحية، ولا حاجاته الدنيوية عن حاجاته الأخروية. وهو لا يتوجه بمصلحته الذاتية فقط ، وإنما توجه حركة مصالحه حركة صالح المسلمين وما شرع لهم وما أحل لهم وما حرم عليهم ، وهو الكائن المكرم والمسئول والمكلف والذى يعود إلى أصل فطرته كلما اشتد عليه موقف ويطهره الإيمان ويدنسه البعد عنه ، والذى تدور حركته سعيا إلى نوال رضا ربه سبحانه وتعالى ، والذى يتعامل مع عالم الغيب كله كما

يتعامل مع عالم الشهادة . وهذا الإنسان يسير إلى غاية وحيدة فى وجوده فوق هذه الأرض وهى عبادة الله وحده.

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات ٥٦)

وله وظيفة أساسية هى الخلافة عن الله فى هذه الأرض ..

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ (البقرة ٣٠)

وبذلك فإن التصور الإسلامى للإنسان يمكن أن يعطى المرشد والمعالج مجموعة أساسية من المبادئ والأهداف منها على سبيل المثال:

١ – مبدأ أن الإنسان مفطور على الخير وعلى الإسلام لله وأن بداخله حاجة أساسية لعبادة الله.

٢ – إن الإنسان لديه استعداد لكل من الخير والشر ، وأنه يمكن مساعدته على البناء الخير، والدين أول الأسس التى يقوم عليها هذا البناء وتأتى عقيدة التوحيد ركيزة أولى يقوم عليها هذا الأساس.

٣ – أن الغاية الأولى والوحيدة لحياة الإنسان هى عبادة الله ، والوظيفة التى تساعده على تحقيق هذه الغاية هى القيام بواجب الخلافة فى الأرض وعمارتها.

٤ – تتكامل حياة الإنسان فى حركتها نحو إشباع المطالب الدنيوية والمطالب الأخروية.

وبذلك فإن أى هدف يعمل المرشد على تحقيقه ينبغى أن تراعى فيه هذه الجوانب الأساسية ، فالمعنى الأساسى لحياة الإنسان هو العبودية لله، ومخاطبة هذا الإنسان تعتمد على وجود جانب فطرى من خالقه جل وعلا.

﴿وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ (الإسراء ٦٧)

﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما﴾ (يونس ١٢)

فإذا ما سعى المرشد إلى حل صراع داخل المسترشد أو المريض فإنه يدرك

أن الصراع هو بين الخير والشر وأن الانسان عندما يتمكن الإيمان من قلبه يصبح قادرا على مغالبة الشر وهزيمة الشيطان.

﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ (الحجر ٤٢)

﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم﴾ (يس ٦٠-٦١)

وإذا ما كان هدفه أن يزيد من مستوى وعى المسترشد، فإن آيات الله فى الكون كثيرة وآلاءه عديدة ونعمه لا تحصى وهذه أول ما يمكن أن يساعد المرشد بها المسترشد على أن يزيد انتباهه ووعيه وخاصة فى ربطها بذات المسترشد.

﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب* الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾ (آل عمران ١٩٠-١٩١)

وإذا ما رأى أن من أهدافه مساعدة المسترشد على تنمية المسئولية لديه فالبداية من الدين، من مسئولية الفطرة ومسئولية العقيدة بكل أركانها ثم مسئولية العبادات والمعاملات التى تشمل كل جانب من جوانب الحياة، أليست قمة المسئولية أن يدرك الفرد أن هناك عهدا قطعه على نفسه أمام ربه سبحانه وتعالى وهو فى علم الغيب أن يقر لله وحده بالربوبية؟

﴿وإذ أخذ ربك بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك أباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ (الأعراف ١٧٢-١٧٤)

إن المسئولية فى الإسلام تمتد إلى جانب من مسئولية أمام الله ومسئولية عن النفس وأمامها ومسئولية أمام المجتمع، والله سبحانه وتعالى يحاسب

ويقضى ويحكم، والنفس تحاسب فى إطار شرع الله وتتذكر وتستغفر وتتوب، والمجتمع يحاسب بما شرع الله ويحكم ويقضى بما أمر الله وأنزل.

وإذا ما وجد المرشد أن المسترشد يفتقد إلى المسئولية فى أمور الدنيا فإن هذه التدريبات المتتابعة من العقيدة إلى الشريعة لتساعده على إدراك مسئوليته عن كل عمل يعمله لأن الأعمال تتكامل فى حياة الإنسان فى سبيل توصيله إلى الغاية والقيام بالوظيفة. والتخلى عن المسئولية فى العقيدة هو قمة التحلل من المسئولية، والالتزام الدينى هو قمة ما يساعد على تنمية المسئولية.

واذا ما تبين للمرشد أن المسترشد يفتقد إلى عنصر الأمن النفسى، فإن أفضل ما يبعث الثقة والطمأنينة والأمن والقوة فيه، هو الإيمان: الإيمان بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ وما تشتمل عليه من أركان.

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ (الأنعام ٨٢)

واللجوء إلى الله سبحانه، والاستعانه به، والتوكل عليه، والاستغراق فى العبادات، والدعاء، كلها جوانب تساعد على اكتساب الأمن وطرد الخوف– الخوف فى الدنيا أو الخوف فى الآخرة.

﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله. ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (الرعد ٢٨)

﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾ (الأنفال ٤٥)

﴿إن الذين قالوا ربنا ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (الأحقاب ١٣)

واذا ما نشِّئ الطفل على أن يكون الإيمان بالله هو مبعث الأمن لديه فإن كثيرا من الصفات الحميدة سترافق صفة الأمن ، ومنها الثقة بالنفس ومنها الصدق ومنها الدعوة للخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وإذا ما أراد المرشد أن يغير سلوك المسترشد فسيجد من جوانب الثواب وجوانب العقاب ما يساعده على ذلك، وتتعدد الأساليب بدءا من ثواب الآخرة وعقابها . . . جنة عرضها السموات والأرض، ونار وقودها الناس والحجارة ،

حتى تصل إلى جوانب دنيوية: إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض .. وتبسمك فى وجه أخيك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة . وهذه وغيرها كثير كثير مما ورد فى الكتاب والسنة. وإذا ما لجأ إلى أسلوب النماذج السلوكية ليساعد المسترشد على اكتساب سلوك مرغوب أو الإقلاع عن سلوك مذموم، فالقرآن والسنة، مصدران غنيان بالنماذج يعرضها القرآن وتعرضها السنة النبوية فى أساليب متنوعة كالقصص، والأمثال، والمشاهد، والصفات، وما يرتبط بكل سلوك تحتويه من نتائج فى صورة ثواب أو عقاب، وهكذا كلما ظن المرشد أو المعالج أن هناك هدفا يصلح للمسترشد أو المريض الذى يعمل معه فإن عليه أن يبدأ بهذا الهدف من منطلق إسلامى حتى يكون السير الى تحقيقه بدءا من نقطة صحيحة وانطلاقا أيضا إلى غاية صحيحة.

٢ - اختلاف الأصول التى تشتق منها الأهداف والقيم التى تقوم عليها:

إذا كانت المنطلقات التى أقام عليها المنظرون الغربيون نظرياتهم فى الإرشاد والعلاج النفسى قد عرضوها فى صورة افتراضات أو مسلمات تصوروها هم أنفسهم أو نقلوها عن فلاسفة أو عن شعراء، فإن الاصول التى اشتقت منها الأهداف تختلف عن ذلك قليلا فى أنه دخل إليها عنصر المعرفة فى صورة ملاحظات أو احتكاكات مع المرضى أو من تجارب (معظمها على حيوانات التجارب فى المختبرات) . وعلى حين يدعى البعض أنهم يتبعون المنهج العلمى فى الوصول إلى النظريات فإن الواقع لا يؤيد هذا القول. فأولى النظريات وهى نظرية التحليل النفسى وما تولد عنها أو بجوارها من نظريات حذت حذوها قامت على أفكار أو تصورات ومفاهيم ليس لها فى عالم الواقع مقابل يمكن لمسه أو تحديده أو قياسه. ومنها مفاهيم مثل اللاشعور ومثل الهو- كما أنها كانت موجهة بفكرة مسبقة مستقاة من الأدب الإغريقى (مثل عقدة أوديب أو عقدة إلكترا) وبذلك تلوى الظواهر لتصل إلى ما وضع من قبل من تصورات - إن نظرية

التحليل النفسى لم تقم على مصادر مقبولة للمعرفة ، وإنما هى أفكار مريضة نشأت فى خيال شخص مريض فمضى يكتب بإسهاب حولها ويفسر كل شىء من حوله فى إطارها، ولقد ضل وأضل كثيرا ممن ساروا فى ركبه.

أما ثانية النظريات وهى السلوكية والتى تشتمل على معظم نظريات التعلم فقد قامت على أساس تجارب مختبرية على حيوانات كالكلاب والقطط والفئران والحمائم!! ثم بدأ تعميمها على الإنسان. وشتان ما بين الإنسان والحيوان سواء فى التكوين أم فى السلوك أم فى المكانة. وحين يذم القرآن قوما غفلوا عن الإيمان يقول:

﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ (الفرقان٤٤)

ولقد اختزلت السلوكية الإنسان إلى ما يشبه الآلة ومحت عنه الإرادة والاختيار وهى نعم ميز الله بها الإنسان، وتغافلت عن أصل فطرته وجعلته عبدا للبيئة تفعل به ما تشاء بدلا من أن يكون عبدا لله قائما على عبادته بطاعته وباختياره وبما أودع فيه فى أصل فطرته.

وأما المدرسة الإنسانية فقد أوجدت للإنسان غاية فى داخله، كما لو كان الإنسان قد خلق لذاته، فجعلوا تحقيق الذات أسمى الأهداف وقمة الحاجات التى يسعى لتحقيقها. وفى ابتعاد عن الحقيقة الإسلامية التى تقوم على أن الإنسان مخلوق لعبادة الله والخلافة فى الأرض .

وجاءت المدرسة المعرفية لتركز على العمليات العقلية، وما يفكر فيه الإنسان، ولكنها أيضا جاءت مبتورة فمآل العمليات العقلية مجال دنيوى محدود يتعامل مع جوانب مادية بحتة ويستمد بناءه من البيئة ويصوِّب أو يخطِّأ فى ضوء معايير الثقافة التى يتعامل فيها المرشد وليس فى ضوء معايير الهداية الإلهية. وبذلك تختلف هذه المنطلقات العقلية من وقت إلى وقت ومن مكان إلى مكان. فى الوقت الذى ينظر الإسلام فيه إلى الكون كوحدة، ومع وجود الاختلافات فى المعطيات فإنه لا خلاف على الغاية والوظيفة.

وهكذا لو نظرنا إلى باقى النظريات نجد أنها تناولت بالملاحظة (وهى أقصى مصادر المعرفة التى اتبعها المنظرون، وهى ملاحظة قاصرة لأن من قاموا بها لديهم نواقص كثيرة فى مقدمتها نقص وفساد العقيدة الدينية) نقول إن باقى النظريات تناولت بالملاحظة جوانب محدودة تحكمها منطلقات مشوهة، وتبرزها بيئة يعتورها كثير من الضلال، ويسبقها فى التسلسل أفكار ونظريات خربة يقوم على تقويمها وعلى قبولها (أو كما يستخدم الغربيون على ترويجها) أناس لا ترقى قيمهم إلى ما يصوره الإسلام حول الإنسان والكون. ومن هنا كانت نتائجها موقوتة وفى بعض الأحيان لا تختلف عما لو تركنا المسترشد أو المريض دون مساعدة تذكر (أيزينيك ١٩٦٠) .

أما الأصول الإسلامية التى يمكن للمرشد أو المعالج أن يبنى عليها عمله فهى أعمق من ذلك وأقوم، وهى مستمدة من مصدر الحقيقة، من القرآن الكريم، الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)

ومن هذه الأصول يستمد المرشد القواعد الأساسية التى توجه عمله مع إنسان مثله صادفته مشكلة عطلت مسيرة حياته أو اضطربت عليه نفسه فضاقت به وضاق بها واحتاج إلى من يساعده على أن يعود للحياة بصورة أفضل.

وفى ضوء المنهج الإسلامى سوف تختلف المفاهيم - فكما رأينا صورة الإنسان فى الإسلام تختلف عما يراه أصحاب النظريات، فإن بناءه ونموه لابد أن يختلفا . فالدوافع فى نظر الإسلام لا تقف عند الدوافع المادية والمعنوية التى اعتاد الباحثون فى علم النفس أن يحددوها، وإنما تتجاوزها إلى الدوافع الروحية وانطلاقا إلى الدافع الأشمل الذى يتحرك مع المسلم فى كل نفس يتنفسه وفى كل نبضة من نبضات قلبه، عبادة الله.

﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾ (آل عمران ١٩١)

أليست هذه هى حركات الإنسان الظاهرة : الوقوف ، القعود ، الرقاد.

﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد فى السموات والأرض وعشياوحين تظهرون * يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض من بعد موتها وكذلك تخرجون﴾ (الروم ١٧-١٩)

أليست هذه أيضا هى مواطن الحركة الزمانية والمكانية فى حياته. بل وفيها إشارة إلى أطوار الحياة والموت والبعث.

﴿تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾ (الملك ١-٢)

﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ (الأنعام ٦٠)

ومع ما سبق أن ذكرناه حول غاية خلق الإنسان (عبادة الله وحده) ووظيفته(الخلافة فى الأرض وعمارتها) يمكن أ ن نرى أن المرشد والمعالج لا يمكن أن يفصل واقع الدنيا عن الدين، ولأن الدين هو النبراس الذى حدده الله للإنسان فإنه لابد أن يكون منطلق المرشد فى عمله.

﴿إن الدين عند الله الاسلام﴾ (آل عمران ١٩)

﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين﴾ (فصلت ٣٣)

إن دائرة العمل التى يحددها المرشدون والمعالجون النفسيون لعملهم دائرة تدخل فيها مجموعة من الاضطرابات النفسية ذات المنشأ النفسى (وتعرف أحيانا بالأمراض العصابية أو أمراض القلق) وذلك تمييزا لها عن الأمراض ذات المنشأ العضوى والتى تعتمد إلى حد كبير على إجراءات طبية مثل العلاج بالأدوية والصدمات الكهربية وغيرها. وكذلك يدخل فى مجال الإرشاد والعلاج مجموعة الاضطرابات الخلقية واضطرابات الشخصية.

ولو نظرنا إلى هذه الأمراض كما ينظر لها أصحاب النظريات الغربية لوجدناها تنشأ من مجموعة عوامل (من وجهة نظرهم) مثل كبت الرغبات

الجنسية غير المقبولة، والحوادث والملمات التى تحدث للفرد وتعلم الخوف من نماذج سيئة أو الانشغالات بالماضى والمستقبل وتكوين صورة سالبة للذات وعدم القدرة على تحقيق رضاء الآخرين، وانعدام المعنى ووجود ما أسموه القلق الوجودى، ووجود أفكار غير منطقية اكتسبها الفرد من بيئته، وتعلم خاطئ نتيجة لمثيرات معينة فى البيئة، ونقص الوعى، ونقص المسئولية، والاندماج مع أشخاص لهم هوية فشل، وانعدام الأمن .

هذه كلها رغم ما يبدو فى بعضها من أنه يصلح كتشخيص إسلامى للاضطراب، تبعد كثيرا عن ذلك لأنها لم تبن على أساس إسلامى، بل لم تراع الجوانب الأساسية فى فطرة الإنسان مثل حاجته لخالقه سبحانه وتعالى وحاجته للدين، واعتبار البعد عن الدين كعامل هام فى حدوث المرض ، وأساسيات الدين كجوانب أساسية فى العلاج .

إن المرشد أو المعالج المسلم يمكن أن يلمس الجوانب الآتية :

١ - إن الدين ركن أساسى يجب الاهتمام به تماما عند النظر للمشكلات والاضطرابات النفسية.

٢ - أن ما قدمه المنظرون فى الغرب قد تحدد بحدود مادية ودنيوية مما جعله يأتى مبتورا ولا يحقق المنشود منه.

٣ - إن الجانب الدينى يجب أن يكون هو المنطلق فى العلاج ، وكما رأينا عند مناقشة الأهداف فإن الأهداف جاءت أحيانا مشوهة أو مبتورة وفى حالات أخرى قد تتنافى مع الأصول الإسلامية .

وبذلك فإن الأمراض والمشكلات التى يتعامل معها المرشدون والتى عرضنا لبعضها، يمكن أن ننظر لها من معايير دينية ودون أن نستبعد الجوانب البيئية الواقعية فى حياة الفرد.

فالصراع بين الخير والشر هو الصراع الذى يراه المرشد المسلم وليس

صراع الشعور واللاشعور والمكبوتات الجنسية وقيم المجتمع ، والصراع بين الخير والشر لن يستمر لفترة طويلة ولن يكون مؤثرا إلا إذا كان الشخص نفسه ضعيف الإيمان لم يقو إيمانه إلى الحد الذى يستطيع معه أن يطرد الشر ويقاوم نزغات الشيطان... والشخص الذى نمّى فى داخله القلق والمخاوف هو أيضا شخص لم يربَّ على قوة الإيمان ، وإسلام الوجه لله والاطمئنان فى جانبه ، شخص مستهدف لضغوط فى البيئة أو لضغوط من داخل نفسه تجعله ينشغل بما لا يشغل ويخاف مما لا يُخيف – فهو شخص ضعيف عاجز لم يسمع حديث الرسول الذى ورد فيه أن المؤمن القوى خير وأحب عند الله من المؤمن الضعيف ... وهكذا يمكن القول بأن باقى المشكلات النفسية تتداعى أمام التشخيص الإسلامى – الاكتئاب الاستجابى رد فعل عنيف لأمر قد يحزن ، والإسلام لا يرى بأسا من الحزن ولكن ليس لدرجة الاكتئاب ، فالاكتئاب يتنافى مع الإيمان بالقدر خيره وشره – وأنه (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) وصفات الإيمان (والصابرين على ما أصابهم).

وسوء الخلق واضطرابه كلها أساسها البعد عن الدين وعن طاعة الله وخشيته. وفيها العدوان والظلم حتى يصل إلى ظلم النفس وتعاطى المخدرات والمسكرات ثم الجريمة والانحرافات الجنسية ، وكذلك الكذب والغش والاندفاعية والغضب والكراهية والحقد والحسد وغيرها ، سواء عادت إلى نقص الوعى أو تأثير الآخرين أو انعدام المسئولية فإن هذه الجوانب كلها تنمو وتظهر حيث يبعد الفرد عن المنهج الإسلامى

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون * لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون﴾ (الحشر ١٨ – ٢٠)

٣ – اختلاف الأساليب الموصلة للأهداف :

إن جانب الأساليب الموصلة للأهداف يتعامل أساسا مع الطرق التى يستخدمها المرشد أو المعالج فى عمله وهى فى النظريات الغربية طرق تعتمد

أساسا على وجهة نظر صاحب النظرية فمن يرى أن الأفكار الخاطئة هى سبب المشكلات يقيم طريقة عمله على أساس إبراز هذا الخطأ وتصحيح هذه الأفكار، والذى يرى ان غياب المعنى هو السبب يقيم علاجه على أساس من مساعدة الفرد على تكوين معنى (زائف أو سطحى طبعاً) لحياته. ومن افترض أن المشكلة ترجع إلى انعدام الأمن، يحاول أن يوفر هو من خلال علاقته الإرشادية الأمن للمسترشد.

ولكن ما نهاية هذه الطرائق؟ ما نهاية الأمن الذى يتيحه المرشد؟ إنه مجرد أمن موقفى قد يفيد فى الموقف الذى يقف فيه الشخص لكنه لا يفيده فيما وراء ذلك ؛ لأن الأمن الحقيقى يجب أن يكون مبعثه الإيمان ، وأما الأمن الذى يعطيه المرشد من خلال الرفق والترفق على المسترشد فهو خطوة تساعد على تفهم المسترشد للمرشد وتفهم المرشد للمسترشد، إنه أقرب أن يكون خطوة على طريق تربط بين معلم ومتعلم ليقبل المتعلم عن هذا المعلم لكنها ليست هدفا، فالهدف هو الأمن والأمن يأتى مع الإيمان.

إذن فطرق الإرشاد والعلاج التى قامت إنما هى أيضا طرق محدودة بالمواقف، ومحدودة بالحدود المادية للإنسان. فأين ما وراء هذا الموقف أين الجانب الروحى، أين القوة التى استثرناها فى الإنسان ودفعناها للنمو والتقوية ليصبح المنطلق الإرشادى هو المنطلق الإيمانى الذى اطمأنت به وإليه نفس المسترشد ؟.

إن أى طريقة يقدمها المرشد فى العلاج لابد لها أن تأخذ المنهج الإسلامى فى اعتبارها الأول ثم تتدرج بالفرد بعد أن يتعرف على هذا الجانب ليغير ويعدل من حياته فى حراسة هذا المنهج . . وكل ما يفعله الفرد فى إطار هذا المنهج محدود بإطار ما يرضى الله سبحانه وتعالى عنه، وهو إطار عظيم إذا وضعه الفرد نصب عينيه فى صحته وفى مرضه – ولو اتبعنا هذا المنهج أساسا فى حياتنا وفى إرشادنا (فى المستوى الإنمائى أولا) لكان عملنا ناجحا حيث تقل المشكلات ...

وقبل أن أختم هذه المناقشة أقول : إن الباحث المدقق لن يجد تفسيرا لانخفاض معدلات الإصابة بالأمراض النفسية فى المجتمعات الإسلامية عنها فى المجتمعات الغربية سوى أن قيامهم على الوفاء بمطالب الدين الإسلامى هو خير بناء وهو خير وقاية فإن تخلف القليل عن الركب فالإسلام أيضا هو خير علاج للفرد وللجماعة بل وللبشرية جمعاء.

مرة أخرى نعود إلى موضوع هذه الورقة، أهداف الإرشاد والعلاج النفسى وكيف ننظر لها إسلاميا.

أقول إنه تأسيسا على هذه المناقشة فإنى أرى أن الأهداف الآتية تصبح أهدافا يعمل المرشد أو المعالج على تحقيقها فى عمله فى ضوء المنهج الإسلامى:-

١ – تصحيح مفهوم وجوانب العقيدة لدى المسترشد.

٢ – تقوية جوانب الإيمان لدى المسترشد.

٣ – تقوية جوانب الشريعة لدى المسترشد.

٤ – مساعدة المسترشد على تغليب جانب الخير ومحاربة الشيطان وتزكية النفس.

٥ – مساعدة المسترشد على تنمية جوانب المسئولية.

٦ – مساعدة المسترشد على ملامسة الواقع والانتباه إلى ما فى الكون من آيات.

٧ – تعريف المسترشد بأن غاية خلقه هى عبادة الله سبحانه وتعالى والاطمئنان إلى تفهمه لهذا المعنى وأن عليه أن يقوم على عمارة الأرض وواجب الخلافة.

٨ – مساعدة المسترشد على اكتساب الطمأنينة من خلال الإيمان والتقرب إلى الله.

٩ – مساعدة المسترشد على الاندماج مع أشخاص يعرف عنهم حسن إسلامهم .

١٠– مساعدة المسترشد على معايشة الحاضر وبذل ما فى وسعه لإرضاء ربه، وعدم الأسى على ما مضى والاستغفار والتوبة عما كان فيه، وعدم

الانشغال بما هو كائن فى علم الغيب. وعدم استخدام «لو» التى تفتح عمل الشيطان.

١١- تعليم المسترشد كيفية ملامسة الواقع، وجمع المعلومات، ومواجهة المواقف، واتخاذ القرارات.

١٢- مساعدة المسترشد على تنمية قوة الإرادة لديه.

١٣- مساعدة المسترشد على التعامل مع الواقع واتخاذ الاجراءات التى تساعده على تخطى المشكلات والعقبات.

١٤- تعريف المسترشد بالصفات الطيبة والعادات الحميدة بما يعود عليه بالخير فى شئون دينه ودنياه والقائمة على أساس الإسلام (صفات المؤمنين).

١٥- مساعدة المسترشدين على تصحيح أفكارهم الخاطئة التى تتنافى مع الإسلام.

١٦- الوصول بالمسترشد إلى نقطة التوازن بين الإفراط والتفريط - نقطة الوسطية.

١٧- مساعدة المسترشد على أن يكون مخلصا لله فى كل عمل يعمله وأن يستمد القبول والرضا أساسا من الله.

١٨- مساعدة المسترشدين على تحقيق مكارم الأخلاق من خلال المنهج الإسلامى.

١٩- مساعدة المسترشدين على طاعة الله ورسوله وأولى الأمر ومن بينهم الآباء والمدرسون.

٢٠- مساعدة المسترشدين على الاستفادة بكل ما أنعم الله عليهم من قدرات وإمكانيات واستغلالها أفضل استغلال.

٢١- مساعدة المسترشد على تغيير البيئة المحيطة به وزيادة فاعليته فى هذه البيئة فى وجهة الخير وفى إطار الشرع.

هذه بعض الأهداف التى يمكن للمرشد أن يحددها لعمله الإرشادى، وهى أهداف تحوطها طاعة الله، والدعوة للخير، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والإقبال على ما يقرب العبد من ربه والبعد عما يورده مورد التهلكة، وفى إطار هذه الأهداف يضع المرشد الأهداف العملية (أو السلوكية) لكل مسترشد على حدة والتى قد تتباين تباينا كبيرا بين علاج المجرمين إلى علاج المدمنين إلى تعليم الطالب عادات الاستذكار أو مساعدة على الإقلاع عن التدخين، فما دمنا نعمل فى إطار غاية عامة وهى تعميق إيمان الفرد فإن كل الأهداف يمكن أن تصبح أهدافا قابلة للتطبيق فى ضوء المنهج الإسلامى وباعتبار ما يأمر به وما ينهى عنه.

خاتمة

حاولت هذه الدراسة التقويمية التحليلية التعرف على أهداف الإرشاد كما تحددها مجموعة النظريات الأساسية فى مجال الإرشاد والعلاج النفسى مثل نظرية التحليل النفسى والعلاج العقلانى الانفعالى، والعلاج السلوكى، والعلاج المتمركز حول الشخص، والعلاج الجشطلتى، والعلاج بالمعنى، والعلاج المعرفى، وقد تعرفنا على الأهداف التى تحددها هذه النظريات مثل حل الصراع، وزيادة الوعى، وزيادة المسئولية، ومعنى الحياة، وتغيير السلوك، وزيادة الأمن وغيرها ومدى قربها أو بعدها عما يصوره المنهج الإسلامى لحياة الإنسان، ورأينا أنه حتى فى حالة وجود تشابه فى المسميات مع ما يمكن أن يسعى إليه المربى والمرشد والمعالج أن يحققوه فى ضوء المنهج الإسلامى إلا أنها تبتعد من حيث المنطلقات التى انطلقت منها والأسس التى قامت عليها والأساليب التى توصل إليها. وقد عرضنا فى أثناء التقويم لما يمكن أن يكون عليه الهدف من الناحية الإسلامية ، وبيان مدى القوة التى يتميز بها الإسلام فى هذا الجانب. وقد انتهت الدراسة بمناقشة أسباب بعد هذه الأهداف عن المنهج الإسلامى وحاجتها للتعديل قبل الاستخدام من وجهة نظر الباحث ، كما انتهت كذلك إلى تحديد قائمة

من الأهداف التى يسعى المرشد أو المعالج النفسى إلى تحقيقها فى العمل مع المسترشدين أو المرضى. وتلفت هذه الدراسة الأنظار إلى مدى الحاجة إلى نموذج (أو نماذج) تقوم على أسس المنهج الإسلامى ليعمل فى ظلها المرشدون والمعالجون النفسيون، وتتسم بالشمول، وبذلك يمكن تحديد الأهداف التى يسعى إليها المرشد مرتبة حسب أهميتها. وتفيد الدراسة الحالية المرشدين النفسيين والمعالجين فى التعرف على الأهداف التى تعرضها النظريات الغربية وما يشوبها من مشكلات تجعلها بعيدة عن المنهج الإسلامى. وكيف يمكن للمرشد وللمعالج أن يستفيدا من المنهج الإسلامى فى تحقيق أهداف أكثر أهمية فى حياة من يعملون معهم من البشر.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به طلاب العلم والمشتغلين بالإرشاد والعلاج النفسى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المراجع

أولا : العربية :

أبو عبد الله بن قيم الجوزية: «الروح لابن القيم» فى الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء– بيروت دار الكتب العلمية د ت

أبو عبد الله بن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (جزءان) بيروت : دار المعرفة د . ت

أبو عبد الله بن قيم الجوزية: مدارج السالكين: بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين القاهرة: دار الحديث د. ت.

أمير عبد العزيز: الإنسان فى الإسلام عمان: دار الفرقان ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م

تقى الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية: العبودية – بيروت : المكتب الإسلامى (ط ٥) ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

جير الدكورى: الإرشاد والعلاج النفسى بين النظرية والتطبيق، ترجمة طالب خفاجي. مكة المكرمة: الفيصلية للنشر ١٤٠٥هـ/١٩٨٩م

جعفر شيخ إدريس: التصور الإسلامى للإنسان: أساس الفلسفة الإسلامية التربوية، مجلة المسلم المعاصر. عدد ١٢-١٩٧٧م/ص ٦١-٨٠

جورج جازوا وريموند كورسينى، ترجمة على حسين حجاج: نظريات التعلم، دراسة مقارنة، ج٢٢ الكويت عالم المعرفة (ع. ٧) أكتوبر ١٩٨٣.

حامد عبد السلام زهران: التوجيه والإرشاد النفسى (ط ٢) القاهرة، عالم الكتب ١٩٧٨ .

حامد عبد السلام زهران: الصحة النفسية والعلاج النفسى: (ط ٢) القاهرة، عالم الكتب ١٩٧٨.

سيد أحمد عثمان: المسئولية الاجتماعية والشخصية المسلمة: دراسة نفسية تربوية- القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٨٦.

سيد غنيم: سيكولوجية الشخصية- القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٧٨

سيد قطب: التصوير الفنى فى القرآن (-١١) القاهرة، دار الشروق ١٤٠٩هـ

سيد قطب: خصائص التصور الإسلامى ومقوماته (ط ٨) القاهرة دار الشروق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

سيد قطب: مقومات التصور الإسلامى (ط ٤) دار الشروق القاهرة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

ريتشارد سوين: علم الأمراض النفسية والعقلية- ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة، القاهرة. دار النهضة العربية ١٩٧٩.

عطوف محمود ياسين: قضايا نقدية فى علم النفس- بيروت، مؤسسة نوفل ١٩٨١.

محمد عبد الظاهر الطيب: تيارات جديدة فى العلاج النفسى، القاهرة، دار المعارف ١٩٨١م.

محمد الغزالي: خلق المسلم (ط ٢) دمشق: دار القلم ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

محمد قطب: دراسات فى النفس الإنسانية، القاهرة، دار الشروق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

محمد محروس الشناوى: الإرشاد النفسى من منظور إسلامى، ندوة حول علم نفس إسلامى، القاهرة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

محمد محروس الشناوى: أنموذج تهذيب الأخلاق عند الغزالي ومقارنته بأنموذج العلاج السلوكى الحديث، مجلة رسالة الخليج ع (٢٢) ١٤٠٧هـ/١٩٨٧ص ص ١٣٤-١٥٢.

محمد محروس الشناوى: الإسلام والصحة النفسية فى: مقالات فى السلوك، إصدار دار الثقافة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ومستشفى الصحة النفسية يالرياض ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

محمد محروس الشناوى: العلاج النفسى عند أدلر، مذكرة غير منشورة يالرياض ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

محمد محروس الشناوى: العلاج السلوكى، مذكرة غير منشورة بالرياض ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

محمد محروس الشناوى: العلاج بالواقع، مذكرة غير منشورة بالرياض ١٤١١هـ/١٩٩١م.

محمد محروس الشناوى: العلاج الجشطلتى، مذكرة غير منشورة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

محمد محروس الشناوى: العلاج العقلانى الانفعالى، مذكرة غير منشورة الرياض ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

محمد محروس الشناوى: العلاج المتمركز حول الشخص، مذكرة غير منشورة الرياض ١٤١١هـ/١٩٩١م.

محمد محروس الشناوى وعلى السيد خضر: الاكتئاب وعلاقته بالشعور بالوحدة، المؤتمر الرابع لعلم النفس- القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

محيى الدين بن زكريا بن شرف النووى: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، تحقيق عبد الله أبو زينة يحيى، الكويت: وكالة المطبوعات د . ت.

يوسف القرضاوى: الإيمان والحياة (ط ٧) القاهرة: مكتبة وهبة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

ثانيا : المراجع الأجنبية :

Bandura . A (1977) Social learning theory
Englewood Cliffs, N.J : Prentice-Hall
Berne, E . (1961) Transactional Analysis in Psychotherapy
New York : Grove Press
Ellis, A . (1962) Reason and Emotion in psychotherapy
NeW yo rk: L Yle Stuart
Freud, S . (1964) An Outline of Psychonalsisy .1938 Standared
Edition. (vol. 23) london: Hogarth Press
Frankle V . E . (1963) Man's Search for meaning
New York; : Pocket Books.
Glasser, W. (1957) Reality therapy: A new approach to psy-
chiatry. new york : Harper& Row.
GoBle, F. G . (1971) The Third force: The Psy chology of
ABraham Maslow. New York : Pocket Books
Griffin, D . R (Ed) (1982) Animal mind- Human mind
Berlin : Springer
Gurman, A. S .& Kniskern, D . P. (Eds) (1981) Handbook of
Family Thirapy: New York: Brunner/ Mazal.

Hart. H . L . A .(1968) Punishment and Responsibility:
Essays in The Philosophy of Law . Oxford: Clarendon
Parloff, M . (1976) Shopping for The Right . Saturday Reviow.
Patteerson, c. ll (1986) Theories of ounseling and Psychotherapy
(4 th .ed) New york: Harper & Row.
Perls, F . S (1969) Gestalt Therapy Verbatim
Lafayette, Calif: Real People Press.
Rogers. C . R .(1951) Client centered Therapy: Its current
Practice, Implications and theory.
Boston: Houghton Mifflin.
Rogers, C . R (1961) On Becoming a person: A therapist's
View of Psychotherapy. Boston : Houghton Mifflin
Vitz, P . C .(1990) The use of Stories in MoralDevelopment
New Psychological Reasons for an Old Education
A Method . American Psychologist. 45, 6, 709- 720.
Wolpe, J . (1971) Dealing With Resistance to Thought
Stoppage : Transcript.
Journal of Behavior therapy and Experimental Psychiatry.
2, 121- 125.



البحث الرابع

نحو نموذج إسلامى للإرشاد والعلاج النفسى
«دراسة نقدية لنظريات الإرشاد والعلاج النفسى الغربية»

* يمثل هذا البحث الفصل السادس عشر فى كتاب نظريات الإرشاد والعلاج النفسى - الطبعة الأولى، القاهرة، دار غريب ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



نحو نموذج إسلامى للإرشاد والعلاج النفسى
«دراسة نقدية لنظريات الإرشاد والعلاج النفسى الغربية»

فى عالم اليوم فإن المرشدين والمعالجين النفسيين يستندون في عملهم إلى مجموعة من النظريات التى ذاع صيتها فى الغرب فى مجال الإرشاد والعلاج النفسى، والتى نقل الكثير منها إلى عالمنا الإسلامى والعربى على وجه الخصوص، ووجدت صدى فى نفوس ناقليها فراحوا يلقنونها لطلابهم دون تمحيص أو نقد ودون التفات إلى ما تحويه من جوانب لا تتفق مع الدين أو الخلق أو مع التكوين الحضارى لمجتمعاتنا الذى قام على نسيج قوى من المنهج الإسلامى.

لكن الموقف يدعونا إلى التعرف على كنه هذه النظريات، التى استند بعضها فى منطلقاته إلى فلسفات وضعية أو أفكار روائية تبناها الأدب الإغريقى ونسج حولها المنظرون نظريات فى النفس وفى معالجة ما يعترى هذه النفس البشرية من مشكلات. يدعونا إلى ذلك إسلامنا وتدعونا إلى ذلك حضارتنا ولها خصوصيتها. وكما قلت فهى نسيج قوامه ومادته، وسداه ولحمته، الإسلام ومنهجه ..

وسوف أقتصر فى هذه العجالة على مناقشة العموميات ، وربما أعود بعدها بمشيئة الله إلى مناقشة الخصوصية الخاصة بكل نظرية على حدة فى مؤلف خاص عن النموذج الإسلامى للإرشاد.

١- النظرة للإنسان :

لقد تباينت نظريات الإرشاد والعلاج النفسى[١] تباينا كبيرا فى نظرتها للإنسان بين مغال فى بنية الشر عند الإنسان إلى مغال فى خيرية الإنسان، بينما رأى آخرون أن الإنسان يجمع بين الخير والشر وبين العقلانية وانعدام العقلانية، واعتقد آخرون أن الإنسان لا يحتوى فى جبلته على خير أو شر وإنما هو ذو طبيعة محايدة .

والموقف الأول وهو أن الإنسان يقوم فى حياته وينطلق من جوانب ترتبط بالشر، تبناه سيجموند فرويد فى التحليل النفسى حيث يرى أن سلوك البشر حتى الذى نراه على أنه خير إنما يمثل حيلا يدافع بها الإنسان عن بواعث الشر فى داخله، والتى تنطلق بها رغباته الجنسية(المحرمة) فيحل مكانها سلوكيات يرضى عنها المجتمع- كما يرى فرويد أن النمو الجنسى يبدأ منذ الطفولة المبكرة، وأن الصحة النفسية ترتبط بتحقيق الرغبات الجنسية، وأن تكبيل هذه الرغبات فى كبتها فى اللاشعور هو الذى يضع أساس الاضطراب النفسى .. وكما اتضح لنا من قبل عند الحديث عن التحليل النفسى- فإن فرويد قد هبط بالإنسان بل واختزله إلى مدارج البهائم والعياذ بالله . ولم يخلف لنا سوى أفكار مريضة انبعثت من خياله المريض ، ومع تعامله مع المرضى ، وتلقفها مرضى مثله حبكوا حولها نسيجا يصور للبعض أنه نسيج قوى، وما لبث العالم أن استفاق على حقيقة أن هذا النسيج إنما هو بيت العنكبوت ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ (العنكبوت ٤١)

وأما الموقف الثانى الذى نظر أصحابه إلى الإنسان من خلاله على أنه موجه بالخير وأن الشر أمر طارئ عليه فقد نادت به المدرسة الإنسانية التى يأتى كارل روجرز وإبراهام ماسلو فى مقدمة بُناتها، فإنها قد تبدو أكثر إيجابية من

---

(١) لتفصيل حول هذه النظريات انظر للمؤلف : نظريات الإرشاد والعلاج النفسى القاهرة دار غريب ١٩٩٤

سابقتها، لكن المتمعن مثلا فى واحدة منها وهى نظرية روجرز للعلاج المتمركز حول الشخص ما يلبث أن يتضح له أنه مرة أخرى أمام فكر لا يجاوز ما كتب به من أحبار، فخيرية الإنسان التى يراها روجرز هى تصور شخصى لا ينطلق من مصدر معرفى، فإذا ما برر وجود الشر فى الإنسان أبدى أن ذلك من عمل المجتمع ممثلا فى معارضات من لهم أهمية فى حياة الفرد وخاصة فى طفولته، وأن المرء لو ترك لكيانه العضوى الذاتى فإن حكمه على خبراته سيكون سليما ومتسقا ولا يمرض أو يضطرب نفسيا بينما تجاوبه لتقويمات المجتمع وشروط الأهمية التى يفرضها هذا المجتمع عليه هو الذى يدفعه إلى إنكار بعض خبراته أو إبعادها أو تحريفها،ومن هنا ينشأ القلق أو المرض النفسى. ويتطرف روجرز فى تصوراته حتى يقرر أن الفرد هو الذى ينبغى أن يصنع معاييره من داخله وأن معايير المجتمع (التى تبنى أساسا على الدين) هى التى تعرقل نموه النفسى .. هكذا انطلق صاحب فكرة خيرية الإنسان والمدافع عنها ليرى أن الإنسان هو الخصم وهو الحكم، هو الفاعل للسلوك وهو الذى يضع معايير قبول هذا السلوك، وأيضا بالتالى معايير قبوله لنفسه– ولا يهمنا فى ذلك رضاء الآخرين وقبولهم، الذى يستمد منه معايير ارتضاها المجتمع التى نراها نحن المسلمين ونعلم جيداً أنها المعايير التى يرتضيها لنا إسلامنا، والإسلام هوالدين الذى ارتضاه الخالق جل وعلا لنا وللبشرية جمعاء (إن الدين عند الله الإسلام) ..

لكن الموقف الذى يحسب لروجرز وللمدرسة الإنسانية فى علم النفس بصفة عامة هو أنهم أبرزوا الجانب الوجدانى فى الإنسان ونادوا بالعودة إلى إنسانية الإنسان بعدما اختزله فرويد والمحللون النفسيون إلى صورة حيوانية تسيرها الشهوات ، واختزلها السلوكيون إلى صورة أشبه بالآلات التى تتمثل فى علاقة بين مثير واستجابة ولا قيمة لعقل ولا لفطرة ولا لخلق !!

وفى الاتجاه الثالث الذى يرى فيه البعض أن الإنسان يحمل فى طبيعته الخير كما يحمل الشر، وأنه عقلانى التفكير كما أنه لا عقلانى فى تفكيره– هذا

الاتجاه قد يكون أيضا فى ظاهره جذابا إذا أخذ بمعزل عن باقى فكر من نادوا به، ولكن إذا تمعنا فى عمق هذه النظريات وفى هوية منظريها فإن نظرتنا ستختلف، وعلى سبيل المثال فإن هؤلاء جميعا أغفلوا المعيار الأساسى لتحديد ماهى الخيرية وماهية ما يعارضها، أى الشر، وكثير منهم جعلوا المعيار مرتبطا بما يراه المرشد أو المعالج نفسه، أو ما يراه صاحب النظرية بصورة عامة.. لو أخذنا مثالا لذلك ألبرت إيليس صاحب نظرية العلاج العقلانى الانفعالى فقد نجد كلامه عن وجود العقلانية واللاعقلانية فى تفكير الإنسان أمرا مقبولا، ولكن ما هو معيار العقلانية الذى يحاكم إيليس إليه أفكار الناس؟ بالطبع الجواب أنه لا معيار موضوعى وإنما معيار شخصى، وقد يكون المعيار كما يقول باترسون (١٩٨٦) معيارا مفتعلا من المعالج يحاول به أن يبرز للمسترشد لاعقلانية أفكاره(أى أفكار المسترشد)، وإيليس نفسه قد عرف عنه ادعاؤه بأن الدين جانب من العوامل التى تنمى الأفكار اللاعقلانية.. ونفس الاتجاه نجده مرة أخرى عند جلاسر الذى يرى أن الإنسان يصح إذا عاش بالمسئولية والواقع، والصحيح (أو الحق)- ولكنه لم يحدد معيارا موضوعيا يحتكم إليه فى الحكم على هذا الصحيح سوى معيار المعالج الذى قد يكون هو نفسه معتل التفكير والسلوك!! وبذلك فإن وجاهة الفكرة لا تلبث أن تضيع فى خضم غياب المعيار الذى يحتكم إليه المحتكمون ليعرفوا أين الخير وأين الشر فى طبيعة هذا الإنسان ؟ بل أصلا ما هو الخير وما هو الشر؟

أما الاتجاه الرابع - فإن أصحابه يرون الإنسان خلوا من الخير والشر فى طبيعته - أى لا خير فيه ولا شر ولا شيء فطريا ولا موروثا- وهذا الاتجاه تمثله مدرسة العلاج السلوكى التى تقوم على أساس من نظريات التعلم- فهى ترى أن سلوك الإنسان (الذى يعبر عن شخصيته) إنما هو نتاج البيئة والخبرات التى يمر بها- أى هو عبارة عن استجابات فى مقابل مثيرات، إذا حدث المثير (سواء قبل الاستجابة أو بعدها فى صورة تعزيز أو تدعيم) تحدث الاستجابة، أو تستدعى هذه

الاستجابة، تماما كالآلة التى نضغط على أحد أزرارها فتنطلق فى دوران معين، هكذا لا عقل ولا قيم ولا دين تمر عليها الخبرة أو المثيرات لتحدد بها الاستجابات التالية .. ولعل مقولة واطسون الشهيرة والتى حاج بها سكينر روجرز فى مناظرتهما الشهيرة عام ١٩٥٣ فى اجتماع الرابطة الأمريكيةلعلماء النفس (APA) من أنه لوأعطى له مجموعة من الأشخاص فإنه يمكنه أن يجعل منهم، أو يصنع منهم، العالم كما يصنع منهم المجرم !! خير شاهد على ذلك. أين إذن الإنسان الذى كرمه الله بالفطرة والدين والعقل؟ وأين دوره وسط هذا التتابع بين مثير واستجابه؟ إنه أشبه بآلة مبرمجة أو «روبورت» يتحرك بناء على برامج إذا ظهر المثير (أمر) ظهرت الاستجابة (أداء لسلوك) .. وبذلك فالإنسان هو صنيعة البيئة ومنها تعلم، ولو وضعناه أمام شروط أخرى للبيئة فإن سلوكه سيختلف، أما فى طبيعتة وداخله فلا خير هناك ولاشر- بل ويتطرف المعالجون السلوكيون أحيانا فيتجاهلون البحث فى السلوك وهل هو طيب أم فاسد لأنهم يرونه فى صورة آلية ، فى صورة استجابات متعلمة يمكن أن نتعلم غيرها (بالإشراط) أو نمحوها من التعلم (بالإشراط المضاد) ..

ومع أن الأساليب السلوكية معروفة قبل الحديث عن نظريات التعلم بمئات بل وبآلاف السنين، إلا أن استخدامها بمعزل عن الدين والفطرة والعقل والأخلاق أمر قد لا يصلح إلا مع الحالات التى يفتقد فيها الإنسان سلامة هذه الجوانب، أما إذا استخدمناها فى إطار من هذه المعطيات: الدين والفطرة والعقل والأخلاق فلا شك أنها تساعد كثيرا على تغيير السلوك إلى الأفضل وتعلم ما هو خير للفرد وللبشرية جمعاء .

مرة أخرى نقول أن الذين ادعوا أن الإنسان ينطلق من غرائزه الشريرة (مثل العدوان والجنس) أو غرائزه الحيوانية فإنهم يكونون قد اختزلوه إلى مرتبة لا يرتضيها له أى عاقل فضلا عن كونه مسلما، وأن الذين ادعوا خيرية الإنسان على إطلاقها قد جاءوا بشعار براق ولكنه زائف فى جوهره لأنهم ربطوا هذه الخيرية

بهدف محدود بالشخص نفسه (تحقيق ذاته) ويمعايير يدعون أمر تحديدها وتبنيها للتصور الداخلى أو الكيان الحيوى والعضوى للشخص، فما يرضى عنه يفعله، وأن الإنسان هو الذى يصنع المعايير التى يرتضيها وليس المجتمع.. وبذلك فهى دعوة للفوضى على إطلاقها أن ندعو لأن يكون لكل فرد ميزانه فكيف يكون هناك مجتمع أصلا إذا لم يكن للمجتمع معيار واحد يحتكم إليه عند النظر فى السلوك الفردى والجمعى، وإذا لم يقبل الفرد هذا المعيار ويحاكم إليه ما يمر به من خبرات فى حياته. أما الذين جمعوا فى الإنسان بين الخير والشر فهم قد أخذوا بجانب من الوسطية ولكنهم لم يكملوها ، فليس هناك معيار موضوعى واحد يفترضه هؤلاء المنظرون لنقول ما هو الخير، وما هو الشر، ومتى نعتبر السلوك خيرا- وإنما تركوا ذلك فى الإرشاد والعلاج النفسى لحكم المرشد أو المعالج نفسه، وفى الأساس للفكر الذى يتبناه صاحب النظرية ومؤيدوه من بعده.. وأما التصور أو الاتجاه الأخير فإنه ينادى بأن الإنسان خال من الخير أو الشر فى طبيعته الأساسية ، وأن تحديد الخير والشر هو من صنع البشر، وأن إطلاق الخير وإطلاق الشر فى السلوك هو من صنع البيئة التى يعيش فيها الفرد ويتعلم منها السلوكيات ثم يحولها إلى عادات شبه مستقرة، فالإنسان إزاء المثيرات يستجيب بنفس الطريقة التى تستجيب بها الآلات، ويمكن أن نعمم ما وصلنا إليه فى التجارب التى أجريت على الحيوانات فى المختبرات كالقطط ، والفئران ، والكلاب ، والحمائم ،على الإنسان. ولا شك أن هذا أيضا اختزال كبير لطاقات الإنسان ومن بينها طاقة الدين وطاقة العقل إلخ ..

إن الإسلام حين ينظر إلى الإنسان فإنما ينظر إليه فى إطار من الخصوصية التى استحق بها التكريم ، وهى نظرة أشمل بكثير مما يمكن أن تحويه أى نظرية أو مجموعة منها، بل وجميع النظريات التى وضعها الإنسان عن نفسه. يقول الإمام ابن القيم فى حديثه عن الإنسان :

«فاعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه أن كرمه

وفضله وشرفه، وخلقه لنفسه وخلق كل شيء له، وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعط غيره، وسخر له ما فى سمواته وأرضه وما بينهما، حتى الملائكة الذين هم أهل قربه، استخدمهم له وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته وظعنه وإقامته .. وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله، وأرسل إليه ، وخاطبه وكلمه منه وإليه ..

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات .. (مدارج السالكين ج ١ ص ٢٣٥).

ومن بين ما نستخلصه حول نظرة الإسلام للإنسان، أن الإنسان هو المخلوق المكرم، وهو المسئول، وأن فطرته قامت على الخير بيد أنه يقبل الشر أيضا فى طبيعته، وأن الرسل قد بعثهم الله سبحانه وتعالى برسالة الهدى والدعوة للإيمان وإصلاح البشر وحياتهم، وأن المعايير التى يمكن للبشر أن يعايروا بها سلوكهم هى معايير الدين دون أى معايير وضعية تخالفه .. من هنا فإن أى نظرية لا تأخذ الدين فى حسابها حين تتحدث عن الإنسان وعن سلوكه وعن اضطراب هذا السلوك وعن كيفية إصلاحه هى بغير شك نظرية تداخلها ذاتية واضعها وتلوثها فلسفة من رجع إليهم من الفلاسفة أو عشق أقوالهم من الأدباء، وفرق كبير أن يكون مصدر معرفتنا ربانيا يتنزل به الوحى قرآنا يتلى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أو سنة نبوية تتبع هذا الوحى، وبين أن يكون مصدر هذه المعرفة حول النفس مجرد مقولة بشرية لا أساس لها، بل ربما يكون صاحبها نفسه مضطربا، وقد يفاجأ القارئ لهذه النظريات الغربية أن يقرأ أن صاحب هذه النظرية أو تلك كان يعانى من اضطراب نفسى أو ممن أدمنوا المخدرات أو أنه كان ذا شخصية بالغة التعقيد لم يعرف عنها سوى النزر اليسير أو غير ذلك من الأقوال التى يحتاج القارئ معها أن يقف أمام النظرية نفسها ليتدبر الأمر، هل من المعقول أن نأخذ افتراضات افترضها شخص مضطرب مأخذ الجد والاتباع، فما بالنا بمن يتصدى للدفاع عنها .. لنقرأ على سبيل المثال ما قدم به أحد الباحثين لنظرية يونج- وهو واحد من أعضاء المدرسة

السيكودينامية الذين شاعت نظرياتهم- يقول الباحث فى كتابه عن نظريات الشخصية :

«كما سنرى فى هذا الفصل، فإن نظرية يونج نظرية معقدة فى الشخصية. وفى الواقع فإن صورة الطبيعة البشرية التى تقررها النظرية أكثر الصور تعقيدا فى نظريات الشخصية .. وكما يمكن أن نتوقع فإن يونج Jung نفسه كان شخصا معقدا Complicated Person فكثير من تفاصيل حياته بدأت فقط فى الظهور منذ فترة قريبة وهى تحمل فى داخلها تناقضا واضحا، وعلى سبيل المثال فإن ستيرن (١٩٧٦) Stern يصور يونج على أنه فى حالة سابقة مباشرة على الذهان (المرض العقلى) إن لم يكن بالفعل ذهانيا- كما أنه كان شخصا انتهازيا ومواليا للنازيين (هيرجنهاهن ١٩٨٠ ص ٤٧ Hergenhahn) .

٢ - الدوافع :

لا خلاف على أن دوافع الإنسان التى تنشأ من داخله هى بمثابة الطاقة التى تحركه لسلوك معين لإشباعها، بل وتوجه هذا السلوك وتضبطه ، وأن ظهور الدافع يؤدى إلى حالة ما من التوتر يظهر فى صورة فيزيولوجية وفى صورة عقلية، وانفعالية، وإجرائية، ولكن الخلاف قائم بين مفهومنا عن الدوافع وقوتها ومدى سيطرة الإنسان نفسه عليها وترتيبها بالنسبة لبعضها البعض..

ولو عدنا إلى نظريات الإرشاد والعلاج النفسى لوجدنا أنها قصرت سلوك الإنسان على حدود محدودة بالمكان والزمان- ففى نظرية فرويد للتحليل النفسى يصور الدوافع فى صورة غرائز بيولوجيةأولية قسمها إلى غرائز للحياة يأتى الجنس فى أولها وعلى رأسها بل إنه جعله المحرك الوحيد لنمو الفرد وسلوكه ولصحته ومرضه، وغرائز للموت حصرها فى العدوان، وهو أيضا محور الصحة ومحور المرض وهو وسيلة لتحقيق غاية الحياة ، الموت. وبذلك رأى فرويد فى سلوك الإنسان إما إشباعا لحاجة جنسية بشكل مباشر أو غير مباشر أو دفاعا من الأنا ضد إظهار هذه الحاجة إذا كانت فى صورة يعارضها المجتمع..

هكذا ببساطة ، حياة الإنسان تدور رحاها بالجنس ومع الجنس وللجنس ثم الانتهاء الى اللاجنس أى الموت والتدمير ..

ولقد عارض كثير من معاصرى فرويد هذا الرأى الذى هاجم به فرويد تعاليم الأديان والأخلاق التى تتبناها المجتمعات والتى ينقلها الآباء لأبنائهم ، وجعلها مجرد إضافات اصطناعية يحاول بها البشر الدفاع عن التهديد الذى يصيبهم بالتعبير عن الرغبة الجنسية ..

فإذا جئنا إلى منظرين مثل كارل روجرز فى نظرية العلاج المتمركز حول الشخص لوجدناه يتحدث عن دافع وحيد فى حياة الإنسان هو دافع تحقيق ذاته، وأن هذا الجانب تبرز منه حاجتان فرعيتان، أولاهما الحاجة إلى تقدير ذاتى، والثانية الحاجة إلى تقدير من الآخرين، وأنه يتعلم أن يوجه سلوكه لإشباع الحاجة لتقدير الآخرين أى للحصول على هذا التقدير، ولكن الآخرين لا يمنحونه هذا التقدير بسهولة ويسر وإنما يطالبونه بثمن ذلك التقدير فى صورة شروط يشترطونها عليه . وهذه الشروط التى أسماها شروط الأهمية يستقبلها فى البداية من الوالدين وملاحظاتهم وقبولهم لسلوكه ورفضهم له . ثم بعد ذلك من الأشخاص ذوى الأهمية فى المجتمع وفى حياته على وجه الخصوص، ثم إن روجرز عندما يشخص المرض أو الاضطراب النفسى (أو القلق) فإنه يرجعه فى الواقع الى شروط الأهمية وحرص الشخص على الوفاء بها مما يجعله يقف أمام بعض الخبرات التى تصطدم بهذه الشروط فيبعدها أو ينكرها أو يحرفها، ومن ثم ينشأ القلق– ولكى يتخلص من ذلك فإن علينا أن نرفع عنه شروط الأهمية فى العملية الإرشادية أو العلاجية .. هكذا يربط روجرز حياة الإنسان بنفسه كفرد غايته الأولى والأخيرة هى تحقيق ذاته ومعايشته الخبرات التى تحقق رضاءه عن نفسه ، أما ما يوافق الآخرين فإنه قد يكون هو سبب مرضه، وكأنه مرة آخرى، مثلما فعل فرويد، يجعل الصحة النفسية فى التحررمن قيم المجتمع ومعاييره الخلقية، وينادى بأن الفرد هو صانع معاييره وأن كيانه العضوى هو الذى

يحاكم الخبرة (السلوك) ويحكم عليها قبولا أو رفضا .. وهذا بعينه قمة الخلل والاضطراب.

قليل من النظريات تلك التى جعلت للمجتمع والقيم والأخلاق نصيبا فيها، ومنها نظرية أدلر الذى أعطى للميل أو للاهتمام الاجتماعى دوراً فى حياة الإنسان وإن كان هو الآخر فى صياغته المتتابعة لأفكاره يبدأ بمقولة أن الإنسان مدفوع فى كل سلوكه بمشاعر النقص.وينتهى فى آخر صياغاته إلى أن دافع الإنسان الذى يحرك سلوكه هو الكفاح من أجل التفوق- ومرة أخرى برغم ما ينادى به من ارتباط الصحة بمدى اهتمامنا بالآخرين فإنه يجعل غاية كل فرد أن يصبح متفوقا .. أما جلاسر الذى جعل تكوين الهوية هو غاية الإنسان أو دافعه الوحيد وأن هذه الهوية قد تكون هوية النجاح أو تكون هوية الفشل، وأن هوية النجاح إنما تتحقق إذا عاش المرء بالمسئولية والواقع والصحيح أو الحق ، فإنه لا يلجأ إلى معيار موضوعى كمعيار الدين لتحتكم إليه فتعرف ما هو صحيح أو حق وما ليس صحيحا، إنما ترك ذلك لمعايير المرشد أو المعالج والتى قد تكون أضل وأشقى من معايير المسترشد ..

أما بيرلز فى العلاج الجشطلتى فإنه يوافق فرويد على أهمية غريزة الجنس فى سلوك الإنسان ولكنه يقترح إضافة غريزة أخرى لا تقل عنها أهمية فى رأيه وهى غريزة الجوع، وأنه يمكن تمثيل كل تصرفات الإنسان بما يحدث فى إشباع هذه الغريزة، ومرة أخرى نجد منظرا يهتم بالجوانب البيولوجية تاركا وراءه الجوانب الروحية العليا فى حياة الإنسان- وحين ينادى بيرلز بالاهتمام بجانب المسئولية وهى جانب عام فى بناء شخصية الفرد نجده يقول« إن الفردالمثالي لن يتحمل مسئولية فرد آخر!!»

أى أن كل فرد مسئول عن نفسه فقط، كما يضعها أحيانا فى صورة «افعل ما تريد وأنا أفعل ما أريد» .. ولقد انتقده كثيرون فى هذه المنطلقات فتلك هى

الفوضوية بعينها وهى التخلى عن مسئوليات أكبر كالمسئولية عن الوالدين وعن الأبناء وغيرهم ممن يحضنا الدين على أن نتحمل مسئوليتهم ..

لا شك أن التنظير المختل عن الدوافع يتبعه تفسير مختل للسلوك فى اعتداله وفى انحرافه، فالاعتدال حينئذ يكون فى الواقع مرجعه إلى انحراف أكبر، فحين نحصر الفرد فى تحقيق ذاته فلا تكون هناك «ذوات» أخرى يهتم بها ولن يهتم بالمعايير إذا وقفت فى طريق تحقيقه لذاته الذى لا تحكمه معايير من داخله، حين نحصر المسئولية فى أنفسنا فستكون هذه المسئولية عرجاء وهكذا .

واذا جئنا لموقف الإسلام من الدوافع كما أتصوره فإنه يبدو كالآتى :

١ – أن الغاية الوحيدة من خلق الإنسان هى عبادة الله وحده . ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات ٥٦)

٢ – أن الإنسان له وظيفة هامة فى الحياة وهى الخلافة فى الأرض وعمارتها ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ (البقرة ٣٠)

٣ – أن جميع الحاجات يمكن أن تقع تحت الغاية وفى إطار الوظيفة – ويمكن أن ننظر إليها على النحو الذى يقسمها إليه الفقهاء– ضرورات، وحاجيات وتحسينيات، وهو تقسيم يفوق أى تقسيم آخر للدوافع .

٤ – أن الإسلام يحدد لنا ضوابط لهذه الدوافع هى :

١ – أن يحقق الدافع غاية الإنسان وهى عبادة الله وحده، فإذا انطلق لغير ذلك فهو قد اعتراه انحراف .

٢ – أن يكون إشباع الدافع (موضوعه) من حلال، «الحلال بين والحرام بين».

٣ – أن يكون إشباع الدافع إشباعا معتدلا لا إفراط ولا تفريط .

وإذا اعتبرنا الدوافع فى هذا الإطار فإن غاية خلق الإنسان وهى عبادة الله وحده، ووظيفته وهى الخلافة فى الأرض وعمارتها سوف تتسع لكل سلوك الإنسان بما وراءه من دوافع أو محركات كلها تعمل فى إطار الوظيفة وكلها

تنطلق إلى الغاية .. وهى دوافع تأخذ فى اعتبارها حاجة الروح كما تأخذ حاجة الجسد ، وهى دوافع لا تقف عند حدود الدنيا فى رحلتها المحدودة بالزمان وإنما تتجاوز ذلك إلى ما بعد الموت إلى الآخرة لتوصلنا إلى دار القرار .. والانحراف النفسى أو السلوكى سوف يكون فى إطار هذه النظرة الإسلامية انحرافا عن الغاية وانحرافا عن التكليف ..

ومن خصائص هذا التصور لدوافع الإنسان من وجهة نظر إسلامية أن الغاية التى تحيط بحياة الإنسان ، الغاية من خلقه، وهى عبادة الله وحده، هذه الغاية مطبوعة فى فطرة الإنسان بموجب العهد الذى قطعه على نفسه وشهد به عليها، وكذلك فإنه مكلف بها بحكم ما جاءه من بلاغ الرسالة :

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ (الأعراف ١٧٢-١٧٤)

٣- نمو الشخصية :

تباينت نظريات الإرشاد والعلاج النفسى تباينا كبيرا فى نظرتها للشخصية بناء وتطورا فعلى سبيل المثال نجد فرويد يرى فى الشخصية جوانب ومتضادات مثل الشعور واللاشعور ، وبينهما ما قبل الشعور، والهو والأنا الأعلى وبينهما يقف الأنا فى محاولة للتوفيق بينهما، وكذلك ما أسماه مبدأ اللذة ومبدأ الواقع، وأن نمو الشخصية ما هو إلا تفاعل محوره الصراع والإحباط وآلياته التقمص والتبرير والكبت والنكوص والإسقاط والإعلاء وغيرها، وهى التى تسمح بنمو الشخصية، فالشخصية هنا دينامية متفاعلة ، جانب منها يدعو إلى الشرور ممثلة فى الجنس والعدوان ، وجانب يمثل الضمير والمجتمع وبينهما صراع مستمر، وتتوجه معظم الطاقة النفسية إلى حل هذا الصراع الذى يتم غالبا بكبت

مستمر، وتتوجه معظـم الطاقة النفسية إلى حل هذا الصراع الذى يتم غالبا بكبت ما يعارض الضمير والمجتمع إلى اللاشعور .. لقد اختزل فرويد الشخصية فى نموها إلى نمو جنسى ..

أما مدرسة العلاج السلوكى التى تبنى على أساس من نظريات التعلم فقد رأت الشخصية فى صورة سلوكيات يقوم بها الفرد بشكل متسق فى مواقف معينة، فالإنسان هو صنيعة البيئة وهى تملى عليه سلوكه من خلال عملية إشراط، وليس لهذا الإنسان دور فى الاستجابات التى تصدر عنه .. ومرة أخرى نحن أمام اختزال للإنسان إلى صورة آلية عاجزة – لا إرادة ولا حرية ولا تفكير بل ولا مسئولية ..

وإذا رجعنا إلى أفكار كارل روجرز فى العلاج المتمركز حول الشخص وجدناه يصور الشخص على أنه ينمو محققا لذاته ، وأن الشخصية هى الصورة التى نراها للذات حيث الذات هى الخبرات والأحكام التى نصدرها على هذه الخبرات. وأن الشخصية تكون فى حالة اعتدال عندما تتفق الخبرات التى نمر بها مع صورتنا عن ذاتنا.. أما بيرلز فى نظرية العلاج الجشطلتى فإنه يصور الشخصية على أنها كل متوازن وأنها تتمثل فى الإنسان وسعيه الدءوب إلى أن يكون فى حالة توازن ليس لديه أعمال (جشطلتات) لم تنته تؤثر على هذه الكلية، وأن نمو الشخصية يأتى من خلال ملامسة البيئة أو الاتصال بها من خلال الجسارة أو العدوان لنحقق إشباع الحاجات واستكمال الجشطلتات غير المكملة، ولا يتم ذلك إلا إذا كان لدى الفرد وعى كامل .

وعند آدلر فإن التكوين البدنى والتكوين الأسرى والاهتمام الاجتماعى والنضال من أجل التفوق هى التى تنمى شخصية الفرد وتجعلها فى حالة السواء.

وبالنسبة لجلاسر فى العلاج بالواقع – فإن الشخصية هى هوية الفرد التى تحتاج فى صياغتها إلى إشباع حاجات الحب والأهمية – وأن هذه الهوية تكون

طبيعية أو ناجحة إذا عاش الإنسان بالواقع والمسئولية والصحيح وإذا أشبع حاجاته للحب وللأهمية (التقدير).

وبالنسبة لأصحاب المدرسة المعرفية مثل بيك وإيليس فإن الشخصية هى أفكار أو تصورات ، وهذه الأفكار تنمو مع الشخص من خلال التعلم، وإذا كانت الأفكار أو هذه التصورات سوية فإن شخصية الفرد تكون كذلك .

لا شك أن كل منطلق من هذه المنطلقات قد حدد تصوره للشخصية بحدود فكرة واحدة، فالبعض قد جعلها متصارعة وآخرون رأوها مجرد سلوك أى أنها شخصية مصنوعة، وآخرون ركزوا على المشاعر بينما اقتصر غيرهم على الجوانب المعرفية أو العقلية.. ومن هنا يبدو الخلل فى هذه النظريات، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن بعض المنظرين حين تحدث عن الشخصية تصورها قائمة على حاجات محدودة بحدود الشخص نفسه، ففى العلاج الجشطلتى حيث يرى أن النمو البشرى ينطلق من الجوع إلى الشبع أو من التوتر الذى تبثه الحاجة التى تبرز فى المقدمة إلى التوازن الذى ينتج عن إشباع هذه الحاجة ، وكأن الإنسان يسعى دائما إلى حالة إستاتيكية، وبذلك لم تأت النظرية بما يفسر عملية النمو. أما بيرن Berne صاحب نظرية العلاج بتحليل التحويلات فقد بنى نظريته على أن الإنسان يحتاج إلى تمضية الوقت، وهو فى ذلك يدخل فى اتصالات أو تحويلات تخاطبية تشبع هذه الحاجة، وأن كل شخص بداخله ثلاثة جوانب للأنا أو ثلاث حالات هى الطفل والراشد ،والوالد، ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام مُنَظِّرٍ حل محل فرويد فى رمزيته وإن اختلف عنه فى أنه تعامل مع محسوسات (التخاطب) بدلا من تعامله مع مجهولات مثل الأحلام وفلتات اللسان التى تمثل مادة اللاشعور، وحين يتناول الباحثون نظرية بيرن بالتعليق فإنهم يرمونه بالسوقية فى تعبيراته وفى مفاهيمه ، وبذلك فإن نظريته تقوم على تصور سوقى حيث يرى أن كل الحياة كلام وركلات وآثار لهذه الركلات وإضاعة للوقت وتسلية له، وألعاب، وحيل .

ما موقف الإسلام من موضوع الشخصية؟ فى الواقع أن الإجابة على هذا السؤال قد تحتاج إلى مؤلفات لأن الإسلام لم يضيق المفاهيم ولم يتدن بالإنسان إلا حين يخرج عن إطار الهداية الموجود كما قلنا فى أصل الفطرة، ويمكن أن نقول أن شخصية الإنسان المفطور على الخير والذى يقبل الشر، هى شخصية ذات بنية مركبة فيها النفس الأمارة بالسوء، وفيها النفس اللوامة، وفيها النفس المطمئنة، فيها الدافع الفطرى إفراد العبادة لله وحده، وفيها النهج الإسلامى يتشربه المسلم بلاغا وبيانا ، عقيدة وشريعة، وفيها العقل الذى يميز ويحاكم ويحكم، من منطلق هذا المنهج الإسلامى العظيم.. فيها التفاعل بين جوانب النفس أو حالاتها الأمارة واللوامة والمطمئنة وصولا إلى إحدى حالتين تغلبان عليه، إما نفس أمارة لمن غلب عليه الكفر والنفاق والفسوق والعصيان ، أو نفس مطمئنة لمن تشرب قلبه بالإيمان واحتكم إليه بعقله وطاوعه فى سلوكه، ومن أجمل ما قرأت من تشبيهات الشخصية ما ذكره الإمام ابن القيم فى كتابه الفوائد حيث يرى أن نفس الإنسان أشبه بالرحا التى تطحن ما وضع لها، وأن خواطر الإنسان وما يحدث به نفسه أو تحدثه به نفسه ويفكر فيه تمثل ما يوضع فى هذه الرحا، وأنه اهتداء بالإيمان وبالعقل يمكنه أن يخلص هذه الرحا من الحصى والرمال وأن يجعل ما يطحن فيها مفيدا.. وبذلك فإن نمو الشخصية لدى المسلم هو نمو يبدأبالتعلم من الأبوين ومن المجتمع وينطلق إلى غرس الإيمان فى الطفل ليكبر معه وليكون هذا الإيمان هو دليل العقل فى الحكم على ما يرد على الفرد من خواطر عقلية ، فإذا ضبط تلك الخواطر ، واختار منها تلك التى تتسق مع إيمانه فإنه سرعان ما يحاسب نفسه وتكون التوبة هى طريق العودة ومرة أخرى يحاسب نفسه ليعرف مدى نجاحه فى هذه التوبة وهكذا [1]..

ونظرة الإسلام لنمو الشخصية- كما أراها – نظرة أكثر شمولية وشديدة الاتساق عن كل ما مر بنا من نظريات فهى كالآتى:

---

(١) انظر البحث الثانى فى هذا الكتاب .

١ – الإنسان مخلوق له خصوصيته.

٢ – الإنسان مفطور على الخير وعلى الإسلام.

٣ – يحمل الإنسان فى فطرته معرفته لربه وإقراره بعبوديته له سبحانه.

٤ – ويأتى الطفل إلى العالم مزودا بالحواس ولكنه خال من العلم وهو يتعلم من خلال هذه الحواس.

٥ – وأول مدرسة يتعلم فيها هى مدرسة الوالدين المسلمين اللذين يبثان فيه تعاليم الإسلام ويعلمانه، وصدق الرسول الكريم : «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع».

٦ – وتنمو شخصية المسلم لتحقق الغاية الوحيدة لها وهى عبادة الله وحده ؛ ولتقوم بوظيفة الخلافة فى الأرض . وسلوكها مدفوع بضرورات وحاجيات وتحسينات تحرسها ضوابط الإسلام وهى أن تكون محققة لغاية عبادة الله، ومشبعة من الحلال ويراعى التوسط والاعتدال فى إشباعها .

٧ – وهى فى مرورها بخبرات الحياة التى قد تبدأ بالخواطر أو بالملامسة والمواجهة الفعلية فإن الإيمان هو المعيار الذى نحكم به، والعقل هو الأداة التى نستخدمها فى الحكم، والنتيجة هى السلوك الإيماني الموصل للنفس المطمئنة ..

٨ – إنه إذا مر المسلم بموقف صراع أو تردد بسيط– فإن شعوره الإيماني سرعان ما يغلّب الموقف الصحيح ويشجب كل خاطر سيئ حتى يصبح السلوك هو السلوك المستقيم القائم على الإيمان والتقوى، على الإسلام والإحسان، ووسيلته فى ذلك هى تدريب نفسه على الضبط وتقدير العواقب، ومحاسبتها ثم التوبة وتصحيح الخطأ وهكذا .

٩ – وحالة السواء أو الصحة التى يصل إليها هى النفس المطمئنة القائمة على الإيمان والاستقامة.

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (الأحقاف ١٣)

وبذلك نرى أن الإسلام انطلق من حاجة عليا هى أم الحاجات الملائمة للإنسان المخلوق الذى كرمه الله وفضله على الكثير من خلقه، وهذه الحاجة هى غاية الغايات بل هى الغاية الوحيدة لحياته، عبادة الله وحده. وهذه الحاجة أو الغاية يمكن أن تندرج تحتها كل حاجة مادام بروزها وإشباعها فى حدود الضوابط الثلاثة التى ذكرناها ..

لم ينطلق الإسلام من غريزة الجنس ولا غريزة العدوان ولا من غريزة الجوع على النحو الذى صاغه فرويد أو صاغه بيرلز، ولم يجعل حياة الإنسان لتحقيق ذاته، والوصول إلى صورة يرضى الفرد عنها، وهذا الفرد هو الذى يصنع لنفسه المعايير والقيم حسب ما ينقله إليه الوالدان والمجتمع من معايير وقيم هى القيود التى تقف أمام تحقيقه لذاته وفى طريق سعادته، على النحو الذى نادى به كارل روجرز. ولم يناد الإسلام بأن يعيش كل فرد لنفسه وأنه حين يهتم بغيره فإنه يمرض على النحو الذى نادى به ألبرت إيليس، إنما ينطلق الإسلام من قمة القمم، من عبادة الله وحده خالق الإنسان وخالق الكون، وأن الاحتكام فى سلوك الإنسان هو احتكام إلى المنهج الإسلامى عقيدة وشريعة يحتكم لها الفرد ويحتكم لها المجتمع– لا فوضوية ولا أنانية ولا خصوصية وإنما وحدة فى المعيار، والميزان الذى نحتكم إليه .

﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ (البقرة ٢٢٥)

٤ – اضطراب الشخصية :

وكما تباينت النظريات فى نظرتها لطبيعة الإنسان ولدوافعه ولبناء شخصيته وتطورهافقد تباينت أيضا فى نظرتها لما يعترى الشخصية من اضطرابات (العصاب أو القلق النفسى).

ففى نظرية التحليل النفسى لفرويد نجد أن الاضطرابات أو المرض النفسى يرجع إلى ذلك الصراع القائم فى نفس الإنسان بين جوانب الشخصية– الهو بما

يحمله من رغبات جنسية (محرمة) والأنا الأعلى بما يمثله من ضمير وقيم ومعايير للمجتمع ، وأن هذا الصراع يبدأ فى حوالي الخامسة من العمر أو ما أسماه بالمرحلة الأوديبية ، ويحل الفرد هذا الصراع باستخدام آلية الكبت التى تدفع بمادة الصراع (جنس أو عدوان) إلى حيز مجهول هو حيز اللاشعور، حيث لا يتاح للفرد أن يصل إلى هذا الذى كبته إلا من خلال الأحلام أو زلات القلم أو فلتات اللسان.. ويناضل الأنا، المدير التنفيذى للشخصية، والذى يحاول المحافظة على التوازن بين رغبات الهو والأنا الأعلى، ويحاول جهده أن يبقى على المكبوتات التى فى اللاشعور لكى لا تبرز إلى الشعور وشيئا فشيئا يجهد الأنا ويستخدم حيلا أو آليات للدفاع ضد نشوء القلق أو المرض النفسى لكنه ما يلبث أن يجهد ويستسلم لأحد الأمراض العصابية (القلق- الهيستريا- الوساوس- الاكتئاب، أو المخاوف المرضية أو غيرها) .. نظرة فرويد للمرض النفسى إذن تتلخص فى أنه محصلة صراع بين رغبات جنسية لا يوافق عليها المجتمع والقيم والمعايير التى يفرضها هذا المجتمع ، فإذا انتصرت القيم فالكبت فى الطفولة والمرض بعد ذلك- وإذا انتصرت الرغبات الجنسية فلا مرض ولا عصاب، هكذا بمنتهى البساطة ، اللاقيم والفوضوية ووساوس الشيطان هى التى تعطى الصحة النفسية، والقيم والأخلاق، هى التى تُسلم للمرض، وبذور المرض التى تبدأ من الطفولة المبكرة ..

أما المدرسة السلوكية - فهى نادرا ما تفرق بين المرض واللامرض (السواء) فكل منهما إنما هو استجابات (سلوك) تعلمها الفرد من البيئة، والبيئة هى التى تحكم السلوك وتصنعه، وبذلك فإن الفرد مجبر ومصنوع لا خيار له ولا إرادة ولا عقل ولا معايير داخلية استقاها من حضارته، ولا شيء ... إن تفسير سلوك الإنسان هو نفس التفسير الذى نستخدمه مع سلوك حيوانات التجارب - القطط والكلاب والحمائم والفئران- إنه أشبه بآلة .. وبذلك فالمسئولية تقع على

البيئة فى أنها أكسبت الفرد هذا السلوك أو ذاك بمثيراتها ومعززاتها- وأين الإنسان؟ وأين فطرته وأين عقله وأين إرادته .

وفى المدرسة الإنسانية التى تطالعنا فيها نظرية كارل روجرز عن العلاج المتمركز حول الشخص نجد الفرد منذ طفولته مدفوعا لتحقيق ذاته، وهو فى سبيل ذلك يحتاج إلى نوعين من التقدير، تقدير من داخله وتقدير من خارجه، والتقدير الذى بداخله قد يكون سهلا لكن التقدير الخارجى والذى يتلقاه أولا من والديه ومن ذوى الأهمية فى حياته تقوم عليه شروط ، هى شروط الأهمية، وهى نسيج من المعايير والقيم التى يبثها الوالدان والتى يؤيدها المجتمع .. فإذا مر الفرد بخبرة ما فإنه يعرضها أولا على شروط الأهمية فإذا وافقت هذه الشروط انضمت مع خبراته السابقة لتكون ذاته، أما إذا لم توافق شروط الأهمية فإنه يلجأ إلى إبعادها أو تحريفها أو ربما إنكارها أو يدخل إلى القلق والاضطرابات، والذى يراه روجرز هنا يختلف عما يمكن أن يكون منطقيا، فهو يرى أن هذه الشروط، شروط الأهمية، التى تبنى على القيم والمعايير إنما هى مكبلات أمام تحقيق الذات وهى المؤدية إلى المرض النفسى، ولو استطعنا رفع هذه الشروط بشكل ما (خلال العلاج النفسى مثلا) فإن الشخص يعود صحيحا يضم إلى ذاته كل خبرة يرضى عنها- ولا أهمية لرضا المجتمع أو موافقته، ولا لقيم ولا لمعايير، المهم هو تحقيق الذات والاستجابة للمشاعر الداخلية، فالفرد هو صانع قيمه ومعاييره...

وفى المدرسة المعرفية، والسلوكية المعرفية - نجد منظريها يرجعون المرض أو الاضطراب النفسى إلى اضطراب فى التفكير أو التصورات أو إلى ما يحدث المرء به نفسه (الخواطر)، ولكنهم مرة أخرى حين يقسمون التفكير إلى عقلانى ولا عقلانى وأن اللاعقلانى هو الذى يؤدى إلى الاضطراب نجدهم (مثلا إيليس) يدخلون ما هو عقلانى فى نظر المجتمع إلى حيز ما ليس عقلانيا فيرجعون إليه المرض النفسى، فمثلا، يقول إيليس أن اهتمام الفرد بالآخرين

وبموافقتهم على سلوكه هو السبب للاضطراب لأنه يمثل فكرة غير عقلانية، إنها قليلة تلك النظريات التى يمكن أن نلمس فيها بارقة صلاح أو اهتمام بالقيم والمعايير، ومن هذه النظريات ما رأيناه فى العلاج بالواقع من أن الإنسان يضطرب نتيجة اتجاهه إلى هوية الفشل بانضمامه إلى أشخاص لهم هذه الهوية وابتعاده عن الواقع وعن المسئولية وعن الصحيح أو الحق- والصحيح أو الحق يدخل إليه المقبول من الأخلاق . ولكن جلاسر نفسه قد لا يستطيع أن يحدد لنا ما هو الصحيح وما هو غير الصحيح إلا من منطلق شخصى . ومرة أخرى يترك هذا للمرشد أو المعالج، وكما قلت من قبل قد يكون المرشد أو المعالج هو نفسه مفتقدا للقيم وللخلق ولا يعرف ما هو الصحيح وما هو غير الصحيح !!

لا يوجد من بين النظريات الغربية للإرشاد والعلاج النفسى إلا القليل مما يشير إلى أهمية الجانب الروحى وأهمية الدين فى تطور شخصية الإنسان أو فى تفسير اضطراب السلوك، بل إن بعض النظريات قد تبنت موقفا مضادا بتصويرها الاضطراب النفسى على أنه راجع إلى قيود القيم، ومع ذلك فإن البعض قد ألمحوا إلى أهمية الدين (يونج) والأخلاق(جلاسر) فى سلوك الإنسان ...

وإذا نظرنا من وجهة نظر الإسلام، الدين الحق الذى ارتضاه الله لخلقه، فإن الأمر يختلف ، فالدين يعم أرجاء الحياة وهو الذى يصوغ سلوك البشر .

﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ (البقرة١٣٨)

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين﴾ (الأنعام ١٦٢)

وهو الذى من خلاله يحقق الإنسان غاية حياته: عبادة الله وحده، وبهديه يقوم بوظيفته فى الحياة : الخلافة فى الأرض وعمارتها، وهو المعيار الذى يحتكم إليه فى كل ما يصدر عنه وما يصدر أيضا عن غيره .. ومن هنا فالدين هو معيارنا لتحديد الاضطراب فكل انحراف عن الغاية وكل انحراف عن الوظيفة ندخله فى الانحراف ،والاضطراب، ومن هنا يكون أول انحراف هو الانحراف عن

العقيدة الحقة عقيدة التوحيد والزيغ عنها ، ويتبعها فى ذلك الانحرافات عن وظيفة الخلافة وعمران الأرض ممثلا فى التخلى عن المسئولية والإفساد فى الأرض والبغى، ويدخل فى هذه الانحرافات كل اعتداء على حدود الله وتعد لها فى الأوامر وكل اقتراب منها فى النواهى.

﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾ (البقرة ٢٢٩)

﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ (البقرة ١٨٧)

﴿وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون﴾ (البقرة ٢٣٠)

إن سلوك الإنسان لا يضطرب لوجود القيم والأخلاق كما يدعى البعض وإنما يضطرب عندما يبتعد عن القيم وعن الأخلاق، فيستشعر مخالفته لفطرته ولرسالات ربه، وعندما ينتبه لذلك قد يمنعه تكبره وعناده من الرجوع أو تكبله قدراته عن أن يعرف وسيلة الإصلاح وسبيل الهداية فتزداد غوايته، إنه كما قدمنا فإن شخصية المؤمن تنمو فى إطار إيمان يحرس العقل وينظم قدراته، وعقل قد تشرب بالإيمان يقود به الجوارح ، وعندما ينقص الإيمان فإن العقل قد يحتكم إلى ما لايهدى ، وإلى الباطل ، ولا تجد الجوارح سوى الضلال يقود سبيلها، وتغلب على المرء هنا حالة النفس الأمارة، أو كما دعاها الإمام ابن قيم الجوزية النفس السحارة بما فيها من آثام وفسوق وعصيان، من كبر ومهانة وحسد وعدوان وظلم وبغى وإفساد وتقطيع للأرحام وغيرها كثير.

﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون* ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾ (الحشر ١٨-١٩)

ولأن المنهج الإسلامى هو المنهج الشامل، فإن الزيغ عن الغاية والانحراف عن الوظيفة هما لب الاضطراب ومرجعهما إلى البعد عن الدين وتعاليمه، وقد يعود ذلك إلى نزول الإنسان عن المستوى الذى كرمه به الله، استقباله المعلومات بحواسه وإدراكها، ولكن لا يوظفها لتحقيق الغاية، وتخليه عن المسئولية وعن

التكاليف التى كلف بها، وتعلمه الصور الضالة بتقليد المفسدين، واستخدامه عقله للمجادلة بالباطل ليدحض به الحق .. ومحور هذا كله ضعف الإيمان الذى يزن به العقل ما يعرض له من الخواطر أو يستثيره من مثيرات، وبذلك فلا يميز الخبيث من الطيب ولا سبيل الشيطان عن سبيل الإيمان ..

ولقد يكون أساس هذا التخلى عن الطريق المستقيم هو التحلل من المسئولية، مسئولية الإسلام والإيمان والإحسان ، والنزول عن مستوى التكريم والبعد عن نداء الفطرة والاستجابة للشهوات والتغافل أو الغفلة عن آيات الله فى الكون .. إنه انحراف فى العقل وانحراف فى المشاعر والوجدان فى السلوك يعززه ما قد يشعر به من تحلل من المسئولية ثم يفيق بعد أن تتمكن منه العادات الرذيلة وبعد أن يكون عبدا لشهواته منقادا إلى شياطين الجن والإنس، ليجد أن الوقت قد فات :

﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلى أعمل صالحا فيما تركت، كلا، إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ (المؤمنون ١٠٠)

﴿إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ (غافر ١٠)

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ (الكهف ١٠٣-١٠٤)

الإرشاد أو العلاج :

حين نبحث فى نظريات الإرشاد والعلاج النفسى المتنوعة نجد أن عملية الإرشاد أو العلاج وأساليبه تبنى على ما تقرره النظرية، أو بالأحرى واضعها، من افتراضات حول طبيعة الإنسان وحول تطور الشخصية وحول نشوء الاضطراب النفسى أو العصاب لدى المسترشد .

فإذا عدنا إلى تصور فرويد وجدنا أنه يرى أن الإنسان ينطلق فى سلوكه

من غرائز الجنس والعدوان، وأن نموه الشخصى يسير فى مراحل جنسية نفسية، وأن الاضطراب النفسى يأتى حين تحاول المواد (الجنسية) المكبوتة فى اللاشعور أن تأتى إلى الشعور، ويحاول الأنا أن يمنعها بما لديه من طاقة نفسية والتى إذا استنفدت فإن القلق يظهر ويدخل الفرد إلى أحد الاضطرابات العصابية، ويحاول المعالج من خلال علاقته بالمريض أن يدفعه إلى استحضار هذه المواد اللاشعورية عن طريق تداعى الذكريات القديمة، ومن مرحلةالطفولة المبكرة، المرحلة التى يرجع إليها فرويد عملية الكبت، وهذه العملية تعرف بالتداعى الطليق والتى من خلال تفسيرات المعالج وتحويلات المسترشد(المريض) وباستخدام مواد أخرى لا شعورية هى الأحلام يمكن للفرد أن يتعامل شعوريا مع المواد اللاشعورية، و هذا فى رأى فرويد معناه زوال أسباب المرض النفسى، أما الأعراض فإن فرويد لا يهتم بزوالها، وعملية العلاج فى التحليل النفسى عملية طويلة فى زمانها مرهقة للمريض فى إجراءاتها وفى المواد التى يتعامل معها وفى التفسيرات التى تعطى لها ، وهى بحاجة إلى وجود قدرة على الاستبصار من جانب المريض، وهى لذلك لا تصلح مع حالات الاضطربات الشديدة مثل حالات الفصام ولا مع الأطفال الصغار ولا مع حالات التخلف العقلى (إن كان لها نتيجة على الإطلاق !!).

أما المدرسة السلوكية، والتى تقوم على أساس من نظريات التعلم، فإنها كما مر بنا تفسر السلوك (السوى وغير السوى) على أنه استجابات متعلمة يتعلمها الفرد من البيئة تبعا لقوانين الإشراط سواء الإشراط الكلاسيكى لبافلوف أو الإشراط الإجرائى لسكينر أو عن طريق الملاحظة حسب نظرية باندورا، وإذا أردنا أن نعالج هذا السلوك أو ذاك أو نعدله فإننا نتبع نفس قواعد التعلم، بمعنى أنه إذا أردنا أن ننقص سلوكا لدى الفرد أو نزيده أو نوجد سلوكا جديدا فإن الطريق أمامنا هو الإشراط الكلاسيكى، والتعزين، والعقاب ،والتشكيل، والتسلسل، والانطفاء ، والتمييز ، والتعميم، والنمذجة وغيرها من الأساليب. وفى الإجراءات

فإن المرشد أو المعالج ينظر إلى الفرد على أنه متعلم، وإلى الموقف الإرشادى على أنه موقف تعليمى، وإلى عملية الإرشاد نفسها على أنها عملية تعليم وتعلم- وهذه جميعها تدور حول البيئة بمثيراتها وحول الاستجابات المقابلة لهذه المثيرات، وكأن الفرد أو المسترشد هنا ليس له دور سوى أنه صاحب السلوك أى أنه الكائن الذى تصدر عنه الاستجابة، ولا دور للعقل ولا دورللمشاعر..

لا شك أن الأساليب التى تستخدم فى تعديل السلوك لها أهميتها ولكن دون أن نغفل أن للإنسان عقله الواعى وله إرادته وله حريته، وهو ليس آلة نبرمجها ولا حيوانا من حيوانات التجارب نشرطه، إنما الإنسان إنسان له كليته وله كينونته وله قبل هذا وبعده كرامته وخصوصيته، ويمكن أن نستفيد بالأساليب السلوكية فى هذا الإطار الإنساني دون أن نهدر قيمة العقل ولا قيمة المشاعر. أما فى الحالات التى يختل فيها العقل أو تختل فيها المشاعر فقد تجدى مثل هذه الأساليب بشكل ما.

وفى المدرسة المعرفية والسلوكية المعرفية ، فكما كان التصور قائما على أن المرض أو الاضطراب النفسى يحدث نتيجة ما كونه الفرد من أفكار غير منطقية أو تصورات غير واقعية فإن المعالج يبدأ بمحاولة تصحيح هذه الأفكار وهذه التصورات .. نعم قد تكون هذه الطريقة ارتفعت بالإنسان درجة عن سابقتيها اللتين اختزلتا الإنسان اختزالا لا يليق به، ولكن المشكلة تبقى فى كيف نحكم على الأفكار بأنها غير منطقية أو غير عقلانية . وكيف نحكم على التصورات بأنها خاطئة أو غير واقعية، بمعنى آخر ما هو المعيار الذى نلجأ إليه؟ لنأخذ مثلا واحدا من المنظرين وهو ألبرت إيليس الذى قدم نظرية العلاج العقلانى الانفعالى، فنجده يردد بعض الأفكار التى يراها هو غير عقلانية، لكن ماذا عن الجانب الموضوعى، هل فعلا هى غير عقلانية بالنسبة لغيره أو لكل مرشد أو معالج؟ ، وما هو المصدر الذى نحتكم إليه لنصل إلى وحدة موضوعية حول عدم عقلانية الفكرة؟ الجواب : لا يوجد. ورغم أن إيليس يبدى أن هناك تبادلا

فى التأثير بين الجوانب المعرفية والانفعالية والسلوكية إلا أنه يركز على جانب واحد فقط هو الجانب المعرفى، وإذا نظرنا إلى نظرية العلاج بالواقع والتى رأت أن الفرد قد ينمى هوية الفشل ويدخل إلى الاضطراب النفسى أساسا لبعده عن المسئولية وعن الواقع وعن الصحيح .. وهذه النظرية بغير شك قد تقدمت خطوة على باقى النظريات من حيث اقترابها من الواقع وعدم إلقائها التبعة وعلى المجتمع وقيمه وما طور فى الفرد من أفكار منطقية وغير منطقية .. وما سببه له من كبت لرغباته، إلخ، فقد لمس جلاسر إلى حد ما واقع الاضطراب حين حدد الجوانب الثلاثة التى تساعد على إشباع حاجاته وعلى نموه نموا صحيحا وتكوينه لهوية ناجحة، وهى الواقع والمسئولية والصحيح، وهو فى طريقته العلاجية يحاول أن يدفع المسترشد إلى العيش بهذه الجوانب الثلاثة، فهو بجانب العلاقة الرفيقة مع المسترشد والتى تساعده على الأندماج مع شخصية ناجحة، هى شخصية المرشد الذى يساعده على أن يحكم على سلوكه بنفسه، وهذه أولى خطوات المسئولية وملامسة الواقع والتفرقة بين الصحيح والخاطئ ، ثم تتوالى عملية الإرشاد بين إعداد الخطة وتنفيذ لها. ولكن مازال جلاسر رغم عدم غموض نظريته ورغم عدم إلقائه بالمسئولية على المجتمع وقيوده، مازال يعتمد على شخص المرشد فى تحديد ما هو الصحيح وما هو غير الصحيح، وما هى المسئولية وما هى حدودها، ومازال بذلك يفتقد فى نظرية العلاج بالواقع إلى الجانب الموضوعى الذى يحتكم إليه .

وفى نظرية روجرز التى تنتمى إلى المدرسة الإنسانية، نجد الإرشاد أو العلاج يتلخص فى ربط المسترشد بعلاقة مع مرشد يرفع عنه شروط الأهمية، أو قد يكون من الأفضل أن نسميها «شروط المجتمع» ، ويتركه ليستبصر بمشكلته وليضم تلك الخبرة التى أنكرها أو أبعدها عندما لمس بعرضها على شروط الأهمية أنها مخالفة لها أو غريبة عنها .. والهدف كما يرى روجرز هو إعطاء المسترشد الأمن والطمأنينة ليستجمع ذاته أو ليدخل أو يصير على حد تعبيره إلى

ذات جديدة (ذات تجمع الصحيح والخاطئ) وأن يكون احتكام هذا المسترشد عندما يمر بخبرة لا إلى شروط الأهمية، أو شروط المجتمع كما قلنا ولكن إلى شروط داخلية ومعايير يضعها هو لنفسه، إنها دعوة للفوضوية، نعم إن روجرز قد اهتم بالمشاعر وهى جانب هام فى حياة الإنسان، واهتم أن تكون هناك علاقة بين المرشد والمسترشد من نوع خاص فيه التقبل وفيه المشاركة ، وفيه التقدير غير المشروط . والنتيجة هى رحلة غير محدودة فى زمنها من هذه العلاقة، ومراجعة ذاتية من الفرد لسلوكه فى إطار هذا التحرر من شروط المجتمع.

لو نظرنا إلى المنهج الإسلامى وحاولنا التعرف على الصورة التى يمكن أن يكون عليها الإرشاد أو العلاج النفسى فإنه يمكن استخلاص الخطوط الرئيسية التالية :

١ – أن الإنسان المكلف المسئول مطالب بأن يلتزم بتعاليم الدين ويهتدى بها فى كل جوانب حياته بدءا بالعقيدة وصحتها وانتهاء إلى جوانب السلوك مشتملا ذلك على السلوك العقلى (المعرفى) والوجدانى والعملى.

٢ – أن الاضطرابات إنما تنتج عن الابتعاد عن النهج الإسلامى– عن الدين كما أراده الله خالق الإنسان لهذا الإنسان يهدى تفكيره ويعمر قلبه ويسيِّر وجدانه وحركته.

٣ – أن معيار الدين واضح لا لبس فيه ولا غموض ولا تحريف، وهذا المعيار هو المعيار الموضوعى الذى يمكن أن يتفق عليه الجميع مرشدين كانوا أم مسترشدين فلا يدخل اجتهاد شخصى أو فكرة شخصية .

٤ – أن تصحيح السلوك يكون من خلال تصحيح مفهوم الشخص للدين أو استجابته للتكليفات الدينية الشرعية، وبمعنى آخر فإن التصحيح يكون من خلال العودة للدين

٥ – يأتى فى مقدمة ما نهتم بتصحيحه جانب العقيدة ثم يكون الانطلاق إلى باقى الجوانب، فالدين يشمل كل حياة المسلم .

٦ – ويمكن أن نستخدم أساليب شتى ، ولكن فى إطار الدين واعتبار الدين هو المعيار، وقد تشتمل هذه الأساليب على جوانب معرفية مثل الوعظ وتصحيح الأفكار والمفاهيم والاتجاهات، وعلى جوانب وجدانية مثل التذكير وملامسة المشاعر الإنسانية، وكذلك على جوانب سلوكية مثل الثواب والعقاب وعرض النماذج الطيبة ..

وبالإضافة إلى الإرشاد والعلاج الموجه بواسطة آخرين فإن الفرد يمكنه أن يرشد نفسه ذاتيا عن طريق الدين.

وكل أسلوب علاجى أو إرشادى لا يتعارض مع الإسلام ومبادئه يمكن للمرشد أن يستخدمه ، ولكن فقط بمراعاة الأسس الذى ذكرناها فى الدوافع وفى نمو الشخصية وفى تعليل الاضطراب، وهى أن ننظر إلى الفرد على أن له فطرة وأن هناك تعاليم للدين تهدى هذه الفطرة وأن هناك عقلا، وأن هذا العقل يسترشد بالدين (الإيمان)، وأن السلوك خاضع لعمليات العقل ..

أهداف الإرشاد :

تتنوع أهداف الإرشاد من نظرية لأخرى، فمن نظرية التحليل النفسى التى تحاول المساعدة على حل الصراع القائم بين اللاشعور والشعور، واستحضار المواد المكبوتة فى اللاشعور إلى حيز الشعور والتعامل معها وتفسيرها، إلى نظرية العلاج السلوكى التى ترى أن هدفها يرتبط بهدف المسترشد فى تعديل السلوك تكوينا أو غرسا، زيادة أو نقصانا، أما أدلر فيرى أن أهداف الإرشاد أن تساعد المسترشد على تنمية الاهتمام الاجتماعى وتقليل الاهتمام الذاتى، بينما يرى روجرز أن الهدف هو أن يصير الفرد إلى ذات جديدة تنضم إليها خبراته كلها، والتقريب بين الذات الواقعية والذات المثالية. ويرى بيرلز فى العلاج الجشطلتى أن الهدف الإرشادى هو زيادة الوعى والاتصال بالبيئة وزيادة المسئولية وتقليل الاعتماد على البيئة، وفى رأى فرانكل فى العلاج بالمعنى أن مساعدة الفرد فى

تكوين معنى لحياته هو هدف الإرشاد، وفى العلاج بالواقع فإن الهدف هو مساعدة الفرد على تنمية المسئولية والعيش مع الواقع والصحيح، وفى رأى إيليس فى العلاج العقلانى الانفعالى أن التعرف على الأفكار غير المنطقية لدى المسترشد وإحلال أفكار منطقية محلها هو الهدف من الإرشاد، أما بيك فيرى أن تصحيح أفكار المسترشد حول نفسه وحول العالم وحول المستقبل هى هدف العلاج والإرشاد.

وهكذا تتباين الأهداف تباينا كبيرا- كل نظرية قد حددت هدفها بحسب منطلقاتها الأساسية .

فإذا أردنا أن نتعرف على ما يمكن أن يكون عليه هدف أو أهداف الإرشاد فى المنظور الإسلامى فإنه من السهل أن نقول أن الهدف الوحيد هو مساعدة المسترشد على العودة إلى طريق الدين الصحيح، ومساعدته على الالتزام بتعاليمه عقيدة وشريعة .. وقد يتأتى ذلك من خلال جميع الأهداف التى تراها نظريات الإرشاد والعلاج النفسى ولكن بعيدا عن التصورات الوضعية، فالوعى هام والمسئولية هامة وحل الصراع الداخلى هام والاهتمام بالآخرين هام ، وتغيير السلوك هام- ولكنها فى صور غير التى نادى بها المنظرون فى الإرشاد والعلاج النفسى الغربى، فالوعى ينطلق إلى الكون ليساعد المسترشد على إدراك حقيقة وجوده فى هذا العالم، وحاجته إلى خالقه، خالق هذا الكون، وتعميق جانب العقيدة، وكذلك إدراك دوره ومسئوليته فى هذا العالم فى إطار من غايته الأساسية، عبادة الله سبحانه وتعالى، وتحقيقا لوظيفته وهى الخلافة فى الأرض وعمارتها، وهكذا بالنسبة للمسئولية وبالنسبة لحل الصراعات وغيرها، فالمسئولية تبدأ بمسئولية الاعتقاد، مسئولية الوفاء بالعهد الذى قطعه بنو آدم على أنفسهم، والذى يحملونه فى فطرتهم، الإقرار لله وحده بالإلهية والربوبية، وتمتد المسئولية إلى مسئولية العبادات فى زمانها وأماكنها ومسئولية الأدوار

التى يقوم بها المسلم ، مسئولية الجهاد والدفاع عن دينه ووطنه، ومسئوليته نحو المجتمع بدءاً بالجار وبالمحتاجين وشمولا لكل ما يدخل إليه من علاقات وعقود وعهود ... فالمسئولية شاملة يؤكدها حديث الرسول ﷺ :

«عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» (متفق عليه) .

فإذا اختار المرشد أحد الأهداف ليتبناها فى عمله الإرشادى فإن عليه أن يتبنى هذا الهدف فى إطار إسلامى وليس بمعزل عن هذا الإطار. فالصراع كما يراه المسلم هو الصراع بين الخير والشر، هو نزغ من الشيطان تديره النفس الأمارة بالسوء وهو ليس مقصورا على الرغبات الجنسية كما يراها فرويد وإنما يشتمل على كل الشرور والآثام فى مقدمتها وعلى رأسها أكبر الكبائر وهو الشرك بالله، وحل الصراع لن يكون بغض الطرف من جانب الأنا عن بواعث الهو كما فى نظرية التحليل النفسى، ولكنه هو بالعودة إلى المعيار الذى نحتكم إليه منهج الحق منهج الدين ومن ثم فإن حل الصراع يكون بتقوية الإرادة وبمجاهدة النفس وترويضها على الخير وعلى مقاومة الشرور والآثام ابتداء من ورودها كخواطر.

دور المرشد أو المعالج :

تباينت نظريات الإرشاد فى الدور الذى يقوم به المرشد والإجراءات التى يتبعها فى عمله تباينا واضحا، فبعض النظريات مثل التحليل النفسى رأوا فيه الطبيب الذى يتعامل مع المريض، حتى أن هذا المريض يأخذ وضع الرقاد كما فى حالة الأمراض البدنية، والبعض كما فى المدرسة السلوكية رأوا فيه المعلم الذى يتعامل مع متعلم أو تلميذ، ورآه البعض على أنه الصديق الرفيق المستمع

وهو لا يفعل شيئا أكثر من توفيره لمناخ دافئ في العلاقة الإرشادية، ثم كل شيء سيتداعى تلقائيا!! وهذا الموقف الذى اتخذه روجرز حتى أطلق البعض على نظريته (العلاج المتمركز حول الشخص) اسم العلاج أو الإرشاد باستخدام العلاقة. أما المدرسة المعرفية فقد يتميز مرشدوها ومعالجوها بالقدرة على البحث عن الأخطاء فى التفكير أو التصورات والاتجاهات وتصحيحها، ومازال آخرون مثل أيريك بيرن فى العلاج بتحليل التعاملات وبيرلز فى العلاج الجشطلتى يرون فى موقف الإرشاد والعلاج ما يشبه المسرح الذى تمارس عليه مجموعة من الألعاب التى يديرها المرشد أو المعالج ..

ورغم أن النظريات ربما تتفق (ضمنا) على أن المرشد يجب أن يكون لديه الاستعداد لتقديم المساعدة للمسترشد، وأن يكون لديه الخبرة والعلم الكافيان لذلك؛ إلا أن بعض النظريات ترى أن يكون المرشد هو المسيطر على الموقف والمحرك له، وبذلك يكون نشطا فى الدور الذى يقوم به كما فى المدرسة السلوكية وفى نظرية العلاج العقلانى الانفعالى وفى العلاج الجشطلتى ، بينما ترى نظريات أخرى مثل العلاج المتمركز حول الشخص أن المرشد أشبه بلوح الترسيب Catalyst، حيث يصغى إلى ما يقوله المسترشد ولا يعمل له شيئا أكثر من مجرد توفير مناخ مناسب محوره التقبل الذى يساعد المسترشد فى غياب شروط الأهمية على أن يستبصر بمشكلته، وأن يلتقط خبراته المبعدة ويتعامل معها فى ذات جديدة .

والمشكلة التى تصادفنا من وجهة النظر الإسلامية- ليس فيما يوفره المرشد من علاقة وطبيعتها، وإنما فيما يقحمه المرشد على موقف الإرشاد من أفكار ومعتقدات وقيم وتفسيرات ليس لها مرجع موضوعى ، وإنما تتوقف على المرشد نفسه، ففى التحليل النفسى نجد التعامل مع الأحلام ومع مواد لاشعورية، ومن منطلق تفسيرات تعتمد على الرمزية الجنسية - وفى العلاج العقلانى الانفعالى يحاول المرشد أو المعالج التقاط بعض أفكار المسترشد وتسميتها بأنها

غير عقلانية أو غير منطقية ثم مهاجمتها ربما بدون أي موضوعية ، وإقناعه بأفكار(أكثر منطقية) من وجهة نظر المرشد، كما أن ما وصفه روجرز بأنه موقف أمن أو علاقة ذات خصائص معينة تقوم أساسا على إلغاء شروط الأهمية التى قد تكون فى بعض الأحيان بل فى أكثر الأحيان شروطا أكثر موضوعية ولها أهمية عالية للصحة النفسية للمجتمع ككل، وأن إسقاطها قد يخرج لنا أشخاصا لاتحكمهم معايير ولا قيم.

فإذا جئنا للمنهج الإسلامى- نجده المنهج المتسق والمناسب لطبيعة البشر، فالمرشد ينطلق فيه من ثوابت جاءته من المصادر الإسلامية وفى مقدمتها القرآن الكريم كلام الله المنزل على رسوله، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنة نبيه الذى لا ينطق عن الهوى والأسوة الحسنة للمؤمنين- ومن هنا فإن المرشد يتخلق بخلق الإسلام صفات وينتهج منهج الإسلام عقيدة وشريعة فى إدارته العمل الإرشادى أو العلاجى، فلا مجال لخلاف بين مرشد وآخر لا مجال للغموض الذى رأيناه فى بعض النظريات (مثلا التحليل النفسى لفرويد، والعلاج بتحليل التحويلات لإيريك بيرن والعلاج الجشطلتى لبيرلز) ولامجال لفوضوية الحكم على النحو الذى يقترحه بيرلز وروجرز، ولا مجال لتعنت فى رمى بعض الأفكار بعدم المنطق لإثبات أنها هى سبب الخلل أو الاضطراب النفسى كما يفعل ألبرّت إيليس - ولقد نجمع من الصفات الكثير مما يتصف به المؤمنون لنقول أنها تناسب عمل المرشد. ولقد تلخص هذه الصفات فى تقوى الله والإخلاص فى العمل والرفق بالمسترشدين. فنجد تحديدا واضحا لعمل المرشد- ولنأخذ مثالين مما ورد فى السنة النبوية يتبين منهما كيف يعمل المرشد مع المسترشد .

١- روى أبو إمامة أن غلاما شابا أتى النبى ﷺ فقال له : يا نبى الله تأذن لي فى الزنا؟ فصاح الناس به، فقال عليه الصلاة والسلام «ادن» فدنا حتى جلس بين يديه. فقال النبى ﷺ ! «أتحبه لأمك» فقال لا .. جعلنى الله فداك.

قال عليه الصلاة والسلام« كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لابنتك؟»
قال لا .. جعلنى الله فداك. قال«كذلك الاناس لا يحبونه لبناتهم. أتحبه
لأختك» قال لا .. جعلنى الله فداك. فوضع النبى ﷺ يده على صدره وقال :
«اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه» ، فلم يكن شىء أبغض إليه منه
(يعنى الزنا) (رواه أحمد)

وهذا الحديث الشريف يشتمل على نموذج كامل للإرشاد حيث يتبين منه :

١ – أن الشاب وجد الحرية فى أن يخاطب الرسول ﷺ ، لعلمه أنه بالمؤمنين رءوف رحيم وأنه هو المرشد والمعلم لهم فى أمور دينهم ودنياهم.

٢ – أنه عندما صاح الناس به، دعاه الرسول ﷺ ليدنو منه. وهذا الاقتراب هو الذى يتحقق من خلال العلاقة الإرشادية، وجها لوجه والتى تصبح بذلك علاقة خاصة مع السائل نفسه رغم وجود الآخرين فى نفس المجلس .

٣ – أن الرسول ﷺ لم ينتقد الشاب أو يغضب منه أو يعنفه، حيث إنه طلب رخصة ليأتى كبيرة من الكبائر، وإنما بدأ ﷺ بما علمه الله وآتاه من الحكمة فى عملية تعليمية عظيمة من خلال رحلة عقلية عميقة .

٤ – وفى هذه الرحلة العقلية يوجه الرسول ﷺ سؤالا وينتظر من الشاب الإجابة عليه .

ويبدأ السؤال بعبارة أتحبه؟ وهذه الصياغة للسؤال توجه الشاب نحو استحضار صورة عقلية فيها الحدث وفيها الانفعال والمشاعر: أتحبه لأمك؟ ومن أعز على الإنسان من أمه؟

وتأتى الإجابة ربما بصورة فورية لكنها بناء على ما ربيت عليه النفوس فى ظل الإسلام، بل وما تقرره الفطرة السليمة «لا» جعلنى الله فداك. وهذه العبارة فى مجملها تدل على ما أفعم به الشاب حين تخيل ولو لبرهة قصيرة أن يحدث هذا لأمه.

ولا يتركه الرسول ﷺ لهذا الاستنكار وإنما يكمل له الصورة .. كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، فإذا كنت أنت يا من تطلب هذه الرخصة تأبى حدوثه لأمك وتنفر على هذه الصورة فما بالنا بأولئك الذين يرفضون مجرد التفكير فيه . وجانب من النساء هم أمهات الآخرين .

وتستمر هذه المخاطبة العقلية «أتحبه لابنتك؟» والابنة جزء من المرء .. وتأتى الإجابة من الشاب: لا .. جعلنى الله فداك – ويعقب الرسول ﷺ ليدله على مبعث هذا السؤال «كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم»– بمعنى أنك بهذا توقع أذى كبيرا على آباء لبنات، وتتصل المخاطبة «أتحبه لأختك؟» وتأتى الإجابة كسابقتها لا .. جعلنى الله فداك .. نفس الرفض المصحوب بنوع من الانزعاج لمجرد تخيل أن يحدث هذا لواحدة من محارمه ، وفى رواية للحديث تساؤل عن العمة وعن الخالة أيضا .

٥ – لم يتوقف الرسول ﷺ عند حدود هذه الإجابات التى طمأنته إلى أن الشاب قد محا هذا الخاطر من نفسه وعدل عن طلبه بل واستنكره فى طى إجاباته استنكارا يدل على أنه أنكر على نفسه الإقدام على هذا الطلب، وإنما يواصل الرسول ﷺ الذى قال الله فى حقه « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» يواصل عطاءه وهديه فيضع يده الشريفة على صدر هذا الشاب موضع قلبه ويدعو له : اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه ، وحصن فرجه .. وهذه الكلمات الطيبات والدعوات الصالحات هى خير ما يختم به الهادى البشير هذا الموقف الارشادى الذى يحضره كثيرون يتعلمون فى هذه المخاطبة الكريمة وما ورد عليها من ردود ويعيشون نفس الرحلة العقلية ويتوقعون تلك الإجابة من الشاب ، ويصلون فى أنفسهم إلى نفس الاستنكار – وتبدو لهم كما بدت لهذا الشاب حكمة الشارع جل وعلا فى تحريم الزنا ..

لم يقل الرسول ﷺ . انتهى النقاش أو لعلك تكون قد عرفت حمق طلبك–

وإنما أعطاه لمسة حانية لمست شغاف قلبه بيده الشريفة وهو يدعو له بطهارة القلب ومغفرة الذنب وتحصين الفرج.

وكما قلت فإن هذا النموذج من السنة النبوية يعطينا أسس العلاقة بما فيها من التقبل والمعرفة بطبيعة المسترشد وتقريبه ومواجهته ثم العمل مع مشكلته من المستوى الذى تنطلق منه- فالمستوى هنا هو مستوى عقلى، خاطر، ونزغ من الشيطان سول لهذا الشاب أن يأتى ليطلب الرخصة فى أمر عظيم- ولكنه لم يرتكبه لأن الشرع يمنعه فهو يداخله جانب من الإيمان، ولأن هذا خاطر أو فكرة طارئة فإن الرسول عليه الصلاة والسلام قد خاطبه من مستوى هذا الخاطر، المستوى العقلى- وجعله يتصور ولو لبرهة قصيرة أن يحدث هذا، لم يقل له ماذا تكون مشاعرك وإنما كان السؤال حاسما «أتحبه؟» وهذا السؤال يحمل فى داخله عددًا من الجوانب تتفاعل مع بعضها البعض ، جانب إدراك ، وجانب صورة وجانب مشاعر، ولمن ؟ لواحدة ممن يطالب المرء أن يدافع عنهن بدمه- كذلك نلمس أن بداية العلاقة هى تقريب «أدن» وختام الموقف أو العلاقة المرتبطة به دعاء كريم .

٢ - عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا من الأنصار جاء النبى صلى الله عليه وسلم ليسأله : فقال «لك فى بيتك شىء؟» قال : بلى حِلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقدح نشرب فيه الماء، «قال ائتنى بهما» قال فأتاه بهما فأخذهما رسول الله ﷺ بيده ثم قال : «من يشترى هذين؟» فقال له رجل : أنا آخذهما بدرهم قال «من يزيد على الدرهم؟» مرتين أو ثلاثا، قال رجل أنا أخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الانصارى، وقال «اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فأتنى به» ففعل، فأخذه رسول الله ﷺ فشد فيه عودا وقال «اذهب واحتطب ولا أراك خمسة عشر يوما» فجعل يحتطب ويبيع فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فقال «اشتر ببعضها طعاما وببعضها ثوبا» ثم قال «هذا خير من أن تجىء والمسألة نكتة فى وجهك يوم

القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لذى فقر مدقع، أو لذى غرم مفظع أو دم موجع» (رواه ابن ماجة)

وهذا الحديث الشريف يعطينا أيضا نموذجا متكاملا من الإرشاد تنقله لنا السنة المطهرة. فالرجل له حاجة دفعته إلى أن يأتى إلى الرسول ﷺ ويسأله أن يعطيه، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام يسأله : ألك فى بيتك شىء؟ بهذا السؤال فإنه ﷺ يسأل عن إمكانيات الرجل المادية ومن أقل الأشياء يبدأ الرسول الكريم فى تكوين رأس مال لهذا الرجل- درهمين- يوجهه أن يشترى بواحد منهما طعاما ينبذه لأهله وبالثاني قدوما، والقدوم هو الأداة التى يمكن أن يستخدمها الرجل فيما وجهه إليه الرسول ﷺ ، وهو الاحتطاب، وعندما يحضر الرجل القدوم يشترك ﷺ بأن يشد له فيه عودا - ثم يعطيه فرصة خمسة عشر يوما يواجه فيها الواقع ويبذل فيها طاقته فى العمل الذى يقوم به . وعندما عاد الرجل كان قد عمل ، وباع واشترى. واطمأن الرسول ﷺ إلى أنه قد تغير من موقف المسألة إلى موقف العمل والإنتاج فيكمل ﷺ إرشاده الحكيم مبينا له أن هذا الذى قام به من عمل وبيع وشراء والاستفادة من طاقاته البدنية التى وهبها الله له أفضل مما جاء يبحث عنه وهو الصدقة- فهذا البيان يمثل مقارنة بين ما جاء به وما انتهى إليه، وهذا يعنى ما حدث من تغير خلال الأسبوعين - ويزيد الهادى البشير الموقف وضوحا ببيان المواقف التى تقبل فيها المسألة وهى حالة الاضطرار الشديد. ويشتمل هذا الحديث الشريف على الجوانب الإرشادية التالية :

١ - جمع المعلومات غير الظاهرة عن الفرد ، والمرتبطة بالموقف أو المشكلة التى جاء بها : «ألك فى بيتك شىء»؟

٢ - المشاركة العملية من جانبه ﷺ وهو يرشد الرجل، عندما طلب منه أن يأتيه بما عنده (حلس وقدح) ثم عرضه لهما للبيع مرة وراء مرة للحصول على أكبر ثمن لهما. وعندما جاء الرجل بالقدوم اشترك ﷺ فى إكمال القدوم بأن شق عودا ووضعه فى القدوم .

٣ – تحديد فترة زمنية للرجل وهى خمسة عشر يوما تكفى ليمارس هذا العمل وليحدث التغير المطلوب الذى يجعله يلامس الواقع ويحس بلذة العمل وبما يدره عليه من دخل.

٤ –عندما عاد الرجل بعد هذه المدة كانت الحالة قد تغيرت فوجهه ﷺ إلى كفاية حاجاته، الطعام والملبس ..

٥ – ثم بين ﷺ أن هذا الذى صار إليه الرجل أفضل مما جاء من أجله– أى أنه حقق تغيرا إيجابيا فى الاستفادة من قدراته والسعى على عيشه بدلا من الاعتماد على المسألة «هذا خير من أن تأتى والمسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة».

٦– ثم يبين ﷺ سبب المفاضلة فيقول «إن المسألة لا تكون إلا لذى فقر مدقع أو لذى غرم مفظع أو لذى دم موجع» وهذه الجوانب هى التى لا يمكن للفرد أن يواجهها بإمكانياته الحاضرة بل وربما لا يستطيع الوفاء بها من مجرد العمل.

ونحن مرة أخرى فى هذا الحديث نلمس التوجيه العملى القائم على المعلومات، بعض المعلومات يجيب عنها المسترشد وبعض المعلومات كانت ظاهرة أمام المرشد المعلم ﷺ وهى قوة الرجل البدنية، وما يمكن أن يقوم به من عمل، ثم المقارنة فى نهاية الموقف بعد فترة من الزمن، بين ما كان عليه وبين ما صار إليه هذا الرجل. وبهذه البداية وهذه النهاية نكون قد مررنا مع هذا الرجل بتجربة عملية كاملة. ونكون قد عرفنا مبدأ تقويم النتيجة. ولا يشتمل النموذج كما رأيناه على أى جانب غامض وإنما كله ملامسة للواقع العملى وتنمية عنصر المسئولية والواقع والاعتماد على الطاقات الذاتية والاتجاه نحو الإيجابية، ثم البيان العقلى عن الأحوال التى تجوز فيها المسألة، وهذا النموذج الذى رأيناه فى هذا الحديث الشريف يعتبر أول بيان شامل نتعلم منه التوجيه والإرشاد المهنى، والذى مازال البعض ممن يتحدثون عن هذا النوع من الإرشاد ينسبون بدايته إلى بارسونز وكتابه الذى جعل عنوانه كيف تختار مهنة ١٩٠٩م.

والباحث المطلع فى المصادر الإسلامية القرآن والسنة ، وكذلك فيما حفظه لنا التراث من أعمال السلف الصالح بوسعه أن يتعرف على عديد وعديد من

النماذج الإرشادية التى تحوى ما يفوق كثيرا كل ما يتحدث عنه المنظرون فى مجال الإرشاد، ناهيك عن الفرق الهائل بين الإرشاد الذى يبنى على النور وعلى الحق، ويقوم على مصدر رباني يتمثل فى الوحى وفى السنة وبين ما يخترعه أو يعتقده كل منظر من هؤلاء المنظرين تطويرا لمقولة قال بها كاتب أو شاعر أو ربما لمجرد نقض نظرية سبقه بها منظر آخر ..

مرة أخرى نقول– إنه ولو تشابهت بعض الأساليب الإرشادية الحديثة فى ظاهرها مع أساليب إسلامية، فى القرآن وفى السنة، فإن الإطار يختلف، فالإطار الإسلامى منهج شامل يشمل كل جوانب حياة الإنسان، وهو منهج ربانى لا يترك لاجتهاد البشر ولا لمنطلقاتهم الذاتية بما فيها من صحة أو مرض. فإذا لمسنا أن أسلوبا من الأساليب يناسبنا إسلاميا فلا يمنعنا مانع أن نقبل إجراءاته إذا كانت تساعدنا على فهم ما لدينا أو على التوسع فى الاستفادة به، دون أن نقبلها فى أطرها النظرية أو المنطلقات التى بنيت عليها، أو ماتترك فيه الجوانب الشخصية للقائم على تطبيقها ، فكما رأينا فإن كثيرا من هذه المنطلقات لا يناسبنا إسلاميا. ولعلنا نتناول بمشيئة الله تعالى الإرشاد والعلاج النفسى من منظور إسلامى فى مؤلف مستقل .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المراجع

- الشناوى محمد محروس

الإرشاد والعلاج النفسى من منظور إسلامى فى : ندوة نحو علم نفس إسلامى.. المعهد للفكر الإسلامى القاهرة ١٩٨٩م.

- الشناوى محمد محروس

الأهداف العامة لمساعدة الأفراد على مواجهة مشكلاتهم النفسية كما تعرضها نظريات الإرشاد والعلاج النفسى الغربية، دراسة تقويمية فى ضوء المنهج الإسلامى . فى ندوة التأصيل الإسلامى للخدمة الاجتماعية . المعهد العالي للفكر الإسلامى . القاهرة ١٩٩١م.

- الشناوى محمد محروس

التصور الإسلامى لنماذج السلوك البشرى: دراسة نفسية إسلامية ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية : العدد الثامن ١٤١٣هـ/١٩٩٣م

- الشناوى محمد محروس

خصائص شخصية المسلم فى جانب من كتابات الإمام ابن القيم، رسالة التربية وعلم النفس – ع ٥ ص ص ٧٧–١٣٢ ١٤١٦هـ/١٩٩٥م

- Herengehahn' B . R . (1980) An Introduction to theories of Personality Englewood Chiffs . N . J . Prentice- Hall.

البحث الخامس

الإرشاد والعلاج النفسى من منظور إسلامى

* ألقى فى ندوة نحو علم نفس إسلامى - المعهد العالمى للفكر الإسلامى القاهرة - ذو الحجة ١٤٠٩ هـ يوليو ١٩٨٩ م .



الإرشاد والعلاج النفسى (*) من منظور إسلامى

مقدمة :

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ليقوم بواجب العبادة لله وحده ، وليحمل مسئولية الخلافة فى الأرض وعمارتها، وسخر لهذا الإنسان ما فى السموات وما فى الأرض جميعا. خلقه الله على الفطرة وأودع فيه صلة تصله بخالقه سبحانه وتعالى، ثم هداه السبيل فكان من الناس الشكور وكان منهم الكفور ...

وحين انحرف الناس عن تحقيق ما أنيط بهم من عبودية لله الواحد الأحد والقيام بواجب الخلافة فى الأرض على الوجه الذى شرعه الله لهم بعث الله الرسل مرشدين وهادين. ناصحين ومبشرين ومنذرين وهدفهم الأول أن يعود الناس إلى الإيمان وإلى الطريق المستقيم ، طريق الخير الذى فطر الله الناس عليه...

﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ (البقرة ٢١٣)

إذن فهداية الإنسان وإرشاده بدءا من تصحيح عقيدته واستمرارا إلى كافة شئون حياته هى من السنن التى سنها الخالق سبحانه وتعالى لإصلاح حياة الإنسان. فكان الرسل وكان خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لما سبقه من رسالات ومتمما للهداية بشيراً ونذيرا إلى الناس كافة ، وكان الوحى المنزل

(*) بحث ألقى فى ندوة نحو علم نفس إسلامى : القاهرة يوليو ١٩٨٩ م ذى الحجة ١٤٠٩ هـ .

عليه القرآن الكريم نورا وهداية ، وسنته المطهره نبراسا بهما اهتدى السلف وعليهما يصلح أمر الخلف بإذن الله – ويستمر المنهج الإلهى فى الإصلاح تحقيقا لأمر سبحانه وتعالى .

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ (آل عمران ١٠٤)

والإرشاد والعلاج النفسى–كما يراهما الباحثون المعاصرون فى مجال علم النفس يشتملان على علاقة مباشرة بين مرشد (أو معالج) مستبصر وقادر على التعليم وعلى مساعدة الآخرين، وبين مسترشد (أو مريض) بحاجة إلى الاستبصار وإلى تعلم كيف يعدل سلوكه ويحل مشكلاته وينهج حياة متوافقة. إذن فمضمون الإرشاد والعلاج النفسى هو مساعدة يقدمها شخص لديه القدرة والمعرفة والاستعداد الشخصى (لتقديم المساعدة) إلى شخص آخر فى موقف مشكلة سواء كانت هذه المشكلة ناتجة عن اضطرابات فى التفكير أو فى السلوك (الأفعال والأقوال) أو فى المشاعر . ومن هذا المنطلق ظهرت نظريات عديدة فى الغرب تتناول الإرشاد والعلاج النفسى ، وتلاطمت هذه النظريات فيما بينها تلاطم الأمواج–كل منها يدعى لنفسه القدرة على تغيير السلوك أو القدرة على تغيير نمط التفكير أو القدرة على تغيير المشاعر ، أو فى بساطة، كل منها يدعى لنفسه مقدرة على مساعدة المسترشدين على مواجهة مشكلاتهم وتعديل سلوكهم وتحقيق التوافق النفسى .

ولكن واقع الأمر يشير بشكل واضح إلى أن هذه النظريات لم تصل بعد إلى تحقيق ما تدعى لنفسها أنها تحققه–بل وعلينا أن نجزم أن أيا منها عاجز عن تحقيق الأمن النفسى لمن يعالجون فى ظلها. ذلك أن الأسس التى تقوم عليها هذه النظريات لا تزال أسسا منقوصة لأنها ابتعدت عن المنهج الإلهى.

والمرشد المسلم الذى يعى عن يقين أنه يتعامل مع نفس لها خصائصها ومع انحرافات ومشكلات لها أسبابها وأن للإنسان غاية أساسية وهى عبادة الله

سبحانه وتعالى وحده، ووظيفته هى الخلافة فى الأرض، هذا المرشد هو أكثر احتياجا أن يقيم عمله على أساس من المنهج الربانى كما يتمثل فى إسلامنا الحنيف، وفى نفس الوقت يدرك الباحث المحقق أن الإسلام يحوى فى مصادره الأساسية القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ما هو فوق النظريات ، يحوى الحقائق الثابتة. قد يختلف فهم باحث لها عن فهم غيره ولكن هذه الرؤى تجتمع على حقائق ثابتة تخبو أمامها النظريات الوضعية ، وعلى منهج لا يضل من تمسك به .

من هذا المنطلق كانت هذه المحاولة فى إعداد تصور مبسط لعمل المرشد المسلم على ضوء من المنهج الإسلامى، وهى محاولة ندعو معها كل باحث فى مجال الإرشاد والعلاج النفسى أن يبحث ويتعمق فى بحثه ليثرى مثل هذه المحاولات وأن يؤمن عن يقين أن المنهج الإسلامى يكفل له الهداية فى عمله وتحقيق ما يصبو إليه من خير للمسترشدين .

٢ - لماذا تخفق نظريات الإرشاد والعلاج النفسى الغربية :

لقد تزايد عدد النظريات الخاصة بالإرشاد والعلاج النفسى التى نشأت فى الغرب حتى وصفها أحدهم بأنها غابة[١] ورغم هذه الزيادة الكبيرة فى النظريات إلا أن النتائج التى تحققت بتطبيق المعالجين والمرشدين لها كانت دون ما أعلنه أصحابها عنها -حتى أن بعض الباحثين يرى أن نسبة شفاء المرضى الذين لم يعالجوا بأى نظرية مساوية لمن تنتهى مشكلاتهم باستخدام علاجات تستند لهذه النظريات. ونعرض فيما يلى لبعض الأسباب التى أدت إلى إخفاق هذه النظريات فى تحقيق ما صوره أصحابها من نتائج لها :

١ - إن هذه النظريات تبنى أساسا على تصور فلسفى يراه أو يقتنع به صاحب النظرية حول طبيعة الإنسان. وعلى سبيل المثال فقد تصور فرويد الإنسان

---

(١) عن مقال :

Parloff M,Shopping for the Right Therapy. Saturday Review 1976

على أنه ذو طبيعة نزاعة للشر تحكمها غريزة الجنس وغريزة العدوان ولم يبتعد آدلر عن ذلك كثيرا وإنما فقط عدل منه واعتبر أن الإنسان يحكمة دافع النزوع إلى القوة والسيطرة، على حين أن مدرسة العلاج السلوكى التى أقامت طرقها على أساس من نظريات التعلم قد تعاملت مع الإنسان على أنه ذو طبيعة محايدة لا خير فيها ولا شر، وأن كل سلوك يسلكه الإنسان هو سلوك متعلم يخضع لقوانين للتعلم استنبطها الباحثون من تجاربهم على الحيوان فى المختبرات. وترك هؤلاء إنسانية الإنسان وعقله ومشاعره جانبا. وأما المجموعة الثالثة من النظريات التى تنتمى إلى المدرسة الإنسانية فرغم انتقادها الشديد لمدرسة التحليل النفسى لاختزالها الإنسان إلى غريزة حيوانية والمدرسة السلوكية فى اعتبارها الإنسان مجرد آلة لا إرادة له ولا عقل فإن هذه المدرسة (الإنسانية) أهملت جانب العقل وجانب التعلم ونظرت فقط إلى إنسانية الإنسان على أساس من مشاعره وادعت أن الإنسان خير بطبيعته وأن الشر غريب عليه .

٢ - إن هذه النظريات نظرت للإنسان من زوايا مختلفة-هى جانب الغريزة، أو جانب المشاعر، أو جانب السلوك- وهى زوايا تجعل الإنسان مختزلا إلى صورة أقل من كيانه الحقيقى الذى أودعه الله فيه والذى استحق به أن يكون الكائن المكرم.

٣ - إن هذه النظريات قد أغفلت من حسابها الجانب الروحى، ذلك الجانب الهام الذى يصل الإنسان بخالقه منذ خروجه للحياة، والذى يمثل أصل الفطرة فيه-وأغفلت من حسابها دافعا أساسيا يحتوى كل الدوافع ، هذا الدافع هو عبادة الله وحده-وهو المعنى الأساسى الذى يعرفه المسلم لحياته-فى الوقت الذى راح فيه المنظرون فى الغرب يفسرون المرض النفسى على أنه فقدان لمعنى الحياة وأن مساعدة المريض هى أن نساعده على أن يبحث عن معنى لحياته- وأى معنى سيبحث عنه إذا ضل عن غاية وجوده ؟

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات ٥٦)

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له . وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ (الأنعام ١٦٢- ١٦٣)

وبغياب هذا المعنى الأساسى : فى مجتمعات أهملت الدين وجرت وراء مادية زائفة وجدنا من يكتب كتبا ليقرأها الذين يخافون من الموت ويرتعدون منه-فى الوقت الذى يلقى فيه المؤمن الذى عمل الصالحات ربه وهو راض ومطمئن .

﴿يأيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾ (الفجر ٢٧-٣٠)

٤ - إن هذه النظريات رأت فى عناصر تكوين شخصية الإنسان جوانب وجوانب لم يكن الدين من بينها، ورأت لانحراف الإنسان أو انحراف شخصيته أسبابا، وأسبابا لم تضع من بينها انحراف عقيدته، وكيف نتوقع أن يصلح عمل الإنسان أو تطمئن نفسه وسط ضلال العقيدة ؟

٥ - إن المعايير التى يحكم بها أصحاب النظريات والمعالجون والمرشدون المستخدمون لها على سلوك الإنسان الذى يتعاملون معه والذى يعتبرونه سلوكا منحرفا إنما هى معايير وضعية لا يمكن أن ترقى إلى المعايير التى يزودنا بها المنهج الإسلامى- وعلى سبيل المثال فإن الروابط التى تنظم عمل المعالجين النفسيين فى الولايات المتحدة قد استبعدت الجنسية المثلية من الاضطرابات ورأت أن يترك لمن يمارسون هذا الشذوذ (فعل قوم لوط) حرية المثول للعلاج من عدمه.

٦ - إن جانبا كبيرا من نظريات العلاج النفسى قد أقامت بنيتها على أساس من أشياء غامضة وتفسيرات وهمية ينقصها البحث العلمى والتفكير المنطقى، بل وينكرها الذوق السليم ، وكلما ازدادوا فى غموضها ازداد البعض إعجابا

بها – ومن الأمثله على ذلك نظرية التحليل النفسى التى كان بعض المرضى يظلون تحت العلاج فيها لفترة تزيد على أربع سنوات من مشكلة قد تكون عارضة مثل الخوف من الظلام .

٣ – المباحث الأساسية للأطر النظرية للإرشاد والعلاج النفسى :

اعتاد المنظرون في مجال الإرشاد والعلاج النفسى أن يعتبروا خمسة مباحث أساسية عند تحديد الأطر النظرية للإرشاد والعلاج النفسى هى :

أولاً : طبيعة الإنسان .

ثانيًا : نمو الشخصية .

ثالثًا : الاضطراب النفسى أو نظرية للعصاب .

رابعًا : العلاج النفسى .

خامسًا : أهداف الإرشاد ودور المرشد .

وسوف نستعرض الإرشاد والعلاج النفسى الإسلامى باستخدام هذه المباحث حتى يمكن للمرشد او المعالج النفسى المسلم أن يتبين كيف أن المنهج الإسلامى يمده بأساس عميق يبنى عليه عمله الإرشادى أو العلاجى .

أولا : خصائص الإنسان على ضوء المنهج الإسلامى :

١ – الخير والشر فى طبيعة الإنسان :

من الأمور التى شغل بها واضعو نظريات الإرشاد والعلاج النفسى فى الغرب موقفهم من الخير والشر فى طبيعة الإنسان فانقسموا فى هذا الموقف إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى تنظر للإنسان على أنه مجبول على الشر تحركه نزعات الجنس والعدوان (مدرسة التحليل النفسى). والمجموعة الثانية ترى الإنسان محايدا وأن كل سلوك يسلكه إنما هو سلوك متعلم وأنه يتعلم الخير أو الشر من بيئته (المدرسة السلوكية). والمجموعة الثالثة ترى أن الإنسان مجبول على الخير والبناء وأن الشر أمر عارض بالنسبة له (المدرسة الإنسانية).

فإذا نظرنا إلى موقف الإسلام فى هذا الجانب وجدنا أن الإنسان الذى أعد لعبادة الله وحده وللخلافة فى الأرض وعمارتها إنما أعد لتحقيق الخير وزود بدوافع تساعده على القيام بهذه الواجبات فإذا اتبع المنهج الرشيد فى إشباعها فإنه يحقق أصل فطرته. وإذن فالإسلام يرى أن الإنسان يولد خَيِّراً وأن الشر أمر طارئ عليه وفى هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء). ويقول الدكتور جعفر شيخ إدريس فى هذا الجانب [٢] .

(فالفطرة هى الخير الذى ولد عليه الإنسان، وهى الإسلام أى أن الإنسان ولد بتركيب عقلى ونفسى يتناسب مع حقائق الإسلام وقيمه ، وأن هذا الخير الذى فطر عليه ينمو بنموه العقلى والنفسى إذا سلم من المؤثرات الخارجية البشرية والشيطانية .

ومما فطر عليه الإنسان وهو من الأصول التى بنى عليها الدين :

١ – التوحيد .

٢ – المبادئ العقلية التى تسمى بالقواعد المنطقية .

٣ – أصول القيم الخلقية .

٤ – أصول القيم الجمالية .

٢ – الإنسان هو الكائن المكرم :

فقد اختص الخالق جل وعلا بنى آدم بالتكريم والتفضيل، وهذا التكريم هو من الأمور العظيمة التى تشمل فروعا لا حصر لها– فهو تكريم فى الخلق، وتكريم بالعقل، وتكريم بالميثاق الذى أخذه عليهم، وتكريم بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، وتكريم بأن سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض. وقد كرمهم الله بإعلان خلق آدم واستخلافه فى الأرض وإسجاد الملائكه له .

---

(٢) من محاضرة للدكتور جعفر شيخ إدريس فى الحلقة العلمية عن توجيه وإرشاد الشباب ألقيت بكلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية رجب ١٤٠٥هـ.

ولأنه الكائن المكرم فقد اختصه الله بالتكاليف وحمله الأمانة وجعله مسئولا عما يعمل. ولأنه الكائن المكرم فقد كفلت الشرائع حماية ضرورياته وهى الدين، والنفس، والعقل، والمال، والنسل.

٣ - المخلوق المسئول :

فالإسلام يقرر مسئولية الفرد عما يعمل، فلا يؤخذ واحد بوزر آخر ولا أمة بوزر أمة أخرى.

﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ (الطور ٢١)

﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾. (البقرة ١٣٤)

يقول العقاد فى هذا الصدد : [٣]

«أما مناط المسئولية فى القرآن فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل إليه فقر الباحثين عن حكمة التشريع الدينى أو التشريع فى الموضوع فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة فى تبليغ وعلم وعمل ، فلا تحق التبعة على أحد لم تبلغه الدعوة فى مسائل الغيب ومسائل الإيمان (ص ١٠) .

﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ (الإسراء ١٥)

ونتيجة هذه المسئولية نجد أن القرآن قد وصف الإنسان بغاية من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف، وبغاية الذم دون غيره من الخلائق حين ينحدر إلى الدرك الأسفل نتيجة تهاونه فى التكاليف ؛ لأنه دون غيره أهل للإيمان والعدل والرجحان والعفاف .

﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ (إبراهيم ٣٤)

﴿إن الإنسان لفى خسر﴾ (العصر ٢)

---

(٣) انظر عباس محمود العقاد-الإنسان فى القرآن-مجموعة عباس محمود العقاد الإسلامية دار المعارف- القاهرة ب ت

٤- الكائن المكلف :

والإنسان مكلف بما كرمه الله به أساسا من نعمة العقل، ولهذا فقد تعدد فى القرآن مخاطبة الإنسان بهذه النعمة وكل ما يوصل إليها وكل وظيفة هى لها، فالعقل وازع يعقل صاحبه عن البطلان، والعقل رشد، والعقل روية، والعقل بصيرة «أفلا يعقلون» «أفلا يتفكرون» «أفلا يبصرون» «أفلا يتدبرون» «أليس منكم رجل رشيد» «أفلا تتذكرون».

ويرى الأستاذ العقاد أن وصف الإنسان بالكائن المكلف أصوب من وصفه بالكائن الناطق فيقول فى هذا الجانب (٤).

«مكان الإنسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة وفى ميزان الفكر وفى ميزان الخليقة الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات، هو الكائن المكلف» .

«هو كائن أصوب فى التعريف من قول القائلين «الكائن الناطق» وأشرف فى التقدير. هو كائن أصوب فى التعريف من الملك الهابط، ومن الحيوان الصاعد، وأشرف فى التقدير من هذا وذاك، ليس الكائن الناطق بشىء إن لم يكن هذا النطق أهلا لأمانة التكليف، وليس الملك الهابط منزلة تهدى إلى طريق الصعود أو طريق الهبوط، وليس الحيوان الصاعد فى منزلة الفصل بين ما كان عليه وما صار إليه، ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال فى طريق الارتقاء. إنما الكائن المكلف شىء محدود بين الخلائق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة، وحادث من حوادث الفتح فى الخليقة، موضوع فى موضعه المكين بالقياس إلى كل ما عداه». (ص١٧) .

٥ - روح وجسد :

فالإنسان ذو طبيعة مزدوجة له جسد أو حاجات تصله بدنياه وتساعده على القيام بمطالب حياته ، وله روح ذات حاجات تصله بخالقه سبحانه، وهذا

---

(٤) المرجع السابق .

الكيان مع الازدواجية قائم على التوازن فلا يطمئن إلا إذا تعادلت قوتاه، ولكن هذا الازدواج فى الحقيقة يندمج ليجعل من الإنسان كلا متحدا. وحين نعود إلى ما سبق أن ذكرناه لتحقق لنا أن المطلب الأساسى فى حياة الإنسان هو عبادة الله وحده وأن وظيفته العابرة فى الدنيا هى عمارة الأرض ولا يتحقق الأمران إلا بسلوك الإنسان سلوكا متسقا بين مطالب الروح ومطالب الجسد.

يقول الأستاذ محمد قطب : (٥)

«ليس هذا هو القرار الأخير فى كيان الإنسان، وإنما نصل إلى قراره حين ندرك أنه فى الحقيقة كيان موحد، برغم ما فى طبيعته هذه من ازدواج ، كيان موحد كل ما ينبعث عنه من نشاط فإنما يصدر عن كيانه الموحد المتشابك المعقد التركيب».

وفى نفس الموضوع يقول الأستاذ العقاد : (٦)

«فالروح والجسد فى القرآن الكريم ملاك الذات الإنسانية تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما فى سبيل الآخر، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس الجسد حقا ليوفى حقوق الروح، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقا ليوفى حقوق الجسد. ولا يحمد منه الإسراف فى مرضاة هذا ولا مرضاة ذلك وعلى الله قصد السبيل... والقرآن الكريم ينهى عن تحريم المباح كما ينهى عن إباحة المحرم» (ص ٢٣).

وهذا الجانب يهم المرشد والمعالج، فالحياة لا تقوم على إشباع الحاجات المادية دون حاجة الروح ، والذين أشبعوا الحاجات المادية (حاجات الجسد) وتفننوا فى إشباعها إلى أبعد الحدود وتركوا جانب الروح ما رأيناهم إلا يشكون الضياع ويعايشون القلق ويبحثون عن معنى لحياتهم ومعنى لوجودهم فلا يجدون إلا الاكتئاب والانتحار ، إنهم يتحدثون عن فراغ وجودى وهو فى الواقع

---

(٥) انظر لتفصيل ذلك محمد قطب- دراسات فى النفس الإنسانية- دار الشروق.

(٦) انظر عباس محمود العقاد- الإنسان فى القرآن- مرجع سابق.

خواء روحى. وخواء إيمانى. وكيف يهتدى فى الحياة من ضل سعيه فيها وضلت روحه عن بارئها وحاد عن الميثاق الذى أخذه الله عليه وزاغ عن التكليف الإيمانى إلى البهتان ، وغرته الحياة الدنيا واطمأن إليها فأصبح ممن قال الله فيهم :

﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ (الفرقان ٤٤)

وبعد : فهذا الإنسان الذى يتعامل معه المرشد المسلم، إنسان مكرم، مكلف، مسئول، الخير فطرته والشر متعلم منه، تتقابل فيه حاجات الروح وحاجات الجسد، يعرف الغاية من خلقه ويعرف وظيفته فى الحياة، تتنازعه خطوط متقابلة، أبواب الرحمة مفتوحة له متى عاد إلى ساحة الإيمان، يعرف حقيقة دنياه ويوقن بحقيقة أخراه. إنسان تتضح صورته على ضوء المنهج الإسلامى أكثر وأوضح مما تصوره أى فلسفة أو تقوم به أى نظرية.

يقول الإمام ابن القيم : (٧)

«فاعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه أن كرمه وفضله وشرفه وخلقه لنفسه وخلق كل شيء له وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره، وسخر له ما سمواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته-الذين هم أهل قربه-استخدمهم له وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته، وظعنه وإقامته. . وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه وخاطبه وكلمه منه وإليه، فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات ......»

ثانيا : نمو الشخصية وتطورها على ضوء المنهج الإسلامى :

اهتم الإسلام اهتماما بالغا بتنشئة الفرد المسلم وتربيته وتعديل سلوكه وتصحيح عقيدته وتحقيق إنسانيته -وإذا تأملنا فى المنهج الإسلامى لأمكن أن نستخلص الجوانب التالية المتصلة ببناء وتطور الشخصية.

---

(٧) ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين فى منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣ أجزاء) القاهرة - دار الحديث د . ت .

١ – تتكون شخصية المسلم من خطين رئيسسيين يندمجان مع بعضهما البعض ليوجها معا سلوكه ، وهذان الخطان هما العقيدة والشريعة.

﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (البقرة١١٢)

﴿ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور﴾ (لقمان ٢٢)

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (الأحقاف ١٣)

﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا﴾ (النساء ١٢٥)

٢ – تقوم بنية الشخصية على وجود حالات متفاعلة للنفس هى النفس الأمارة والنفس اللوامة والنفس المطمئنة، والشخصية السوية فى نظر الإسلام، أى شخصية المسلم، هى التى تتمثل فى معظم حالاتها منهج النفس المطمئنة– وهذه النفس المطمئنة هى التى ينبغى أن يعتبرها الباحث المسلم معيارا للصحة النفسية. والاطمئنان يتحقق بالرضا والإرضاء .

﴿يأيتها النفس المطمئنه * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾ (الفجر ٢٧–٣٠)

وقد ناقش الإمام ابن قيم الجوزية هذه المسألة فى عدد من مؤلفاته فيقول : (٨)

«وقد وصف الله سبحانه وتعالى النفس فى القرآن بثلاث صفات : المطمئنة، والأمارة بالسوء، واللوامة، فاختلف الناس هل النفس واحدة وهذه أوصاف لها أم للعبد ثلاث أنفس، نفس مطمئنة ونفس لوامة ونفس أمارة، فالأول قول الفقهاء والمتكلمين وجمهور المفسرين وقول محققى الصوفية، والثانى قول كثير من أهل التصوف .

---

(٨) ابن قيم الجوزية : إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (جزءان) بيروت – دار المعارف د. ت.

والتحقيق : أنه لا نزاع بين الفريقين فإنها واحدة باعتبار ذاتها وثلاث باعتبار صفاتها- فإذا اعتبرت بنفسها فهى واحدة وإن اعتبرت مع كل صفة دون الأخرى فهى متعددة، وما أظنهم يقولون أن لكل واحد ثلاث أنفس كل نفس قائمة بذاتها ومساوية للأخرى فى الحد والحقيقة ، وأنه إذا قبض العبد قبض له ثلاث أنفس كل واحدة مستقلة بنفسها .

«فالنفس إذا سكنت إلى الله واطمأنت بذكره وأنابت إليه واشتاقت إلى لقائه وأنست بقربه فهى مطمئنة ..»

«وحقيقة الطمأنينه السكون والاستقرار فهى التى سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكر ه ولم تكن تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره، واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرضى به ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا ، واطمأنت إلى قضائه وقدره. واطمأنت إلى كفايته وحبه وضمانه، فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلهها ومعبودها ، ومالك أمرها كله وأن مرجعها إليه وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين.»

وإذا كانت بضد ذلك فهى «أمارة بالسوء» تأمر صاحبها بما تهواه من شهوات الغى واتباع الباطل، فهى مأوى كل سوء وإن أطاعها قادته إلى كل قبيح وكل مكروه. وقد أخبر سبحانه وتعالى أنها أمارة بالسوء ولم يقل آمرة لكثرة ذلك منها وأنها عاداتها ودأبها إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير فذلك من رحمة الله. .

وأما اللوامة فاختلف فى اشتقاق هذه اللفظة- هل هى من التلوم وهو التلون والتردد أو هى من اللوم، وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين.

والنفس قد تكون تارة أمارة وتارة مطمئنة، بل فى اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا ، والحكم للغالب عليها من أحوال ، فكونها مطمئنة

وصف مدح لها وكونها أمارة بالسوء وصف ذم لها، وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم بحسب ما تلوم عليه .

وفى هذا الصدد يقول شيخ الإسلام ابن تيمية :

«وهذه القسمة الثلاثية كما قيل الأنفس ثلاث أمارة ومطمئنة ولوامة فالأولون هم أهل النفس الأمارة التى تأمرهم بالسوء والأوسطون هم أهل النفوس المطمئنة التى قيل فيها ﴿يأيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾. والآخرون هم أهل النفوس اللوامة التى تفعل الذنب ثم تلوم عليه تارة وتتلوم تارة كذا وتارة كذا أو تخلط عملا صالحا وآخر سيئا وهؤلاء يرجى أن يتوب الله عليهم إذا اعترفوا بذنوبهم كما قال تعالى:

﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم﴾ (التوبة١٠٢)

وقد جانب الصواب بعض الباحثين فى مجال علم النفس حين عقدوا مماثلة بين هذه الحالات للنفس وبين ما أوردته نظرية فرويد عن الأنا والأنا الأعلى والهو، وهو ما نتناوله بالتفصيل فى دراسة أخرى إن شاء الله، فالحالات التى تحدث عنها القرآن للنفس وشرحها الأئمة فى كتاباتهم هى حالات تمثل سلوكيات معرفة ومحددة تعرف منها، وبالتالى فهى حالات ملموسة يمكن أن تعاير بمعايير المنهج الإسلامى، أما الحالات التى تحدث عنها فرويد فهى حالات تصورية وليس لها معيار واضح.

٣ – وسلوك الإنسان يقوم على أساس من دوافع تحرك هذا السلوك، ويمكن أن ننظر إلى دوافع الإنسان نظرة متفردة على ضوء المنهج الإسلامى فالإنسان له مطلب فطرى أساسى يسعى لتحقيقة وهو مزود به فى أصل خلقه ، وهذا المطلب الأساسى هو عبادة الله سبحانه وتعالى والعبادة كما يعرفها شيخ الإسلام ابن تيمية هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال

والأعمال الظاهرة والباطنة» [9] وهذا المطلب الأساسى يمكن أن يشتمل على كل ما يضعه المصنفون للدوافع من تصنيفات ومسميات سواء كانت دوافع أساسية أو ثانوية، فطرية أو مكتسبة. إن المطلب الأساسى لحياة الإنسان، وهو عبادة الله وحده وما ألزمه به سبحانه وتعالى من مسئولية عمارة الأرض والخلافة فيها إنما تشتمل على كل ما يدفع السلوك الإنسانى .

وهذا المطلب الأساسى لحياة الإنسان- هو مطلب فطرى فى أصل خلق الإنسان.

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون﴾ (الأعراف ١٧٢-١٧٤)

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات٥٦)

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين* لا شريك له ...﴾

(الأنعام ١٦٢- ١٦٣)

ولكى يقوم الإنسان بواجب العبادة مطلب الحياة الأساسى-لابد أن يستوفى للجسد حاجاته.وللنفس حاجاتها- ومن هنا فإن إشباع الحاجات المختلفة لا يتعارض مع الإسلام بل هو ضرورى للقيام بواجب العبادة ، ويتحقق ذلك بتوافر ثلاثة شروط تعتبر بمثابة ضوابط لها .

١ - أن تكون الحاجة أو الدوافع محققة للمطلب الأساسى وهو عبادة الله وحده وعمارة الأرض .

٢ - أن يكون إشباع الحاجات فى حدود ما أمر الله به وما نهى عنه ، أى أن يشبعها من حلال .

---

(٩) شيخ الإسلام أحمد عبد الحليم ابن تيمية (العبودية) بيروت - المكتب الإسلامى ١٣٩٩ هـ.

٣ - أن يلتزم فى إشباع حاجاته حد التوسط والاعتدال .

أما ما هى هذه الحاجات والدوافع التى تخدم مطلب الإنسان الأساسى، فإن ذلك يمكن أن يشتمل كما قلنا على ما يراه الباحثون فى علم النفس من دوافع وحاجات وغرائز ، ولكن المنهج الإسلامى كما قلنا يجعلها فى صورة تربطها بمطلب أساسى هو عبادة الله ، ومن ثم لا تقصرها على الحياة الدنيا وحركته فيها، وإنما أيضا تربطها بالحياة الآخرة ورصيده لها ، وكذلك فإن المنهج الإسلامى يضع الضوابط العليا لهذه الدوافع وهذه الحاجات حتى يتميز الإنسان عن مخلوقات أدنى منه تشترك معه فى بعض الحاجات. فإذا انحرفت هذه الدوافع، فإنها تدفع بصاحبها إلى طريق المهالك، وتبعده عن الطمأنينة ، ثم يتساءل المتسائلون بعد ذلك : ما معنى الحياة ؟ أطعام ولهو وتملك ؟. وتكون إجابة الإسلام :

﴿إن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ..﴾ (الزخرف ٣٥)

ولقد اهتم التشريع الإسلامى بالمحافظة على حاجات الناس ، فيرى الفقهاء أن مقاصد التشريع تتكون من ثلاثة أقسام: ضرورية، وحاجية، وتحسينية.

فالضرورية هى التى لابد منها لقيام حياة العباد بحيث لو اختلت كلها أو بعضها لاختل نظام حياتهم وعمتها الفوضى، والحاجيات هى الأمور التى تسهل للناس حياتهم وترفع الحرج والمشقة عنهم، والتحسينية هى التى تجمل بها الدنيا وتكمل، وهى التى ترجع فى جملتها إلى مكارم الأخلاق ومحاسن العادات.

ولكى تتحقق للإنسان طمأنينته فإنه يحتاج فى إشباع حاجاته أن يوازن بين حاجات الروح وحاجات البدن ، وفى هذا يقول الامام ابن القيم : [١٠]

«وأكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن فهو يتناول لذاته المباحة على نحو لا ينقص حظه من الدار الآخره ولا يقطع عليه

---

(١٠) ابن قيم الجوزية : الفوائد - القاهرة - مكتبة المتنبى : ب ت .

لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه فهذا من قال الله فيه ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ (الأعراف ٣٢)

وأبخسهم حظا من اللذة من تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات ﴿أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمعتم بها﴾ فهؤلاء تمتعوا بالطيبات وأولئك تمتعوا بالطيبات وافترقوا فى وجه التمتع، فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذى دعاهم إليه الهوى والشهوة، وسواء أذن لهم فيها أم لا، فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة فلا لذة الدنيا دامت ولا لذة الآخرة حصلت لهم : فمن أحب اللذة ودوامها، والعيش الطيب فليجعل لذة الدنيا موصلة إلى لذة الآخرة» .

٤ – وينظر المنهج الإسلامى إلى الشخصية على أنها تقع فى أحد أنماط ثلاثة – هم المؤمنون ، والكافرون ، والمنافقون ، والمجموعة الأولى هى التى تحقق مفهوم شخصية المسلم الحقيقى الصادق الإيمان ، وتفى بمعايير النفس المطمئنة وبشروط الإسلام والإيمان والإحسان، سلامة العقيدة وحسن العبادة والمعاملة. أما المجموعتان الأخريان فهما قد انحرفتا عن الصراط المستقيم، فالكفار هم الذين افتقدوا جانب العقيدة الإسلامية عقيدة التوحيد أو أحد أركانها والمنافقون هم فئة مذبذبة مترددة بين الإيمان والكفر .

٥ – ويفصل المنهج الإسلامى فى جانب سمات الشخصية ، فهو يحدد سمات المؤمنين، وسمات الكفار وسمات المنافقين، ويرى الأستاذ الدكتور محمد عثمان نجاتى أنه يمكن جمع السمات التى وردت فى القرآن تحت تسعة مجالات عامة رئيسية من مجالات السلوك هى : [١١]

---

(١١) محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس القاهرة : دار الشروق ١٩٨٥.

١ – سمات تتعلق بالعقيدة .

٢ – سمات تتعلق بالعبادات .

٣ – سمات تتعلق بالعلاقات الاجتماعية .

٤ – سمات تتعلق بالعلاقات الأسرية .

٥ – سمات خلقية .

٦ – سمات انفعالية وعاطفية .

٧ – سمات عقلية ومعرفية .

٨ – سمات تتعلق بالحياة العملية والمهنية .

٩ – سمات بدنية .

ويجانب ما أورده القرآن الكريم من صفات للمؤمنين ليحتذى بها المسلم كمعايير لسلوكه فقد أوضح القرآن للمسلمين أن قدوتهم التى يتأسون بها فى سلوكهم هو الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وبذلك اشتملت صفات المؤمنين على كل ما تقرره السنة النبوية.

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ (الأحزاب ٢١)

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم ٤)

وإذا حاولنا أن نعدد صفات المسلم أو سمات شخصيته لوجدناها كلها سمات للخير والفضيلة وسلوكا للبناء والتعاون ، تجمع الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث والحساب والجنة والنار والغيب والقدر خيره وشره وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة واستغفار ربه والتوكل عليه وتلاوة القرآن ومعاملة الناس بالحسنى، والكرم والإحسان والتعاون والتماسك والاتحاد والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والعفو، والإيثار، والإعراض عن اللغو، وإتباع السيئة بالحسنة، وبر الوالدين وذوى القربى وصلة

الأرحام، وحسن المعاشرة بين الأزواج، ورعاية الأبناء والوفاء بحاجاتهم، والعدل بينهم، والصبر، والحلم، والصدق، والعدل، والأمانة، والوفاء بعهد الله وعهد الناس، والعفة والتواضع، والقوة فى الحق وفى سبيل الله، وعزة النفس وقوة الإرادة وكبح الشهوات، وحب الله والخوف من عذابه والرجاء لرحمته، وعدم القنوط، وحب الناس وحب الخير لهم وكظم الغيظ وعدم الاعتداء على الغير وعدم إيذائهم، والبعد عن الحسد، وعدم العجب بالنفس، والرحمة، ولوم النفس والشعور بالندم، والتفكير فى الكون وخلق الله وطلب المعرفة والعلم وعدم اتباع الظن وتحرى الحقيقة والرفق والإحسان إلى الجار وعدم الإضرار بالآخرين، وابتغاء الحلال والطيبات من الرزق والعمل والتكسب والصحة والقوة والنظافة والطهارة وتجنب الخبائث وعمران المساجد والبعد عن الهمز واللمز [١٢] .

٦ – ويهتم المنهج الإسلامى ببناء الشخصية– وهو البناء الذى يقوم على تحقيق العقيدة الصحيحة والعمل الصالح ، ويمكن أن نستخلص الخطوط الآتية كخطوط أساسية فى بناء الشخصية على ضوء المنهج الإسلامى :

١ – أن الإنسان يولد على الفطرة–والفطرة هى الإسلام بأساسه الأول وهو عقيدة التوحيد، وهذه الفطرة هى بمثابة لغة يتناقلها الإنسان عبر جهازه الوراثى .

٢ – التعلم عامل هام في اكتساب الإنسان لعديد من السلوكيات ، والتعلم يبدأ منذ الولادة وقد يتعلم المرء فى اتجاه يقربه من حقيقة فطرته، وقد يتعلم فى اتجاه يبعد به عن أصل الفطرة .

٣ – ومن بين ما يدخل فى عملية التعلم سلوك الأبوين وسلوك المجتمع بوجه عام – فالتعلم له جانب اجتماعى يكتسب فيه الفرد السلوك عن طريق المشاهدة والتقليد.

٤ – ومع تطور قدراته العقلية– فإن الجانب العقلى يدخل كجانب أساسى فى عملية التعلم وقد بدأ الإسلام بجانب العلم والعقل قبل جانب السلوك .

---

(١٢) المرجع السابق.

﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾ (محمد ١٩)

٥ - ويهتم الإسلام باستخدام أساليب متعددة للتعلم، فإتاحة المعلومات، وعرض النماذج والأسوة والنصح، والثواب، والعقاب، والتدرج أساليب هامة فى تعلم السلوك الطيب.

٦ - كذلك اهتم المنهج الإسلامى بقدرة الإنسان على التخيل ، وهى من القدرات المعرفية التى يتميز بها الإنسان والتى أصبحت الآن محور اهتمام الباحثين فى مجال علم النفس وذات استخدامات كثيرة فى العلاج والنفس.

٧ - ويوسع الإسلام دائرة مسئولية التوجيه والتعلم من الوالدين إلى المجتمع ككل ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ (آل عمران ١٠٤)

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم)

٨ - ويقوم بناء الشخصية على الاقتصاد فى كل الأمور فالإفراط والتفريط طرفان يقع فى وسطهما السلوك المرغوب.

﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ (النحل ٩)

﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ (الأعراف ٣٠)

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى «سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيئا من الدلجة والقصد القصد تبلغوا».

٩ - وتتنازع الإنسان فى كل وقت ثلاث حالات للنفس الأمارة واللوامة، والمطمئنة . والمسلم يقاوم النفس الأمارة ويلومها ويسعى إلى الوصول إلى النفس المطمئنة من خلال تزكيته لنفسه ونهيها عن الهوى .

١٠- كذلك تقوم شخصية المسلم على تفاعل بين الفرد والمجتمع الذى يعيش فيه ويتأثر به، وكلما كان المجتمع مسلما متجانسا سهل ذلك نمو شخصية المسلم فى وجهة صحيحة.

١١- ويتعامل المنهج الإسلامى مع جانب الوعى والمسؤلية فى الفرد فالإنسان له كيان واع ويستطيع أن يستقبل العلم (ما لم يكن هناك ساتر للعلم كالمرض العقلى وصغر السن) بل إن عليه أن يسعى له. ويستطيع أن يستخدم ما وهبه الله من عقل فى التمييز بين الطيب والخبيث ، وبذلك فإن الشخص البالغ العاقل الذى بلغته الرسالة يتحمل مسئولية ما يأتى به من أعمال، لا يسأل فرد عن عمل آخر، ولا تسأل أمة عن عمل أمة أخرى .

ومن هذا العرض نرى أن شخصية المسلم يحققها الإسلام والإيمان والإحسان، وتوازنها الحركة بين جانب يأمر بالسوء «النفس الأمارة» أو كما يسميه ابن قيم الجوزية النفس السحارة، وجانب يلوم أو يتلوم وهو «النفس اللوامة» وجانب يطمئن ويرضى عن ربه فيرضى عنه ربه وهو «النفس المطمئنة» وهى معيار التوافق للمسلم وغاية ما يسعى إليه، ولا يصل إلا عن طريق واحد هو طريق العبودية لله، وإسلام الوجه له سبحانه. والمسلم يبنى شخصيته على وعى ومسئولية وعلى علاقة متوازنة بين حاجاته وحاجات الآخرين. ومعيار الاتساق فى شخصية المسلم والسير على الصراط المستقيم هو كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وعمل السلف الصالح. إنه حينئذ يصل إلى الأمن والاطمئنان يحس به فيعرف أنه مرضى عنه من الله كما رضى هو عن ربه وأسلم له، ويعرف أن حياته لن تنتهى بمغادرة الدنيا وإنما تتواصل فى الحياة الآخرة حيث يكون مع من قال الله فيهم :

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (الأحقاف ١٣)

﴿لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون﴾ (الأنعام ١٢٧)

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ (الأنعام ٨٢)

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (الرعد ٨٢)

ثالثا : اضطرابات الشخصية فى ضوء المنهج الإسلامى :

يقسم المشتغلون فى مجال الأمراض النفسية والعقلية هذه الأمراض إلى مجموعات هى : -

١ - الاضطرابات العصابية .

٢ - الاضطرابات الذهانية .

٣ - إصابات المخ .

٤ - السلوك المضاد للمجتمع (الإجرام وانحراف الأحداث) .

٥ - إدمان الكحوليات والمخدرات والتدخين.

٦ - الأمراض النفسية الجسمية .

٧ - الانحرافات الجنسية .

٨ - الضعف العقلى .

وإذا نظرنا إلى هذه الأمراض لوجدنا أكثرها يرجع إلى اضطرابات فى التفكير أو فى السلوك أو فى الانفعالات. وإذا بحثنا مع أصحاب النظريات الأساسية فى علم النفس عن أسباب الأمراض النفسية التى يشيع أن يتعامل معها المرشدون والمعالجون النفسيون، لوجدناهم يضعون لها أسبابا افتراضية إلى حد كبير، وقليل منها قام على أساس تجريبى، وحتى هذا الجزء الذى اهتم بالجانب التجريبى نقل مباشرة من تجارب أجريت على حيوانات (كالقطط والكلاب والحمائم والقردة). ومن هذه الأسباب ما تنادى به مدرسة التحليل النفسى من أن غريزة الجنس هى محور حياة الإنسان وأن نموه إنما هو نفسى جنسى (نفسجنسى)، كذلك فإن العقل فى الإنسان يعمل فى مقابل هذه الغريزة ،

وأنه يحتوى على جانب شعورى يعيه الإنسان وجانب لا شعورى تدفع إليه (تكبت فيه) الرغبات التى تنازع الفرد ولا يقبلها المجتمع. وبزيادة هذه المكبوتات تزداد قوة دفعها فى أوقات الشدة. ومع مقاومة الفرد لها تنشأ حالات العصاب وفى مقدمتها القلق.. أما أصحاب المدرسة السلوكية فهم يفسرون الانحراف على أنه سلوك مكتسب من البيئة ، وأنه لا حيلة للإنسان فيه، ومن ثم فهم لا يضعون مسميات هذا السلوك على أنه «سوى» أو «شاذ». وفى المدرسة الإنسانية يكون التفسير للسلوك المضطرب على أنه نتيجة لعائق أمام تحقيق الذات ، أو أنه ناتج عن شروط الأهمية التى فرضها عليه أفراد ذوو أهمية فى حياته حتى يعطوه ما يحتاج من تقدير واعتبار. ومن كل النظريات التى تعاملت مع الأمراض النفسية وحاولت أن تشرح أسبابها لم نجد أصلاً لعلاقة هذا الانحراف بحقيقة الإنسان على الوجه الذى يراه الإسلام. بل إن بعض النظريات بدأت تتحدث عن فراغ وجودى وعن انعدام لمعنى الحياة كسبب للاضطراب النفسى ..

فإذا تناولنا موضوع الاضطرابات النفسية من منظور إسلامى فلن ندهش أن نجد الاضطرابات التي حاول الباحثون الغربيون فى علم النفس أن يبحثوا لها عن أسباب تعفى أصحابها من مسئولية حدوثها قد تحدث عنها الإسلام كاضطرابات أساسية تحدث للناس نتيجة ضلالهم وانحرافهم عن الصراط المستقيم .

أما الاضطرابات العضوية (مثل إصابات المخ وحالات التخلف العقلى) فهذه كان للإسلام وللمسلمين فيها مواقف مشرفة فى تاريخ رعاية مرضى العقول سواء فى التكاليف الدينية أو المسئولية الشخصية أو الرعاية التى لاقوها من المجتمع المسلم مما يشهد به المؤرخون فى هذه المجالات.

والمتأمل لموقف الإسلام فى نظرته للانحرافات النفسية يجد أنها ترجع أساسا إلى انحراف العقيدة وزيغ العقل واتباع الشهوات وعدم ضبط الانفعالات .

وسوف نتناول بالتفصيل جانبين أساسيين هما : كيف يحدث الانحراف وأنواع الانحرافات، وذلك على ضوء المنهج الإسلامى .

١- كيف يحدث الانحراف ؟

قلنا إن النفس البشرية مفطورة على الخير وعلى الإسلام لله وحده، ولكنها فى نفس الوقت يمكن أن تقبل الشر، وهذا القبول للشر يأتى بالاكتساب (بالتعلم) سواء بتقليد الفاسقين- خاصة إذا نشأ الفرد فى أسرة بها فسوق، أو لضعف الإرادة أو لنقص التمييز، أو الانسياق وراء الشهوات، أو لإهمال التربية فى وقتها المناسب، إنه انقياد للنفس الأمارة أو «النفس السحارة» كما يسميها الإمام ابن قيم الجوزية لأنها (تسحر للإنسان وتزين له المفاسد ويسحر لها الشيطان فتخضع له، وهذه النفس تُرى صاحبها الأمور فى غير موضوعها) : يقول الإمام ابن القيم رحمه الله : (١٣)

«وأول ما يدب فيه السقم من النفس الأمارة من الشهوات وما يتبعها من الحب والحرص والطلب والغضب ويتبعه من الكبر والحسد والظلم والتسلط فيعلم الطبيب الفاسق الخائن بمرضه فيعوده (يقصد الشيطان) ويصف له أنواع السموم والمؤذيات ويخيل إليه بسحره أن شفاءه فيها ، ويتفق ضعف القلب بالمرض وقوة النفس الأمارة والشيطان وتتابع إمداداها، وأنه نقص حاضر ولذة عاجلة، والداعى إليه يدعو من كل ناحية، والهوى ينفذ والشهوة تهون. والتأسى بالأكبر والتشبه بهم والرضا بأن يصيبه ما أصابهم فكيف يستجيب مع هذه القواطع وأضعافها لداعى الإيمان، ومنادى الجنة إلا من أمده الله بأمداد التوفيق وأيده برحمته وتولى حفظه وحمايته وفتح بصيرة قلبه، فرأى سرعة انقطاع الدنيا وزوالها وتقلبها بأهلها وفعلها بهم ، وأنهم فى الحياة الدائمة كغمس أصبع فى البحر بالنسبة له». والانحراف الأساسى فى الشخصية إنما هو انحراف العقيدة

---

(١٣) ابن قيم الجوزية «الفوائد» مرجع سابق

فإذا فسدت العقيدة وانحرف المرء عن عقيدة التوحيد فإن صرح الشخصية المتسق يتداعى، فالعقيدة هى الأساس الذى تقوم عليه شخصية المسلم وحياته، فإذا انهارت عقيدته فماذا يبقى له من المناهج ليتبعه إلا منهجا يدعو إليه شيطان من شياطين الجن أو الإنس .

أما المؤمن الذى أساس شخصيته وسلوكه عقيدة صحيحة وأعمدتها عبادات ولبناتها عمل صالح فإنه يكون قد أسس بنيانه على تقوى من الله، وليس لشيطان عليه سلطان ولا إلى نفسه إليه منفذ أو سبيل .

﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾ (الحجر ٤٢)

وهذه النظرة إلى الانحراف والتى يقررها الإسلام ، هى نظرة تميزه عن كل ما يفترضه الفلاسفة وأصحاب النظريات على اختلاف هوياتهم ومشاربهم وأهوائهم، فهى نظرة تربط الإنسان بأصل فطرته وغاية خلقه .

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات ٥٦)

والإسلام كما قدمنا ينظر للإنسان على أنه مخلوق مكرم وأنه مكلف، ومسئول. وهو ينظر إلى عمل الإنسان كله على أنه عمل واع يشعر به ويدرك عاقبته. فالنور والهدى متصل لا يحجبه عن النفس إلا ظلام العقل وإغلاق القلب.

﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ (محمد ٢٤)

وعلى عكس النظريات التى رأت فى دوافع الإنسان وحاجاته قوة غريزية توجه السلوك، وإن كبتها هو الذى يولد المرض النفسى فيما بعد فإن الإسلام نظر إلى حاجات الإنسان على أنها أدوات يديرها الشخص المسلم فى إطار من هدى الإسلام نحو غاية أساسية وهى عبادة الله وحده، وليقوم بدور فى حياته الدنيا، وهو الخلافة فى الأرض، وعمارتها، ولأنها كذلك، لابد أن تكون تحت إمرة العقل الذى به ميز الله الإنسان على سائر المخلوقات ليعرف كيف يشبعها ومتى يشبعها، ومن أى مصدر، وكيف يقمعها ويهذبها. فإن فشل فى ذلك فإنه يبتعد عن مناط التكريم الذى خصه الله به، وهبط إلى مدارج الحيوان .

﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ (محمد ١٢)

﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ (الفرقان٤٤)

وبذلك فإن الانحراف عن الطريق الذى رسمه الإسلام لإشباع الدوافع والحاجات والذى سبق أن فصلناه، يعتبر من أهم أسباب الاضطراب النفسى. واعتبار هذه الحاجات وما يشبعها غايات فى حد ذاتها يؤدى بالإنسان إلى أنواع من الانحرافات ، ومنها الانحرافات الجنسية بصورها المختلفة ، ومنها الجرائم بصورها المختلفة ، ومنها تعاطى المواد الضارة كالخمور والمخدرات والدخان. وهو إن عجز عن إشباع ما تدعوه إليه نفسه من ملذات فإنه يبدأ فى الاضطراب النفسى-يحس بالضياع النفسى ويعانى القلق والاكتئاب- وقد يؤدى به هذا إلى الهوس والهذاء .

فالانحراف يحدث أساسا نتيجة بعد عن الصراط المستقيم، نتيجة اضطرابات فى العقيدة، وفى العبادة وفى التفكير والمشاعر والدوافع والتصرفات. أما من صحت عقيدته وحسنت عبادته فإنه يعرف غاية حياته وعمله ، ويعرف دوره فى هذه الحياة وهو يعمل لما بعد الموت. وهو فى علاقة تقويمية مع نفسه يحاسبها ويعدل من مسار حياته ليفوز بالسعادة الدائمة .

﴿أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمَّن يمشى سويا على صراط مستقيم﴾ (الملك ٢٢)

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ (الكهف ١٠٣-١٠٤)

٢- أنواع الانحرافات :

يتناول الإسلام بالتفصيل كثيرا من الانحرافات منها ما كان قاصرا على فرد ومنها ما شمل أمة بأكملها، وقد عرض القرآن الكريم لنماذج من الانحرافات فيما عرضه من قصص الأمم السابقة وفيما ضربه من أمثال وما وصف به

المنحرفين من كفار ومنافقين وفاسقين وفيما قرره من حدود وما شرعه من تشريعات تشمل كل جوانب الحياة.

وقد شمل المنهج الإسلامى توضيحا كاملا لانحرافات الإنسان سواء ما يتصل منها بغاية خلقه وهى عبادة الله بجانبى العقيدة والعبادات أو ما يتصل منها بقيامه بوظيفته وحركته فى الحياة سواء ما يتصل منها بعلاقته بنفسه أو بعلاقته مع الآخرين فى صورة معاملات .

والمنهج الإسلامى الذى اهتم بجانب العقيدة وبجانب العبادات والمعاملات لم يترك جوانب الحياة المختلفة دون تناول بل على العكس فإن هذا المنهج العظيم قد فصل فيها وتناول كل زواياها ، ومن هنا فإن عرض هذا المنهج لأنواع الانحرافات لم يقتصر على جانب العقيدة وجانب العبادات وإنما شمل كل الانحرافات التى تحدث فى مناحى الحياة ومناشطها المختلفة– ولأن حياة الإنسان تمثل فى الواقع كلا واحدا فإن حدوث اعوجاج فى جانب منها من شأنه أن يولد اضطراب الشخص كله ، فانحرافات العقيدة أو التقصير فى العبادات أو اضطرابات المعاملات كلها أو واحد منها يؤدى إلى اضطراب الشخص ؛ ولهذا اهتم الإسلام بجانب التوازن بين جانب العبادات وجوانب الحياة والمعاملات وجعل من جانب العقيدة حارسا لهما. .

والانحراف عن العقيدة الصحيحة عقيدة التوحيد لا شك أنه أكبر المهلكات، فالشرك بالله وهو أكبر الكبائر يجعل الإنسان خاضعا لغير الله ، ومرجعا ما يحدث له من أحداث لغيره وخاضعا لمن هو دونه ، منكرا للبعث والحساب، وبذلك يبتعد عن غاية خلقه فيعانى الضياع والقلق وينهار عند أول أزمة تصيبه، حين يعجز بفكره الضال عن الوصول إلى تفسير لما يصيبه من القدر خيره أو شره ، ولا عجب أن يكون مآله الاكتئاب والانتحار وقد دلنا المنهج الإسلامى على أنواع من الانحرافات فى العقيدة مثل الشرك بالله، والإيمان ببعض الرسل دون البعض

الآخر، وإنكار البعث والحساب، وعدم الإيمان بالقدر خيره وشره- وهؤلاء الذين تنحرف عقيدتهم يحاولون أن يستمدوا الأمن والطمأنينة من مظاهر دنيوية كالمال والجاه والأولاد ، وهى مصادر لاتوفر الأمن وإنما هى مجرد فتنة سرعان ما تزول وتتخلى عن صاحبها.

أما العبادات التى هى فى الواقع صلات بين الإنسان وربه وخضوع وخشوع له سبحانه بأدائها تطمئن القلوب ويقترب الإنسان من غايته فيرضى ربه سبحانه ويصبح بأدائها راضيا وسعيدا، فإن الانحراف عنها يضعف هذه الصلة ويطمس القلب والعقل فتكون الاستجابة لواقع الحياة قليلة. ويكون النكوب عن الطريق قريبا، فيعود الشخص ليسأل نفسه مرة أخرى ، لماذا أعيش ؟

ومن الانحرافات الشائعة إهمال الصلاة والسهو عنها والتكاسل فى أدائها، وكذلك بالنسبة للزكاة والجهاد والحج .

أما انحراف المعاملات ففيه الكثير مما دلنا عليه المنهج الإسلامى ، شرب الخمور وتناول المواد الضارة كالمخدرات والتدخين، والزنا واللواط والقتل وإشاعة الفاحشة، والربا وأكل أموال الناس، وعقوق الوالدين وإيذاء الجار، وتتبع عورات الناس والتجسس عليهم، والغش والكذب، ونشوز الزوجة، وغير ذلك كثير .

ولو تتبعنا هذه المجالات الثلاثة التى تشتمل على حياة الإنسان كما ينظر إليها الإسلام، الحياة المتصلة إلى ما بعد الموت مع الحياة الآخرة، لوجدنا أنها تشمل كل ما يوضع تحت الأمراض النفسية واضطرابات الشخصية-إنها تشتمل على انحرافات النمو الدينى والنمو النفسى الأخلاقى والنمو الاجتماعى والنمو الانفعالى والنمو العقلى. وكلها كنسيج متشابك تبدأ بضعف العقيدة وتنتقل إلى إهمال العبادات ثم تنتهى إلى ورود المهالك وما أروع تصوير القرآن .

﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق﴾ (الحج ٣١)

﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ (الطلاق١)

رابعا : العلاج النفسى على ضوء المنهج الإسلامى :

لسنا بحاجة إلى القول بأننا لسنا فى مجال محاولة أن نفتش فى المنهج الإسلامى عن طرق محددة للعلاج لنضاهيها بما ينادى به أصحاب النظريات الغربية فى العلاج-فقبل كل شيء لابد أن نقول ونقرر ونؤمن أن الإسلام كله باعتباره الدين المشرع من خالق الإنسان إلى الإنسان هو العلاج الأول والأخير لكل ما يعانى منه الأفراد وما تعانى منه المجتمعات من مشكلات نفسية. ذلك أنه على الرغم من أن المنهج الإسلامى كما سيتضح فيما بعد يحوى عديدا من الطرق العلاجية والإرشادية التى ما توصل إلى فائدتها علم النفس إلا حديثا فإن هذه الطرق ترتبط أولا وأخيرا بتطبيق المنهج ككل.

وفى اعتقادى أن كل طريقة يتوصل إليها علم النفس سواء قامت على أساس تجريبى أو على أساس مشاهدات أو تصورات لعلاج الإنسان أو إرشاده لن تجدى فى المدى البعيد مادامت لم تقم على منهج حياة الإنسان كلها. فما يتناوله المعالجون فى علاجهم إنما يمثل أعراضا أو مشكلات ولا يمثل أصل الداء. وأصل الداء كما رأينا على ضوء المنهج الإسلامى هو ضلال المرء عن غايته العظمى وهى عبادة الله سبحانه وتعالى وانحرافه عن القيام بدوره على الأرض- وما لم يعد الإنسان إلى السعى للغاية وتصحيح مساره فإن تناول المشكلات الفرعية بالعلاج أو الإرشاد بالطرق المختلفة التى يتحدث عنها المعالجون والمرشدون قد لا يجدى. وليس معنى هذا أننا ننكر أهمية أن يتعلم المرشدون والمعالجون طرقا وأساليب محددة وواضحة فى علاجاتهم ، وإنما نقول إن هذه الطرق والأساليب (وهى كما سنرى ليس فيها من الجدة ما يدعى لها أصحابها) لن تجدى إلا إذا وضعت فى إطار إسلامى صحيح. وثمة أمر آخر نلفت الانتباه إليه- وهو أن الطرق التى يتحدث عنها المعالجون ليس فيها من الجدة ما يمكن أن يعيد فضل اكتشافها إلى الباحثين الذين تحدثوا عنها وحدهم-وإنما كثير من الطرق

بل معظمها سبق أن تحدث عنه العلماء المسلمون من قبل وأحيانا بنفس المسمى– وسوف أكتفى بعرض نموذج واحد من هذه الطرق الحديثة–فقد تحدث ولبيه Wope عام ١٩٧٣[(١٤)] أى منذ خمس وعشرين سنة فقط عن استخدامه لطريقة أسماها وقف الأفكار Thought Stopping وكيف أن الفرد الذى تنتابه الوساوس يمكن أن يطرد هذه الوساوس بمواظبته على قول كلمة مثل Stop (توقف) كلما خطر له خاطر منها، والباحث المسلم يدرك أن المنهج الإسلامى يدلنا على الأسلوب الأمثل وهو أن يستعيذ الإنسان بالله من الشيطان الرجيم– وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع :

﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم * إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ (الأعراف ٢٠٠–٢٠١)

ولسنا بحاجة إلى المقارنة فى المنهج بين الموقفين–موقف يستعيذ فيه الإنسان بخالقه سبحانه وتعالى، وهو القادر، من الشيطان الرجيم، وهو يعلم أن الشيطان ليس له على المؤمن سلطان، وبين مجرد أن يقول المرء لنفسه كلمة (كفى) أو (توقف) – وإذا تطرقنا إلى التفسير العلمى وجدنا من بين علماء المسلمين من تناول هذا الأسلوب نفسه (وقف الأفكار) بالتفصيل ، فنجد الإمام ابن القيم فى كتاب الفوائد قد حدد بوضوح، وقبل علماء النفس، أن بداية السلوك خاطر وأن وقف الخواطر من بدايتها أجدى من وقف السلوك بعد استفحاله. . . يقول رحمه الله: واعلم ان الخطرات والوساوس تؤدى متعلقاتها إلى الفكر فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر فيأخذها الذكر فيؤديها إلى الإرادة فتأخذها الإرادة إلى الجوارح والعمل فتستحكم فتصير عادة، فردها من مبادئها أسهل من قطعها من قوتها أو تمامها، فلو دفعت الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده وإن قبلته صار فكرا جوالا، فاستخدم الإرادة. ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر

(١٤) ابن قيم الجوزية – الفوائد القاهرة : مكتبة المتنبى .

أسهل من إصلاح الأفكار ، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل وتداركه أسهل من قطع العوائد .

ولأن موضوع العلاج النفسى على ضوء المنهج الإسلامى قد يستغرق مؤلفات ومؤلفات إذا أردنا البحث فيه فسوف نقتصر هنا على عرض لبعض الأسس التى نستقيها من المنهج الإسلامى فى العلاج النفسى، ثم نعقبه بعرض لبعض النماذج والمواقف العلاجية.

(أ) الأسس التى يقوم عليها الإرشاد والعلاج النفسى فى الإسلام :

١ - قابلية السلوك للتعديل :

يؤكد الإسلام دائما على قابلية الإنسان للتعلم، وعلى أن الله سبحانه وتعالى قد زوده بالحواس وبالعقل ليستقبل ثم ليدرك ويحلل ويقارن ويميز ويفكر ويتحكم فى جوارحه فى قوله وفى عمله، ومن ثم فإن الإنسان وهو مفطور على الإسلام وعلى الخير يكتسب عديدا من السلوكيات فى حياته ومن هذه السلوكيات ما قد يخالف المنهج الإسلامى، ولكن الإسلام يقرر فى وضوح أن السلوك قابل للتغيير، وأن مناط هذا التغيير خاضع للعلم والرغبة فى التغيير- ولهذا كان إرسال الله الرسل إلى الناس ليساعدوهم على العلم بالطريق الصحيح ويغيروا من سلوكهم الظاهر والباطن. وكل مسلم يعرف كيف أن الإسلام غيَّر من سلوك الناس بعد تصحيح عقيدتهم وكيف تغيرت طباعهم وشخصياتهم. كيف ألغيت من حياتهم عادات كوأد البنات والربا وشرب الخمر وغيرها كثير.

٢ - الجوانب العقلية جزء هام فى تعديل السلوك :

إن محور الهداية والانضباط فى حياة الإنسان يقع فى قدراته العقلية التى بها ميزه الله وكرمه على سائر المخلوقات وبها خاطبه (أفلا يعقلون؟) .

ولكن هذه القدرات العقلية لا تكفى وحدها وإنما لابد لها من تفاعل مع مشاعر إنسانية تربط الإنسان بفطرته. ولابد من تنشئة سليمة على أسس المنهج الإسلامى.

٣ - تصرفات الإنسان تقوم على أساس من الوعى والشعور بها :

والأصل فى تصرفات الإنسان من وجهة نظر الإسلام أنها تحت سيطرة عقله الواعى والناضج ؛ ولهذا ارتبط التكليف بالعقل والبلوغ-وفى ضوء المنهج الإسلامى فإن الشخص غير الواعى لا يسأل عما يعمل. وفى هذا يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه (رفع القلم عن ثلاث النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق، والصبى حتى يبلغ) .

٤ - أن المسئولية فردية وجماعية :

فالشخص البالغ العاقل مسئول عن عمله ويحاسب عنه وحده إن خيرا فخير وإن شرا فشر . ولكن هناك أيضا مسئولية جماعية ، فالمؤمنون يتواصون بالحق ويتواصون بالصبر، وكل فرد راع ومسئول عن رعيته. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على كل مسلم متى قدر عليه، والإنسان المسلم مسئول عن وقاية نفسه ووقاية أهله .

٥ - يقرر الإسلام مبدأ الفروق الفردية :

فالأفراد متباينون فى الخلق وفى الرزق وفى السلوك- ولكل فرد طاقة يرتبط التكليف بها .

﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ (البقرة٢٨٦)

﴿لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها﴾ (الطلاق ٧)

﴿إن سعيكم لشتى﴾ (الليل ٤)

٦ - الإرشاد والعلاج يكون بدافع من الشخص نفسه :

فالإنسان مطالب فى الإسلام أن يحاسب نفسه وأن يزكى هذه النفس، وأن يأمرها بالخير وينهاها عن الهوى، وأن يقودها إلى الهداية، وينعقد التغيير على رغبة وسعى من الفرد نفسه وتوفيق من الله سبحانه وتعالى.

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد ١١)

٧ - مبدأ الإرشاد والعلاج علم ثم عمل :

ولأن الإنسان قد كرمه الله بالعقل فإنه يحتاج أن يعلم أولا ما هو الصواب وما هو الخطأ ثم يعمل بما علم به .

﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾ (محمد ١٩)

٨ - مبدأ اختيارية القرار وحرية التصرف :

وللفرد المسلم متى بلغه العلم وتحقق لنا قدرته على أن يتحمل مسئولية ما يصل إليه من قرار، أن يقرر أموره الخاصة .

﴿لست عليهم بمسيطر﴾ (الغاشية ٢٢)

﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم﴾ (النساء ٦)

﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾ (البقرة ٢٥٦)

على أن هذا الاختيار مرتبط بتحمل المسئولية بما يحدث للفرد ذاته من نتائج أو بما يتحمله من مسئولية عقابية يقررها الشرع على انحرافه.

٩ - تخلتف طرق الإرشاد والعلاج باختلاف الموقف وحالة الفرد :

فلا تستخدم طريقة واحدة وإنما يتوقف ذلك على الشخص وسنه وإدراكه وعلى الموقف الذى يحدث فيه الانحراف ومدى الضرر الذى يحدث.

١٠- التدرج من الأساليب البسيطة والمرغوبة إلى الأساليب الصعبة:

فلا يستخدم التوبيخ قبل النصح ولا الضرب قبل التوبيخ ، وهكذا ، والمتأمل فى نظام الحسبة فى الإسلام يجد تدرجا رقيقا من التعرف والتعريف فالنصح. . ونقرأ فى كتاب الله :

﴿واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع، واضربوهن، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا﴾ (النساء٣٤)

فهنا نجد تدرجا بثلاثة أساليب مختلفة فيها أسلوب عقلى وأسلوب يتصل بالمشاعر وأسلوب يتصل بالبدن .

١١- القائم بالعلاج والإرشاد ينبغى أن يتخلق بخلق الإسلام :

فالمرشد المسلم عليه أن يكون عارفا بالمنهج الإسلامى، متسما بالحكمة واستخدام الموعظة، رفيقا فى القول والفعل، مبشرا لا منفرا ، عمله يطابق قوله، يعطى القدوة الحسنة لمن يسترشدون به.

١٢- أن الإسلام قد اهتم بالعديد من الجوانب فى العلاج :

فنجد فى الإسلام الجوانب البيولوجية، وجوانب التفكير، وجوانب التعلم، ومخاطبة المشاعر.

١٣- المنهج الإسلامى ينير للمرشد طريقه سواء كان عمله فى الجانب الإنمائى أم الوقائى أم العلاجى :

وقد اهتم الإسلام بالجانب الإنمائى الذى يسهل حياة الناس ويرسم لهم الطريق القويم لتكوين الشخصية المسلمة المؤمنة. كما اهتم بالجانب الوقائى بتجنيب الناس ما يحدث من أخطار وانحرافات كما اهتم بالجانب العلاجى بتناول المشكلات عند حدوثها .

والإسلام الذى علم الناس الطهارة، والصدق والأمانة، والتفكير، وإقامة الحياة الأسرية وأصول العلاقات الزوجية ، هو أيضا الذى وضع أسس الوقاية من الانحرافات كالاستئذان على الكبار، والمكاتبة فى الديون والبيوع، ورعاية أموال اليتامى، وستر العورات، وغض البصر، وعدم التبرج، وعدم إشاعة الفاحشه، وهو الذى جعل العلاج ممتدا من النصح والموعظة إلى إقامة الحدود كالقصاص فى القتلى .

ففى الجانب الإنمائى والإنشائى نجد أسس التربية الإسلامية واضحة فى أجلّ صورها ﴿يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ (المائدة١)

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا﴾ (النساء٥٨)

وفى المستوى الوقائى :

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ (النور ٣٠)

﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾ (النور ٣١)

﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما﴾ (النساء ٢٩)

﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ (الأعراف ٢٠٠)

وفى المستوى العلاجى :

﴿وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا﴾ (النساء٣٥)

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء لأمر الله﴾ (الحجرات٩)

﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾ (الأنفال ١١)

(ب) عرض لبعض نماذج العلاج والإرشاد فى الإسلام :

النموذج الأول : نموذج فى العلاج الأسرى الإسلامى :

اهتم الإسلام بإرساء أسس العلاقات الأسرية وإنشاء النظام الزواجى والنظام الأسرى على أسس محكمة لم تصل إليها أرقى المجتمعات حتى الآن ، وفى نفس الوقت وضع الإسلام أسس الوقاية من المشكلات وأسس علاج المشكلات عند ظهورها. ونحن نعلم أن من أهم ما يواجه الأسرة عند بداية تكوينها بصفة خاصة عدم التوافق بين الزوجين والذى قد يعبر عن نفسه فى شكل نشوز من جانب الزوجة ، والنشوز هو الخروج عن الواجبات. وقد دلنا القرآن الكريم على كيفية مواجهة هذا النشوز.

﴿واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا﴾ (النساء٣٤)

وفى هذه الآيه الكريمة يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن نتعامل مع حالات النشوز بأساليب ثلاثة على ترتيبها- فالأسلوب الأول هو الموعظة أى مخاطبة العقل، والأسلوب الثانى هو الهجر فى المضاجع. والأسلوب الثالث هو الضرب.

وإذا نظرنا إلى هذه الأساليب الثلاثة على ضوء طريق العلاج النفسى نجد أن الموعظة تتناول جانبا عقليا-وهو أمر لم يطرقه المعالجون النفسيون إلا فى السنوات العشر الاخيرة، وأما الأسلوب الثانى وهو الهجر فى المضاجع، فهو يقع تحت ما يطلق عليه الباحثون فى مجالات التعلم والعلاج السلوكى- العقاب السلبى، وهو المنع من شىء مرغوب ، وأما الضرب فهو يدخل تحت العقاب الإيجابى والذى يعتبره المعالجون النفسيون وسيلة هامة لتقليل سلوك أو التخلص منه. هكذا اشتملت آية واحدة على ثلاث طرق أساسية. وجعلت من الزوج هو المعالج. . وإذا تطور الأمر فأصبح شقاقا - فهناك التحكيم - حكم من أهله وحكم من أهلها ، هدفهما الإصلاح ، وفى هذا الأسلوب عرض للمعلومات دون انفعال من جانب الزوجين المتخاصمين. وفيه دفاع عن مصلحة المتخاصمين بوجود من ينوب عنهما من أهلهما وفيه اتخاذ قرار بناء على المعلومات ، والقرار إما الإصلاح أو الافتراق، والافتراق بالطلاق تشريع شرعه الإسلام وهو فى حد ذاته يمثل علاجا ووقاية لما قد يحدث من مشكلات عديدة إذا استمرت حياة على شقاق.

والإسلام بتنظيمه للعلاقة والحقوق بين الزوجين وتنظيمه لكيفية مواجهة مشكلاتهما ثم تقرير حقوق الأبناء الذين ينتجون من هذا الزواج- قد أسس قواعد العلاج الأسرى بعد أن أرسى قواعد بنائها قبل أن يُعرَف العلاج الأسرى بألف وأربعمائة سنة.

والذين يقرأون أقوال الفقهاء فى الموعظة والهجر فى المضاجع والضرب وكيف يقوم بها الزوج، وما وضعوه من شروط على الهجر وعلى الضرب، يرون سبق الإسلام فى علاج مشكلة هامة فى حياة الأسرة .

فإذا علمنا أن المرأة فى بعض المجتمعات الغربية تعيش فى حالة هجر تام من جانب زوجها لمدة تزيد على عشر سنوات قبل أن تحصل على الطلاق لرأينا مدى عظمة المنهج الإسلامى .

النموذج الثانى : مخاطبة العقل والمشاعر (زيادة الوعى والمسئولية):

ينبه القرآن فى كثير من المواقف الإنسان المسلم بمخاطبة عقله ومشاعره:

﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه﴾ (الحجرات ١٢)

﴿أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات فأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ (البقره ٢٦٦)

﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا﴾ (النساء٢٩)

ونقرأ فى السنة النبوية هذه القصة :

روى أبو أمامة أن غلاما شابا أتى الرسول ﷺ فقال له :

يا نبى الله – تأذن لى فى الزنا ؟ فصاح الناس به، فقال النبى ﷺ «أدنُ» فدنا حتى جلس بين يديه فقال النبى ﷺ : «أتحبه لأمك ؟» فقال: لا، جعلنى الله فداك ، قال ﷺ «كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم. أتحبه لابنتك؟» قال : لا ، جعلنى الله فداك. قال ﷺ : كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم. أتحبه لأختك؟ قال : لا، جعلنى الله فداك. فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال : اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصن فرجه. فلم يكن شىء أبغض إليه منه (يعنى الزنا). رواه أحمد (١٥).

(١٥) أبو حامد الغزالى. إحياء علوم الدين، مرجع سابق.

وفى هذا الحديث نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بعثه الله رحمة للعالمين وهداية للناس قد ترفق بهذا الشاب وأمنه وطمأنه وأدناه من مجلسه ثم بدأ يخاطب عقله ومشاعره - عقله ليتصور موقفا يطلب أن يكون فى مثله، ومشاعره ليتصور أن لوحدث هذا الموقف مع أخته أو أمه أو ابنته، ويطلب منه أن يحكم على هذا الموقف، وانتهى هذا الموقف العلاجى العظيم بأن وعى هذا الشاب الموقف وما ترتب عليه وما هى المشاعر التى تكتنف الآخرين. وانتهى به إلى أن أنكر على نفسه ما جاء يطلب أن يرخص له فيه :

ونستخلص من هذا الحديث القواعد الآتية :

١ - تكوين علاقة آمنة مع المسترشد - فعلى حين صاح الناس بهذا الشاب فإن الرسول المعلم قال له : ادن منى، وترفق به.

٢ - مساعدة المسترشد على الحكم على سلوكه من خلال استعادة الموقف وتحليله-وهنا وجدنا أن الشاب قد حكم كل مرة باستنكار السلوك «لا ، جعلنى الله فداك».

٣ - استخدام النصح والكلام الطيب مثل الدعاء للمسترشدين وهذا يزيد من قوة العلاقة إذ يتضح للمسترشد أن من يرشده يهمه أمره ويسعى لمصلحته.

النموذج الثالث : النوم واستخدامه فى العلاج :

النوم فى حياة الإنسان له دور هام فى حركة نشاطه، وفى حالته النفسية أيضا. وقد شغل علماء البيولوجيا والفسيولوجيا وعلماء النفس بدراسة النوم من هذه النواحى. ورغم عدم وجود نظرية واحدة صحيحة حتى الآن تفسر لماذا ينام الإنسان، فإن أهمية النوم فى الناحية النفسية والانفعالية أصبحت واضحة. كما أن حاجة الإنسان للنوم لاستمرار حياته أكدتها البحوث المختبرية-كما أن أهمية النوم فى علاج الاضطرابات النفسية وخاصة عند الأزمات أصبح أمرا معروفا، حتى أن المعالجين النفسيين يلجأون إلى إدخال بعض المرضى إلى حالات النوم باستخدام العقاقير الطبية أو الطرق البيولوجية.

ولقد سبق المنهج الإسلامى إلى تقرير أهمية النوم فى مواجهة الازمات النفسية وتغيير حالة الانفعال.

﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام﴾ (الأنفال ١١)

وهذه الآية لا تشتمل على تأثير النوم فقط، ولكن أيضا على تأثير الماء. والماء كما نعلم يستخدمه المسلم خمس مرات فى اليوم فى وضوئه واستعداده للصلاة ومن شأن الماء أن يغير من الحالة البيولوجية للجسم لاختلاف درجة حرارته عن درجة حرارة الجسم مما يعطى شعورا بالراحة. ويعتبر العلاج بالماء Hydrotherpy من الطرق العلاجية النفسية التى تفيد فى علاج القلق وغيره.

النموذج الرابع : استخدام النماذج السلوكية :

نجد فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة استخدام نماذج من السلوك كوسيلة لتعليم الناس وتغيير سلوكياتهم–وقد عرضت النماذج الضمنية فى القصص القرآنى والأمثال التى أوردها القرآن–وهذه النماذج تعتمد على قدرة الإنسان على التخيل وبناء صور فى ذهنه. كما اعتمد أيضا على النماذج الواقعية سواء بعرض النماذج الحسنة وتعزيز السلوك، وامتداحه، أو عرض النماذج التى تشتمل على سلوك غير مرغوب وشجب هذا السلوك أو عقابه. والإسلام قد سبق علم النفس فى هذا الأسلوب–ففى تشريع الحدودجعل وجود شهود للحدود أمرا أساسيا.

﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ (النور ٢)

فالهدف من العقاب هو ردع الناس عن أن يأتوا بمثل هذا السلوك من خلال ملاحظتهم ومعرفتهم لما ارتكبه من يقام عليه الحد، وملاحظتهم لما تلقاه من جزاء. وهو ما يطلق عليه الباحثون فى مجال التعلم اسم التعلم بالعبرة أو التعلم بالتعويض VICARIOUS LEARNING وفى هذا النوع من التعلم يحدث إما تعزيز

أو عقاب لسلوك ما مع شخص ما، وهذا السلوك وهذا التعزيز أو العقاب يشاهده شخص آخر مع معرفة ماذا يحدث ولماذا يحدث، وبذلك فإن التعزيز أو العقاب يدرك من جانب المشاهد فيشجعه على القيام بالسلوك (المفيد) الذى يلقى إثابة أو تعزيزا، وينفره من السلوك (المنحرف) الذى يلقى عقابا.

ونقرأ فى السنة النبوية المطهرة عن رجل يمسك الرسول صلى الله عليه وسلم بيده ويقول: هذه يد يحبها الله ورسوله-وهكذا يعزز سلوك العمل والكفاح فى سبيل العيش فى كل مسلم يحضر الموقف أو يسمع عنه.

والمُسلم يعرف أن السنة النبوية كلها من قول وعمل أو تقرير إنما هى نماذج للسلوك أمرنا أن نتبعها ﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ (الأحزاب ٢١)

وفى هذا يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه (صلوا كما رأيتمونى أصلى) ويقول فى حجة الوداع (أيها الناس خذوا عنى مناسككم).

والمرشد والمعالج المسلم لا غنى له عن استخدام هذا الأسلوب، وفى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة وفى أعمال السلف الصالح ما يساعده فى هذا العمل أيما مساعدة.

ونقرأ فى القرآن الكريم تصويرا لنماذج سلوكية يمتدحها المولى سبحانه وتعالى نختار منها ما ورد فى سورة «المؤمنون» :

﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون* والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون* والذين هم على صلواتهم يحافظون* أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ (المؤمنون١-١١)

النموذج الخامس : العبادات كعلاج نفسي :

تنتاب الإنسان فى حياته كثير من المواقف التى يشعر فيها بضعف قدرته على التعامل معها. ومن هذه المواقف ما ينتابه من الشدائد كموت عزيز عليه، أو نقص فى المال، أو مرض أو عجز، أو ظلم شديد يقع عليه، وقد تناول المنهج الإسلامى هذه الجوانب بالاهتمام. وتعتبر العبادات فى حد ذاتها علاجات نفسية لاتصل إلى مرتبتها أى طريقة، فالصلاة والذكر والدعاء والصوم والحج والزكاة والصدقة كلها وسائل هامة، ومن أهم آثارها ما تحدثه من راحة نفسية وطمأنينة بالتقرب لله سبحانه وتعالى.

﴿إن الانسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين﴾ (المعارج ١٩- ٢٦)

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ (البقرة ٤٥)

«من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» (حديث شريف)

النموذج السادس : قوة الإرادة :

والمنهج الإسلامى يهتم بتقوية الإرادة لدى المسلم، الذى يعلم أن إرادته تعمل فى إطار من تقدير الله سبحانه وتعالى ، وأن يعزم ويتوكل على الله. والإسلام يبنى أبناءه ويربيهم على الجهاد وتقوية الإرادة. والصوم أحد الأساليب الهامة فى هذا الصدد لأنه انقطاع عن الشهوات ، وغض البصر والاستعفاف والجهاد فى سبيل الله وعدم كتمان الشهادة، والعدل، وأداء الأمانة، وتأدية الزكاة. وهى الحق المعلوم فى مال الشخص، وأداء الصلاة فى مواقيتها، كلها عوامل تساعد على تقوية الإرادة مما يجعل المسلم القوى أحب عند الله، والمسلم القوى يكظم غيظه عندما يقدر ويعفو عمن ظلمه وإذا اقتص فلا يزيد عن حقه.

وقد أصبح جانب تقوية الإرداة من الطرق الحديثة فى العلاج النفسى وهى التى يعول عليها فى الوقت الحاضر فى علاج الإسراف سواء فى التدخين أو فى الأكل، أو أى سلوك. وفى الواقع فإن المرشد والمعالج المسلم حين يستخدم هذا الأسلوب فإنه يعتمد على المنهج الإسلامى كاملا فى التدريب فى تقوية الإرادة بدل الاعتماد على تدريبات يضعها لذلك. والمنهج الإسلامى بجانب شموله على تدريبات مثل الصوم فإنه يشتمل أيضا على الجانب الروحى المشتمل فى الانقياد لأمر الله سبحانه وتعالى– ولعل فيما أوردناه من كلام ابن قيم الجوزية عن دفع الخواطر وإصلاح الأفكار وصلاح الإرادات ما يدل على سبق علماء المسلمين فى هذا المضمار.

وبعد : فقد عرضنا فى هذا الجانب بعضا من نماذج إرشادية وعلاجية على ضوء المنهج الإسلامى– وبقى لنا أن نناقش قضية أساسية فى هذا الصدد، وهى مدى استفادة المرشد والمعالج المسلم مما يخرج عليه كل يوم من كتابات تحوى نظريات وطرقا فى الإرشاد والعلاج النفسى. والإجابة على التساؤل بسيطة– فالمرشد و المعالج المسلم الذى عرف عن وعى المنهج الإسلامى، ولا شك سيجعل هذا المنهج نبراسا له كلما تعلم وكلما قرأ، ومهما تعلم ومهما قرأ، فلا نستطيع أن نقول أن المرشد ليس بحاجة إلى أن يتزود من وعاء العلوم الحديثة فى عمله. ولكن فقط ما نوجه الأنظار إليه هو أن فى التراث الإسلامى ما يساعد على تكوين خلفية علمية مناسبة للباحث المسلم–وفيها من الجوانب ما يساعده على الانطلاق إلى إقامة البحث العلمى بدل أن ينتظر أن تأتى إليه النظريات والطرق من الغرب مع اختلافه عنا. فالإرشاد والعلاج النفسى كما رأينا يقوم على فهم لطبيعة الإنسان وهو أمر نخطئ كثيرا لو تركنا منهجنا الإسلامى وأخذناه من نظرية وضعية، وعلى مفهوم للشخصية نعلم أنه يدخل فيه جوانب كثيرة يأتى الدين فى مقدمتها ، وشخصية المسلم لا يكفى لنفهمها أن ندرس علم النفس فقط وإنما نحتاج قبل ذلك أن نعرف المنهج الإسلامى الذى تنمو فى

حراسته هذه الشخصية، ثم الاضطرابات التى تطرأ على السلوك، هذه أيضا نحتاج فيها إلى المنهج الإسلامى، فالاضطراب فى نظر قوم غير مسلمين قد يكون غيره فى نظر المسلمين والعكس أيضا صحيح ، ومن هنا فمعيار الانحراف قد يختلف. وحين يرى فرويد أن الغريزة الجنسية هى محور الشخصية ، وأن كبت الغريزة هو محور الانحراف فنحن نعلم أنه فى ضوء المنهج الإسلامى هناك انحرافات تسبق كثيرا انحرافات الجنس ومنها انحرافات العقيدة. ومع ذلك فالإسلام لم يهمل انحرافات الجنس. وحين يرى روجرز أن الناس تمرض لأن هناك شروطا للأهمية، وضعها الآباء أو آخرون لهم أهمية، على الاعتبار الإيجابى للفرد فإنه لم يفرق إن كانت شروط الأهمية هذه منطقية أم لا، أو كانت أخلاقية أم لا، ثم إن الشروط هنا قد ربطها بالناس-وإذا نظرنا بنفس المنطق على ضوء المنهج الإسلامى لقلنا إن شروط الأهمية ينبغى أن تكون مستمدة من المنهج الإسلامى وأما ما عداها فلا لزوم له. وأن شروط الأهمية بهذا تكون معيارا مساعدا على النمو السليم ، أما من ينحرف فلن تضيق به الأرض مادام قد عاد إلى باب التوبة والاستغفار.

فالعلاج النفسى الإسلامى يتسع لكل طريقة يفكر فيها الباحث المسلم ، ولكن فقط عندما نطبقها كمرشدين ومعالجين مسلمين ينبغى أن نستخدمها فى إطار المنهج الإسلامى القائم على وجود عقيدة صحيحة، والقيام بواجب العبادة، وشروط المعاملات، وإذا لم نطبق هذه الطرق فى هذا الإطار فإن النتيجة ستكون كما يحدث فى الغرب-ظاهر فيه الشفاء، وباطن فيه انحراف جديد ومرض نفسى سرعان ما يظهر مرة أخرى ، وتستمر الدورة. والمتأمل للمنهج الإسلامى يجد أنه تعامل مع الإنسان فى تحقيق الأهداف التالية :

١ - مساعدة المسترشد على فهم واقعه وظروفه وتفكيره وتصرفاته ومشاعره ، وذلك فى ضوء المنهج الإسلامى، ومساعدته على تقويم هذا الواقع والحكم عليه فى ضوء المعايير الإسلامية.

٢ – مساعدة المسترشد على تنمية طاقاته بما يساعده على الوفاء بالتكاليف الشرعية وحاجات معيشته ، وبما يتفق مع متطلبات المجتمع المسلم.

٣ – مساعدة المسترشد على تصحيح عقيدته على ضوء عقيدة التوحيد والوفاء بالتكاليف الشرعية وسلوكه الشخصى والاجتماعى بما يساعده على تحقيق الأمن والطمأنينة.

٤ – مساعدة المسترشد على تعلم كيفية مواجهة المشكلات وذلك على هدى من المنهج الإسلامى .

٥ – مساعدة المسترشد على تعلم كيفية اتخاذ القرارات، وذلك فى ضوء المنهج الإسلامى.

وبذلك يكون الهدف العام للإرشاد أو العلاج النفسى القائم على أساس من المنهج الإسلامى هو مساعدة الأفراد فى مواجهة ما يقابلهم فى أمور العقيدة والعبادات والمعاملات وسائر شئون الحياة بما يحقق الطمأنينة لهم وللمجتمع المسلم، وذلك من خلال عملية تعليمية، وموقف تعليمى يوفرهما مرشد أو معالج مسلم يعمل فى إطار المنهج الإسلامى.

خامسا : دور المرشد أو المعالج :

للمرشد المسلم الذى يتخذ من المنهج الإسلامى إطاراً لعمله الإرشادى دور متميز فهو فى جانب منه دور تشخيصى يستطيع منه التعرف على المشكلات التى تقابل الأفراد وعلى سلوكهم وتفكيرهم ومشاعرهم، وله دور إنمائى يساعد به المسترشدين على النمو السليم وتجاوز مراحل الخطر وفترات الانتقال. وله دور وقائى يساعد فيه على وقاية المجتمع المسلم من الأخطار الوافدة عليه من المجتمعات الأخرى والمهددة لكيانه الاجتماعى والأخلاقى، ودور علاجى يتعامل فيه مع أفراد وجماعات صغيرة يساعدهم على مواجهة مشكلاتهم وتقليل ما يمكن أن يحدث من أضرار. وفى بعض من جوانب عمل المرشد نجده شبيها

بدور الداعية (فى الجانب الإنمائى). وفى البعض الآخر فهو يشبه دوره دور المعلم وفى جزء منه هو كالطبيب الذى يعرف علة المرض ويضع له خطة العلاج.

فالمرشد المسلم هو مرب، وهو داعية، وهو آمر بالمعروف وناه عن المنكر، وهو معلم، وهو طبيب أفكار ومشاعر وتصرفات.

صفات المرشد على ضوء المنهج الإسلامى :

١ - العلم :

فالمرشد الذى يعمل على ضوء المنهج الإسلامى يعمل من خلفية علمية تساعده على معرفة الأشخاص الذين يتعامل معهم وطبيعة نموهم ومشكلاتهم، وطبيعة الانحرافات وأسبابها، وطبيعة المشكلات وأسبابها ، وكيفية تناول هذه المشكلات على ضوء المنهج الإسلامى.

إنه بحاجة أن يدرس تكوين الإنسان الجسدى والعقلى والانفعالى والاجتماعى، وأن يعرف مراحل النمو ومشكلاته، واضطرابات السلوك، ومشكلات الحياة اليومية، وسلوك الفرد فى المجتمع ، وجوانب العقيدة والعبادات. ويمكن أن نعتبر الدراسات التالية ذات أهمية كبيرة فى إعداد المرشد ليعمل على هدى المنهج الإسلامى .

١ - مقرر فى الفقه .

٢ - مقرر فى الثقافة الإسلامية .

٣ - علم نفس عام .

٤ - علم نفس النمو .

٥ - علم نفس اجتماعى .

٦ - علم نفس التعلم .

٧ - علم الأمراض النفسية .

٨ - القياس والتقويم .

٩ - الأسس العامة للإرشاد .

١٠- الأساس النظرى للإرشاد .

١١- عملية الإرشاد .

١٢- طرق الإرشاد .

١٣- الإرشاد المهنى .

١٤- مواد اختيارية حسب التخصص .

١٥- تدريب ميدانى .

٢ - المهـــارات :

فالمرشد يحتاج أن يتدرب على مهارات مختلفة يأتى فى مقدمتها العمل وجها لوجه مع المسترشدين فى إطار علاقة إرشادية، ومن خلال المقابلة. وكذلك يحتاج أن يتدرب على تشخيص المشكلات وعلى العمل مع الجماعات، وعلى العمل مع هيئات المجتمع والتعاون مع الآباء والمدرسين ، فهو بحاجة أن يتدرب على دراسة أنماط التفكير والمشاعر والتصرفات، وعلى تقوية الدافعية لدى المسترشدين لمواجهة المشكلات ورفع مستوى المسئولية والوعى لديهم .

٣ - الصفات الشخصية :

لابد للمرشد الذى يعمل على ضوء المنهج الإسلامى أن يتحلى بمجموعة من الصفات الأساسية منها :

(أ) التدين :

ويقصد بذلك أن يكون سلوكه الدينى معروفا-وأن يكون هذا السلوك قائما على فهم كاف بأمور الدين وخاصة مسائل العقيدة والحلال والحرام.

(ب) التطابق :

أى يكون قوله مطابقا لعمله-إذ من الصعب أن يقتنع المسترشد بكلام يقوله المرشد ولا يعمل به.

﴿يأيها الذين آمنو لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾ (الصف ٢-٣)

يقول الإمام الغزالى فى هذا الشأن : [١٦]

«أن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله لأن العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار، وأرباب الأبصار أكثر فإذا خالف العمل العلم منع الرشد ....

ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود. فكيف ينقش الطين بما لا نقش فيه، ومتى استوى الظل والعود أعوج؟ ولذلك قيل فى هذا المعنى»

لاتنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

(جـ) الاعتراف بكرامة المسترشد :

والمرشد الواعى بعلمه يعرف أن دوره الأساسى هو المساعدة على نقل المسترشد من الضلال إلى الهدى، وهذا لا يأتى إلا إذا اعترف المرشد أساسا بأن الإنسان الذى يتعامل معه إنسان مكرم، ومحا من نفسه أى مشاعر أو اتجاهات سلبية نحوه.

(د) الرفق :

المرشد الذى يعمل فى ضوء المنهج الإسلامى يتخذ الرفق شعارا له فى كل خطوات عمله-والرفق هو المفتاح إلى القلوب-وقد رأينا من قبل فى حادثة الشاب الذى جاء إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ويرجو أن يرخص له

---

(١٦) الغزالى : إحياء علوم الدين .

فى الزنا، فقال له الرسول: ادن منى، وجعل يناقشه مناقشة الوالد المعلم، وصدق الله العظيم.

﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ (آل عمران ١٥٩)

(هـ) مراعاة مصلحة المسترشد :

فالمرشد من المسترشد بمثابة الولى من الضعيف– فالمسترشد فى موقف مشكلة هو بحاجة إلى من يأخذ بيده فى المواقف والمرشد هو الأمين على ذلك. وإذا كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه أخبرنا بأن المسلم للمسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله – فكيف بالمرشد الذى بعمله مع المسترشد أصبح مسئولا عن رعاية مصلحته.

٤ – أخلاقيات الإرشاد :

يتفق المرشدون والمعالجون النفسيون على قواعد أخلاقيه ينتهجونها ويحترمونها الهدف منها المحافظة على سمعة العمل الذى يقومون به وهو عمل إنسانى له قيمة عظيمة ومن أهم هذه القواعد الأخلاقية :

١ – أن المرشد لا يدعى لنفسه شيئا من علم أو مهارة ليست عنده.

٢ – أن المرشد يحترم تخصصات الآخرين.

٣ – المحافظة على سرية البيانات التى يحصل عليها من المسترشدين إلا فى أحوال استثنائية، مثل أن يكون المسترشد عازما على إلحاق الضرر بنفسه أو بالآخرين، أو إذا كانت شهادته أمرًا ضروريا أمام المحاكم.

٤ – أن الإرشار لا يتم عبر وسائل الإعلام وإنما يتم فى إطار علاقة شخصية.

٥ – ألا ينحرف المرشد فى علاقته مع المسترشد عن مجراها الموضوعى وإذا لمس انحراف هذه العلاقة من جانبه أو جانب المسترشد فعليه أن يقطع العلاقة الإرشادية فورا ويحيله إلى مرشد أو معالج غيره.

٦ – أن المرشد لا يتخلى عن إرشاد من يسترشد به إلا إذا أحاله إلى مرشد آخر يتولى ذلك.

ونحن لا نرى فى هذه المبادئ ما يخالف المنهج الإسلامى ولكنا نضيف عليها مبدأ إضافيا وهو أن المرشد المسلم والمعالج النفسى المسلم لا يستخدم فى إرشاده أو علاجه طريقة لاتتفق مع مبادئ الإسلام.

خاتمة

لقد حاول الباحث فى هذه الدراسة تقديم عرض موجز لتصور الإرشاد والعلاج النفسى على أساس من المنهج الإسلامى، وقدم هذا العرض على نفس النسق الذى تطالعنا به نظريات الإرشاد والعلاج النفسى ؛ لنرى كيف أن المنهج الإسلامى يحتوى ما يجيب عن تساؤلات المرشد والمعالج النفسى المسلم. فعرض لهذا التصور محتويا على الجوانب المتصلة بطبيعة الإنسان، ونمو الشخصية، وانحرافات الشخصية، والعلاج النفسى، وأهداف الإرشاد، ودور المرشد، وهذا البناء النظرى القائم على أساس المنهج الإسلامى بناء مرن لم نضع فيه كل ما يحتويه المنهج الإسلامى من مبادئ وأسس وطرق وقضايا تهم المرشد والمعالج فذلك عمل قد يحتاج إلى مجلدات. ولهذا اقتصر على وضع إطار لنموذج قد يفتح الطريق أمام باحثين آخرين لتصور نماذج أخرى من واقع المنهج الإسلامى كما يهيئ الفرصة لوضع الطرق العلاجية الإسلامية موضع التطبيق العلمى المنظم.

وبحثنا فى هذا المجال إنما ينبع من حقيقة أصيلة وهى أن الإسلام كله جاء نورا وهداية يبدد ظلام العقول والقلوب– ويضع عن الناس إصرهم وأغلالهم التى تكبل أنفسهم لينطلقوا إلى غاية خلقهم، ووظيفة حياتهم عبادة الله وحده والخلافه فى الأرض، وما الظلمات إلا أمراض للنفس تحيط بالعقل فيزيغ عن العقيدة، وتحيط بالمشاعر فلا يحس الإنسان بإنسانيته، وإنما ينطلق وراء دوافعه

وحاجاته ، وتحيط بتصرفاته فى حياته، وهو يحسب أنه يحسن صنعا ، فالإسلام كله علاج لا يقاربه علاج- عقيدة المسلم الصحيحة هى قمة العلاج لأنها قمة الهداية وعباداته كلها شفاء ونور، صلاته وصيامه، وحجه، وزكاته، وذكره لله، وتسبيحه، واستغفاره، وتوجهه بالدعاء، والتوبة إليه، والصدقات، والصبر، والجهاد، .... والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. والدين يزكى الخلق، والخلق يصون من الاضطرابات ، وكيف يضطرب من يؤمن بإله واحد؟ وكيف يضطرب من يؤمن بالقدر خيره وشره؟ وكيف يضطرب من يتلو القرآن وفيه شفاء لما فى الصدور؟ وكيف يضطرب من يعرف حقيقة غايته أن يعبد الله كما أمره؟ وكيف يضطرب من يزكى نفسه ويلومها؟ وكيف يضطرب من يسعى إلى إرضاء ربه جل وعلا؟ كيف يضطرب من توازنت علاقاته مع خالقه سبحانه وتعالى عقيدة وعبادة وعملا ، وعلاقته مع نفسه جهادا لها وإصلاحا ووفاء بحقوق الله وبحقوق نفسه وحقوق الناس ، وعلاقته مع الناس عطاء وأخذا-حقا وواجبا-صيانة وأمنا-حبا ومودة- رحمة وتعاونا؟ وكيف تتشوش فى ذهنه الحقائق من هُدِى إلى صراط مستقيم؟ وصدق الله العظيم : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين﴾ (الزمر ٢٢)

﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ (المائدة ١٥-١٦)

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ (الأنعام٨٢)

﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ (الأنعام ١٢٢)

المراجع العربية :

١ – أبو العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، العبودية، ط٥ المكتب الإسلامى، بيروت ١٣٩٩هـ

٢ – أبو العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الاستقامة جـ٢ الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٣ – أبو حامد محمد الغزالى، إحياء علوم الدين، بيروت، دار المعرفة ١٩٨٢

٤ – أبو عبد الله محمد بن أبى بكر (ابن قيم الجوزية). الفوائد، القاهرة، مكتبة المتنبى ب ت

٥ – أبو عبد الله محمد بن أبى بكر (ابن قيم الجوزية)، الروح.

٦ – أبو عبد الله محمد بن أبى بكر (ابن قيم الجوزية)، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، جزءان، بيروت، دار المعرفة ب ت

٧ – أبو عبد الله محمد بن أبى بكر (ابن قيم الجوزية)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الحديث، القاهرة ب ت.

٨ – السيد سابق، فقه السنة، بيروت، دار الكتاب العربى ب ت.

٩ – سيد قطب ، فى ظلال القرآن، بيروت دار الشروق، ط١٠، ١٩٨٢.

١٠– عبد القادر عودة، التشريع الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى، جزءان ، بيروت. مؤسسة الرسالة ب ت.

١١– محمد عثمان نجاتى، علم النفس فى حياتنا اليومية، الكويت، دار القلم ط١٠– ١٩٨٣

١٢– محمد عثمان نجاتى، القرآن وعلم النفس ط٢ القاهرة، دار الشروق ١٩٨٥/١٤٠٥.

١٣– محمد فؤاد عبد الباقى. معجم ألفاظ القرآن الكريم، بيروت، دار الفكر العربى ١٤٠١ هـ/١٩٨٥م.

١٤- محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، بيروت، دار الشروق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م

١٥- محمد قطب، في النفس والمجتمع بيروت، دار الشروق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

١٦- محمد قطب. منهج التربية الإسلامية. ط٤، بيروت، دار الشروق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م

١٧- محمد محروس الشناوى، أنموذج تهذيب الأخلاق عند الغزالي ومقارنته بنموذج العلاج السلوكي الحديث، مجلة رسالة الخليج العربي عدد ٢٢/ ١٤٠٧هـ

١٨- محمد مصطفى شلبي، أصول الفقه الإسلامي، بيروت. دار النهضة العربية ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م

١٩- يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة ط٧ القاهرة مكتبة وهبة ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م.

البحث السادس

التصوير الإسلامى لنماذج السلوك البشرى
دراسة نفسية إسلامية

* نشر فى مجلة حامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية العدد الثامن: الرياض رجب ١٤١٣هـ/ يناير ١٩٩٣م صص ٣٥٢-٤١٠هـ.



التصوير الإسلامى لنماذج السلوك البشرى
دراسة نفسية إسلامية

١ – مقدمة :

اهتم المنهج الإسلامى فى مصادره الأساسية القرآن والسنة بتصوير نماذج السلوك البشرى [١] بأساليب متنوعة تعلم منها المسلمون ما يناسب إسلامهم من السلوك الصحيح الذي يرضى عنه خالقهم جل وعلا، ثم صاروا هم نماذج سلوكية طيبة أفاد منها من جاء بعدهم فكانوا خير سلف لنا فيما ضربوه من أمثلة التدين والخلق والعمل. والتصوير الإسلامى للسلوك البشرى يعتبر المصدر الرئيسى الذى تعلم منه المسلمون وبه استرشدوا فى كافة نواحى حياتهم.

يقول الأستاذ سيد قطب فى كتابه التصوير الفنى فى القرآن [٢].

«التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنسانى والطبيعة البشرية ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنسانى شاخص حى، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية .....» ويمضى فيقول «والأمثلة على هذا الذى نقول هى القرآن كله، حيثما تعرض لغرض من الأغراض التى ذكرناها، حيثما شاء أن يعبر عن معنى مجرد، أو عن حالة نفسية، أو صفة معنوية، أو نموذج إنسانى، أو حادثة واقعة، أو قصة ماضية، أو مشهد من مشاهد

---

(١) لتفصيل حول التصوير القرآنى لهذه النماذج يمكن الرجوع لمؤلفات الأستاذ سيد قطب وبصفة خاصة : التصوير الفنى فى القرآن– القاهرة، بيروت – دار الشروق ط١١ (١٤٠٩ ١٩٨٩) مشاهد القيامة فى القرآن – القاهرة، بيروت – دارالشروق ١٤٠١/١٩٨١

(٢) سيد قطب، التصوير الفنى فى القرآن مرجع سابق ص ٣٦–٣٨.

القيامة، أو حالة من حالات النعيم والعذاب ، أو حيثما أراد أن يضرب مثلا من جدل أو محاجة، بل حيثما أراد هذا الجدل إطلاقاً، واعتمد فيه على الواقع المحسوس والمتخيل المنظور».

وبالإضافة إلى ما أورده القرآن الكريم من صور سلوكية من أمم ماضية ومما عاصره المسلمون إبان الدعوة من أحداث فإن السنة النبوية المطهرة كانت البيان العملى الذى نقل عنه المسلمون الجوانب العملية فيما يتصل بشئون دينهم وحياتهم تصديقًا لقول الحق سبحانه :

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ (الأحزاب ٢١)

وتحاول هذه الدراسة أن تلقى الضوء على الأساليب التى عرض بها القرآن وعرضت بها السنة النبوية للنماذج السلوكية، وكذلك على التفسيرات النفسية للتعلم عن طريق النماذج، وأخيراً لبيان كيفية استفادتنا من هذا المنهج الإسلامى العظيم فى التعليم وفى الإرشاد.

٢ - معنى النموذج :

يقصد بالنموذج الصورة المصغرة المعبرة عن واقع. وفى الحياة العملية قد يكون النموذج مجسدًا (مثل النماذج التى تعد للمبانى) وقد تكون صوراً كما قد تكون أمثالاً أو تكون فى شكل معادلات رياضية أو رسومات بيانية إلخ .

أما النموذج بالنسبة للدراسة الراهنة فهو: موقف مشاهد أو متصور يشتمل على سلوك نود أن يكسبه المتعلم أو أن نمحوه من تعلمه، نود أن نزيده أو ننقصه، كما يشتمل أيضاً على نتائج هذا السلوك من ثواب (تعزيز) أو عقاب .

٣ - التصوير الإسلامى للنماذج السلوكية :

اشتمل القرآن الكريم كما اشتملت السنة النبوية المطهرة على الكثير من النماذج السلوكية والتى عرضت بأساليب شتى تناسب عملية التعلم، ومن هذه الأساليب :

أولا : القصص.

ثانياً : الأمثال.

ثالثا : المشاهد.

رابعاً : الصفات والسمات.

خامساً : البيان اللفظى.

سادساً : البيان العملى.

وقد اشتملت هذه النماذج على موضوعات عديدة ارتبطت بكافة جوانب العقيدة والعبادات والمعاملات والأحكام والأخلاق.

وسوف نتناول كل أسلوب من هذه الأساليب بالعرض فيما يلى :

أولاً : القصص

(أ) القصص القرآنى :

أورد القرآن الكريم كثيراً من القصص الذى يخبر عن الأمم السابقة وعن مواقفهم من رسلهم ومن موضوع الرسالة وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده والدعوة إلى إصلاح المجتمع والقضاء على ما فيه من آفات وفساد كالطغيان والعدوان وعدم الوفاء فى الكيل والميزان، وشيوع الفاحشة، وغيرة الحسد، والحقد، وقطع الطريق وغيرها كثير. وحين يعرض القرآن لهذه القصص بأسلوب متميز وفريد، ذلك الأسلوب الذى تحدى به العرب وهم أهل الفصاحة، تحداهم به فى مبناه ومحتواه، فإنه إنما يصور مواقف تعليمية يقصد بها أن يغير سلوكهم من خلال عرض أحداث لها بدايات ولها مجريات وتتابع ولها نهايات. فنجد على سبيل المثال أن القرآن يتحدث عن فرعون وقد طغى وادعى الألوهية، ثم كانت نهايته أن أغرقه الله هو وجنوده فى اليم:

﴿فكذب وعصى* ثم أدبر يسعى* فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى* فأخذه الله نكال الآخرة والأولى* إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ (النازعات ٢١-٢٦)

وهكذا لا يقف القصص القرآني عند عرض الأحداث وإنما ينتهى إلى وضع قيمة بنائية تعليمية وإرشادية يستفيد منها الأفراد والمجتمعات فى كل وقت.

ويؤكد القرآن الكريم على أهمية القصص القرآنى، للرسول ﷺ المأمور بتبليغ الرسالة عن ربه عز وجل، وللمؤمنين الذين اتبعوه ، وكذلك للكفار والمنافقين. فالقصص القرآني فوق أنه يبين الحقيقة الكبرى: قضية الألوهية والربوبية، والحساب والجزاء له أهمية تثبيت الرسول ﷺ وتقوية عزمه ، وله أهمية تبشير المؤمنين بالفوز والنصر ، وكذلك تحذير الكفار من مغبة كفرهم وعنادهم .

﴿إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ (النازعات ٢٦)

﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذا الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ (هود ١٢٠)

﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين * وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى أ فلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون * حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين * لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ (يوسف ١٠٨-١١١)

﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب * وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد * إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ (هود ١٠٠-١٠٣)

يقول الأستاذ محمد قطب عن القصة فى القرآن [٣] :

«وقد استخدم القرآن فى أغراضه الدينية البحتة، كل أنواع القصة:

القصة التاريخية الواقعية المقصودة بأماكنها وأشخاصها وحوادثها. والقصة الواقعية التى تعرض نموذجا لحالة بشرية، فيستوى أن تكون بأشخاصها الواقعيين أو بأى شخص يتمثل فيه ذلك النموذج، والقصة المضروبة للتمثيل والتى لا تمثل واقعة بذاتها ولكنها يمكن أن تقع فى أية لحظة وأى عصر من العصور .

من النوع الأول، كل قصص الأنبياء وقصص المكذبين بالرسالات وما أصابهم من هذا التكذيب، وهى قصص تذكر بأسماء أشخاصها وأماكنها وأحداثها على وجه التحديد والحصر. موسى وفرعون، عيسى وبنى إسرائيل، صالح وثمود، هود وعاد، شعيب ومدين، لوط وقريته، نوح وقومه إلخ ..

ومن النوع الثانى قصة ابنى آدم :

﴿واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين ... ﴾ (المائدة ٢٧- ٣٠)

ومن النوع الأخير صاحب الجنتين:

﴿واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً﴾ (الكهف ٣٢)

ومن أمثلة القصص التى أوردها القرآن :

١ – قصة آدم عليه السلام .

٢ – قصة نوح عليه السلام.

٣ – قصة موسى عليه السلام.

٤ – قصة يوسف عليه السلام .

---

(٣) محمد قطب، منهج الفن الإسلامى. القاهرة- بيروت - دار الشروق ١٤٠١/ ١٩٨٠ ص ص ١٥٦-١٥٨.

٥ – قصة عيسى عليه السلام.

٦ – قصة ابنى آدم.

والجوانب التى يركز عليها القصص القرآني يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ – الدعوة إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأوثان :

وهذه الدعوة هى غاية الرسالات ومحور دعوتها، وإليها دعا جميع رسل الله وأنبيائه ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ (الأعراف ٥٩)

﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾ (العنكبوت ١٦– ١٧)

﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (النحل ٣٦)

٢ – الدعوة إلى الإصلاح ونبذ الأخلاق الفاسدة :

وهذا الجانب يدخل أيضاً فى كل الرسالات فهو جانب مكمل لجانب العقيدة والعبادة، ولكنه كان بارزا فى دعوات بعض الرسل حيث شاع الفساد فى المعاملات والعلاقات بجانب الفساد فى الاعتقاد .

ويتضح لنا هذا الجانب فى رسالة شعيب وفى رسالة لوط عليهما السلام .

﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون﴾ (الأعراف ٨٠–٨١)

﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط * وياقوم أوفوا

المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾ (هود ٨٤-٨٦)

٣- بيان عاقبة المؤمنين الذين آمنوا بالله وبما أرسل به رسلهم من نصر وفوز :

﴿ فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قومًا عمين﴾ (الأعراف ٦٤)

﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآيتنا وما كانوا مؤمنين﴾ (الأعراف ٧٢)

﴿ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقًا علينا ننج المؤمنين ﴾ (يونس ١٠٣)

٤ - بيان عاقبة المكذبين من هلاك وعذاب :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد﴾ (الفجر ٦-١٤)

﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين﴾ (هود ٦٧)

﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد * إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ (هود ١٠٢-١٠٣)

٥ - بيان معجزات الله التى خص بها رسله :

ومن ذلك معجزة نجاة إبراهيم - عليه السلام- من النار، ومعجزة العصا لموسى عليه السلام يشق بها الحجر ويشق بها البحر وتنقلب إلى حية تسعى، ومعجزات عيسى عليه السلام وغيرها من المعجزات .

٦- بيان قدرة الله على البعث :

وقد ورد فى سورة البقرة قصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها وتساءل عن مدى بعثها بعد موتها، كذلك قصة أبى الأنبياء إبراهيم عليه

السلام حين سأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى، وقصة أهل الكهف، وفى قصة الذى تساءل عن البعث يقول الله تعالى :

﴿أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير * وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ (البقرة ٢٥٩- ٢٦٠)

٧ - بيان عاقبة كفر النعمة والغرور :

ويتجلى ذلك فى مجموعة من القصص القرآني ومنها قصة سبأ، وقصة صاحب الجنتين، وقصة قارون.

ففى قصة قارون :

﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وءاتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين * قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون * فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن ءامن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون * فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين * وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا

لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون * تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ (القصص ٧٦-٨٣)

ولا يقف القصص القرآني عند هذه الجوانب وإنما اشتمل على عديد من المواقف التى توضح عاقبة التقوى والصبر كما فى قصة يوسف عليه السلام وإخوته وما مر به من مواقف تعرض فيها للابتلاء فكان تمسكه بالتقوى والصبر سبباً فى نجاته وتبوئه مكانة كبيرة، وفى هذا يقول القرآن على لسانه :

﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ (يوسف ٩٠)

كما نجد فى قصة موسى مع العبد الصالح ما يوضح جوانب من سلوك المتعلم مع المعلم وما يحتاجه من صبر فى سبيل تلقى العلم. وكذلك فى كثير من القصص التى وردت عن بنى إسرائيل فى القرآن مثل قصة الاستسقاء، وطلب تنويع الطعام، واتخاذهم العجل، وعدوانهم فى يوم السبت وقصة البقرة وغيرها وما تحتويه من آيات سواء النكوث فى العهد أو تعنتهم فى السؤال عن وصف البقرة أو عدم طاعتهم لأوامر أنبيائهم أو قتلهم الأنبياء والتى كانت سبباً فى استحقاقهم لغضب الله عليهم .

﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين﴾ (الأعراف ١٥٢)

ويمكن أن نخلص من هذا العرض إلى ما يلى :

١ - **القصص القرآنى** يمثل جانباً هاماً فى توضيح السلوك القويم المطلوب من الإنسان فيما يتعلق بالعقيدة والعبادات والمعاملات.

٢ - يهتم القصص القرآنى بتوضيح الموضوع الذى يتصل بالرسالة فيما يعرضه من قصص سواء اتصل بالعقيدة أو بباقى السلوك.

٣ - يؤكد القصص القرآنى على أن الرسل قد دعوا إلى الله بالحسنى وبالموعظة وأنهم صبروا على ما أوذوا.

٤ – ويؤكد القصص القرآنى على أن هناك عاقبة تنتظر المتقين وهى النصر من عند الله والنجاة فى الدنيا بالإضافة إلى ما ينتظرهم من جزاء وعد الله به المتقين فى أخراهم وأن عاقبة المكذبين هى التدمير والهلاك بالغرق أو الصيحة أو الرجفة أو الرجم أو غيرها .

يهدف القصص القرآني فى مرحلة الدعوة إلى تقوية عزيمة الرسول ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين . والنماذج الذى يعرضها هذا القصص قائمة فى كل مكان وزمان يتحدث فيه المصلحون ويدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

(ب) القصص النبوى :

نطالع فى السنة النبوية قصصاً حكاها الرسول– ﷺ – بما آتاه الله من علم، وهى تشتمل على جوانب تعليمية كثيرة حول أمور العقيدة والعبادات والأخلاق. وكذلك نقرأ فى السنة قصصاً حكيت عن مواقف مرت بالرسول–ﷺ – أثناء حياته وحكاها عنه أصحابه– رضوان الله عليهم – وهو أيضاً يشتمل على جانب تعليمى وإرشادى كبير للمسلمين فى سائر شؤون حياتهم. وفيما يلى أمثلة من القصص الذى ورد فى السنة النبوية المطهرة :

عن أبى هريرة – رضى الله عنه– أن الرسول الله– ﷺ – قال :

«بينما رجل يمشى فى طريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث بأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى قد بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له » قالوا : يا رسول الله إن لنا فى البهائم أجراً؟ فقال : فى كل كبد رطبة أجر» رواه البخارى ومسلم .

وفى رواية للبخارى « فشكر الله له فغفر له فأدخله الجنة» .

وهذه القصة تحث المسلمين على الرفق بالحيوان.

ومن هذا النوع من القصص الذى ورد فى السنة النبوية قصة الرهط الثلاثة الذين أووا إلى غار فوقعت صخرة وسدته، وبدأ كل منهم يتذكر موقفاً عمل فيه عملاً صالحًا ابتغاء وجه الله فانزاحت الصخرة ونجوا .

وكذلك قصة الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفساً ، وهى توضح رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، وقصة الثلاثة من بنى إسرائيل : الأبرص، والأقرع، والأعمى ، وماذا كانت نتيجة شكر الله على نعمه، وماذا كانت نتيجة كفر النعمة.

ومن النماذج من النوع الثانى والتى اشتملت على مواقف اشترك فيها الرسول ﷺ والتى لها محور تعليمى وإرشادى . قصة الرهط الذين جاءوا إلى بيوت النبى يسألون عن عبادته. وقصة موعظة الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل عندما بعثه إلى اليمن . وقصة تقبيله للحسن بن على – رضى الله عنه – وعنده الأقرع ابن حابس الذى قال إن لي عشرة من الولد لم أقبل أحدهم. وقصة امرأة أبى طلحة حين مات ابن لهما فأخفت خبر موته حتى الصباح ثم أخبرته الخبر بالتدريج. وغير ذلك كثير مما يشتمل على كل فضائل الخير وحسن الخلق وتمام الإيمان والإسلام والذى يستفيد منه كل مسلم ومسلمة فى تربية نفسه ومعاملة أهله وجيرانه وتربية أبنائه وفى كافة شؤون دينه ودنياه والذى تزخر به كتب الصحاح.

ثانياً : الأمثال

(أ) الأمثال فى القرآن :

يقول الإمام ابن القيم فى كتابه الأمثال فى القرآن (٤) :

«وقع فى القرآن أمثال، وإن أمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون، وإنها تشبيه شىء بشىء فى حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر» .

---

(٤) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية. الأمثال فى القرآن بيروت . دار المعرفة ١٤٠١هـ/١٩٨١م (ص١٧٤).

ويقول فى كتابه مدارج السالكين [٥] :

«وكم فى القرآن من مثل عقلى وحسى ينبه به العقول على حسن ما أمر به، وقبح ما نهى عنه، فلو لم يكن فى نفسه كذلك لم يكن لضرب الأمثال للعقول معنى ولكان إثبات ذلك بمجرد الأمر والنهى دون ضرب الأمثال وتبين جهة القبح المشهودة بالحس والعقل .

والقرآن مملوء بهذا لمن تدبره كقوله تعالى :

﴿ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ (الروم ٢٨)

يحتج سبحانه وتعالى بما فى عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكًا لهم. فإذا كان أحدهم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه ولا يرضى بذلك، فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء تعبدونهم كعبادتى؟ وهذا يبين أن قبح عبادة غير الله مستقر فى العقول والفطر والسمع؛ ولذا نبه العقول وأرشدها إلى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك ».

وقد أورد محمود بن الشريف فى كتابه الأمثال فى القرآن قوله [٦] :

«يقول العلامة أبو السعود فى تفسيره: «والتمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبى وقمع ثورة الجامح الأبى. كيف لا؟ وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبراز لها فى معرض المحسوسات الجلية، وإبداء المنكر فى صورة المعروف، وإظهار للوحشى فى صورة المألوف». وقال ابن المقفع:« إذا

---

(٥) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين – القاهرة: دار الحديث (دون تاريخ) (ص٢٦٣-٢٦٤).

(٦) محمود بن الشريف ، الأمثال فى القرآن (ط٢) جدة : دار عكاظ للنشر ١٣٩٩-١٩٧٩ (ص١٠).

جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق وآنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث» وقال إبراهيم النظام : «يجتمع فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى، وحسن التشبيه. وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة » .

وقد ورد فى القرآن وفى السنة النبوية مجموعة كبيرة من الأمثال لتوضيح جوانب شتى . وفيما يلى بعض الأمثال التى وردت فى القرآن الكريم :

﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ (البقرة ٢٦١)

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهارًا فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون * والله يدعوا إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ (يونس ٢٤– ٢٥)

يقول الإمام ابن القيم فى شرح هذا المثل [٧] :

شبه – سبحانه – الحياة الدنيا فى أنها تتزين فى عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغتراراً منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سُلِبَها بغتة فى وقت هو أحوج ماكان إليها، وحيل بينه وبينها. فشبهها بالأرض التى ينزل بها الغيث فتشبع ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر، فيغتر به، ويظن أنه قادر عليها، مالك لها فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم تكن من قبل، فيخيب ظنه وتصبح يده صفراً منها، فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء. وهذا من أبلغ التشبيه والقياس ، ولما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات والجنة سليمة منها قال: «والله يدعو إلى دار السلام»

---

(٧) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية إعلام الموقعين عن رب العالمين – صيدا – بيروت المكتبة العصرية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م جـ١ص ١٥٣.

فسماها هنا دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التى ذكرها فى الدنيا فعم بالدعوة إليها، وخص بالهداية من يشاء، فذاك عدله وهذا فضله».

﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد﴾ (إبراهيم ١٨)

يقول الإمام ابن القيم فى كتابه إعلام الموقعين شارحاً لهذا المثل (٨) :

«فشبه تعالى : أعمال الكفار فى بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة فى يوم عاصف. فشبه - سبحانه - أعمالهم فى هبوطها وذهابها باطلا كالرماد المنشور على غير أساس من الإيمان والإحسان وكونها لغير الله - عز وجل - وعلى غير أمره برماد طيرته الريح العاصف فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه، فلذلك لا يقدرون مما كسبوا على شيء، لا يقدرون يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء، فلا يرون لها أثراً من ثواب ولا فائدة نافعة فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه موافقاً لشرعه ...».

﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون * إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم * وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ (العنكبوت ٤١-٤٣)

يقول الإمام ابن القيم فى كتابه إعلام الموقعين (٩) :

فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم، فهم فى ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتاً، وهو أوهن البيوت وأضعفها، وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين

---

(٨) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين. مرجع سابق (ص١٧١).

(٩) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية : إعلام الموقعين عن رب العالمين مرجع سابق (ص١٥٤).

اتخذوا من دون الله أولياء فلم يستفيدوا ممن اتخذوهم أولياء إلا ضعفاً، كما قال تعالى :

﴿واتخذوا من دون الله آلهةً ليكونوا لهم عزاً * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً﴾ (مريم ٨١- ٨٢)

وقال تعالى : ﴿واتخذوا من دون الله آلهةً لعلهم ينصرون * لا يستطعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾ (يس ٧٤- ٧٥)

هكذا نرى أن الأمثال فى القرآن تعمل على توضيح الجوانب الأساسية للعقيدة ولجوانب السلوك من خلال تقريبها إلى العقول بجوانب محسوسة ملموسة فى واقع الحياة. فهى توضح أمثلة للشرك بالله وأمثلة للعمل الواهى الذى يذهب هباء وأمثلة عن واقع الحياة وأنها أشبه بالزرع الذى ينبت ثم يخضر ويترعرع ثم يصبح هشيماً تذروه الرياح، وأمثلة للعمل الصالح والكلمة الطيبة والوفاء بالعهود والإنفاق فى سبيل الله، وأمثلة عن الخلق والبعث ، وأمثلة حول مضاعفة الحسنات وغيرها . ويلخص الإمام ابن القيم فائدة ضرب الأمثال فيقول – رحمه الله – (١٠) .

«ضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منها أمور التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل وتصويره فى صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس. وقد تأتى أمثال القرآن مشتملة على تفاوت الأجر وعلى المدح والذم وعلى الثواب والعقاب وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر. والله أعلم».

(ب) الأمثال فى السنة النبوية :

اشتملت السنة النبوية المطهرة على مجموعة كبيرة من الأمثال التى تعمل على نقل الأفكار فى صورة سهلة للمستمع، وقد تناولت الأمثال النبوية نواحى كثيرة فى حياة المسلمين بالإضافة إلى الجانب الأساسى وهو جانب العقيدة.

(١٠) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف باس قيم الجوزية، بدائع الفوائد– بيروت : دار الكتاب العربى دون تاريخ (جـ٤ ص٩).

يقول الإمام ابن القيم [(١١)] :

«وقد قرب النبى ﷺ الأحكام إلى أمته بذكر نظائرها وأسبابها وضرب لها الأمثال.

ويضرب ابن القيم مثالا على ذلك بالحديث الصحيح «أن أعرابياً أتى رسول الله ﷺ فقال « إن امرأتى ولدت غلاماً أسود وإنى أنكرته فقال رسول الله ﷺ «هل لك من إبل؟ قال : نعم. قال: فما ألوانها؟ قال : حُمر، قال : هل فيها من أورق؟ قال: إن فيها لورقا، قال: فأنى ترى ذلك جاءها ؟ قال : يا رسول الله عرق نزعه، قال: ولعل هذا عرق نزعه» ولم يرخص له الانتفاء منه».

هكذا نرى كيف أوضح الرسول ﷺ لهذا السائل بمثال ملموس من واقع حياته لينفى له شبهة راودته فى نسب ابنه.

ونذكر من الأمثلة النبوية ما يلى:

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

«مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» . (رواه البخارى ومسلم).

وفى هذا المثل يبين الرسول ﷺ تعاطف المؤمنين ووحدة مشاعرهم بما يكون من استجابة أعضاء الجسد بعضها لبعض فى المرض كما فى الصحة وهو ما يدل على أن العلاقة بين المؤمنين علاقة عضوية قوية. ومما هو جديربالذكر أن وحدة الجسم وتأثر أعضائه بعضها ببعض أمر لم يدركه الأطباء إلا فى أوائل القرن العشرين.

عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

« مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى» . رواه مسلم.

---

(١١) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين، مرجع سابق حـ١ ص١٩٩.

وفى هذا المثل توضيح لمدى حرص النبى ﷺ على أمته وعلى نجاتها من الوقوع فى المهالك التى لا يدركون عاقبتها ، وهو مثال محسوس فى كل زمان وكل مكان حيث تميل الفراشات والجنادب إلى الضوء الصادر عن النار وهى لا تدرى أنها مهلكة لها .

وعن النعمان بن بشير – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال:

«مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها. فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا. فلو تركوهم وما أردوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعاً» رواه البخارى.

وهذا المثل النبوى الكريم يوضح فيه الرسول ﷺ أهمية المسئولية والشعور بها ومسئولية الجماعة نحو ما قد يقع من بعض أفرادها من مخالفات وهو ما يعرف بالضبط الاجتماعى حيث وجود هذا الضبط الذى يتمثل فى المحافظة على حدود الله والتزام ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه يؤدى إلى وقاية المجتمع من مخاطر الفوضى الاجتماعية .

وهكذا تمضى الأمثال النبوية الكريمة تقرب المعتقد والسلوك بمحسوسات من واقع الحياة، وتتجلى فى هذه الأمثال عظمة الرسول المعلم، فنجده مرة يخط خطا مستقيماً ويقول: إن هذا صراط الله. ويخط عن يمينه وعن شماله خطوطاً ويقول : إن هذه سبل الشيطان. وفى مثال آخر يضرب مثلاً للصفات الإيجابية والصفات السلبية بتقسيم رباعى جميل يجعل قمته المؤمن الذى يقرأ القرآن ويشبه بالأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ويجعل أدناها المنافق الذى لا يقرأ القرآن فيجعله كالحنظلة لا ريح لها وطعمها مر، وبينهما يضع التمرة لا ريح لها وطعمها حلو، والريحانة ريحها طيب وطعمها مر. وهذا كله مما يقرب إلى عقول

المستمعين والمتبعين لسنته – عليه الصلاة والسلام– الفروق بين أصناف أربعة من الناس.

ثالثاً : المشاهد والمواقف

المشاهد هى مواقف تتمثل فيها الحركة والإيقاع مع الصورة .

ومن المشاهد ما يعرضه القرآن فى إطار قصصى ومنها مالا يأتى فى سياق القصص. ويستخدم القرآن المشاهد فى عرض جوانب غيبية، كما يستخدمها فى عرض جوانب مضت فى التاريخ كجانب من قصة قرآنية كما يستخدم المشاهد فى عرض أحداث مرت بالمسلمين . وهى كلها تهدف إلى الموعظة والإرشاد والتعليم .

ومن المشاهد الغيبية ما عرضه القرآن عن يوم القيامة وعن الحساب والجنة والنار وقد تكررت فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم وهى تأتى موجزة أحياناً ومفصلة أحياناً أخرى (١٢) .

نأخذ من هذه المشاهد ما ورد فى سورة الأعراف :

﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين * الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون * وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين * ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون * ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ (الأعراف ٤٤–٥٠)

(١٢) لتفصيل هذا الموضوع انظر : سيد قطب، مشاهد القيامة فى القرآن ، مرجع سابق.

وقد ورد فى سورة الزمر عرض لمشاهد يوم القيامة على النحو التالى :

﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون * وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون * ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون * وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين* وقالوا الحمد الله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ (الزمر ٦٨- ٧٥)

كما وردت مشاهد تتصل بيوم القيامة والبعث والحساب فى سور كثيرة منها سورة الحاقة وسورة الواقعة وسورة يس .

كذلك يعرض القرآن لمشاهد حول الكون الذى يحيط بالإنسان والذى تتجلى فيه حقيقة الخلق وعظمة الخالق سبحانه وتعالى .

﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾ (فاطر ٢٧-٢٨)

﴿ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون* ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير* ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من بردٍ فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد

سنا برقه يذهب بالأبصار * يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار * والله خلق كل دابة من ماءٍ فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ (النور ٤١-٤٥)

هكذا تعطينا هذه المشاهد صوراً لما يحيط بالإنسان فى الكون من خلق الله يحس مع الآيات بإيقاع حركتها فينصب لها صوراً حية فى الذهن يستدل منها على وحدانية الخالق عز وجل، هذا الاستدلال يصل إليه عن طريق السمع والبصر فيدركه بالعقل تصديقاً لقوله تعالى :

﴿إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾

ونلاحظ هنا أن الآيات بدأت بلفت الانتباه «ألم تر»

ومن المشاهد التى أوردها القرآن ما يتصل ببيان أن الإنسان مفطور على العبودية لله واللجوء إليه سبحانه وتعالى وخاصة عند الشدائد. وأنه يجحد النعمة وينسى ما كان فيه من كرب فيعود سيرته الأولى من البغى .

﴿هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ (يونس ٢٢-٢٣)

أما المواقف والأحداث التى عاصرها المسلمون وعاشوها فقد ذكرها القرآن تذكيرا لهم بها وتحليلاً لها فى عرض جميل وفى إطار هدف فيه صالحهم ولتكون كذلك عبرة لمن يأتى بعدهم . ولنطالع بعض هذه المواقف .

﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم﴾ (التوبة ٤٠)

﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير * ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ (التوبة ٤٧-٧٧)

والمتأمل فى سورة التوبة يجد أنها حفلت بمجموعة كبيرة من هذه المواقف التى تفضح المنافقين فيما فعلوه ، وهى بذلك تحذر كل مسلم من أن يقوم بمثل هذا السلوك سواء كان التخلف عن الجهاد أو اللمز فى الصدقات أو التحذير من النفور فى الحر. أو الذين اتخذوا مسجد الضرار أو غيرها .

ومن هذه المواقف التى تعرضها سورة التوبة ذلك الوصف النفسى للثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد .

﴿لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين تبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذى خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾ (التوبة ١١٧- ١١٨)

ويورد القرآن فى هذا الصدد عرضاً لما حدث فى غزوة أحد ليعيد إلى أذهان المسلمين صورة لما حدث من هزيمة ويورد أيضاً صورة لغزوة بدر التى انتصر فيها المسلمون .

نقرأ عن غزوة بدر قول الله تعالى :

﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وما

جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ (آل عمران ١٢٣-١٢٦)

ونقرأ عن غزوة أحد قول الحق تبارك وتعالى :

﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون * ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾ (آل عمران ١٥٣ - ١٥٤)

يقول الأستاذ سيد قطب فى تفسيره الظلال بعد الآيات الخاصة بموقعة بدر: (١٣)

﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾

هذه اللمسة الأولى فى تذكيرهم بالنصر فى بدر . ثم يستحضر مشهدها ويستحيى صورتها فى حسهم كأنهم اللحظة فيها ..

ويختم كلامه بقوله :

وبمثل هذه التوجيهات المكررة فى القرآن، المذكرة بشتى أساليب التوكيد، استقرت هذه الحقيقة «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم» . فى أخلاد المسلمين على نحو بديع هادئ، عميق مستنير .

عرفوا أن الله هو الفاعل - وحده - وعرفوا كذلك أنهم مأمورون من قبل الله باتخاذ الوسائل والأسباب وبذل الجهد والوفاء بالتكاليف فاستيقنوا الحقيقة وأطاعوا الله فى توازن شعورى وحركى عجيب .

---

(١٣) سيد قطب، فى ظلال القرآن (ستة أجزاء) ط١٠ - القاهرة - بيروت، دار الشروق ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م جـ١ ص٤٧٠.

ولكن هذا إنماجاء مع الزمن، ومع الأحداث، ومع التربية بالأحداث، والتربية بالتعقيب على الأحداث كهذا التعقيب ونظائره الكثيرة فى هذه السورة (سورة ال عمران).

ثم يقول فى شرح آيات موقعة أحد: (١٤)

«ثم يمضى السياق خطوة أخرى فى استعراض أحداث المعركة، واتخاذها محورا للتعقيبات، يتوخى فيها تصحيح التصور، وتربية الضمائر، والتحذير من مزالق الطريق، والتنبيه إلى ما يحيط بالجماعة المسلمة من الكيد وما يبيته لها أعداؤها المتربصون».

ويمضى الأستاذ سيد قطب فى تفسيره إلى أن يصل إلى قوله:

«وحين ننظر فى هذه المجموعة من الآيات نظرة فاحصة نجدها قد ضمت جوانحها على حشد ضخم من المشاهد الفائضة بالحيوية، ومن الحقائق الكبيرة فى التصور الإسلامى، وفى الحياة الإنسانية وفى السنن الكونية. نجدها تصور المعركة كلها بلمسات سريعة حية متحركة عميقة فلا تدع منها جانباً إلا سجلته تسجيلاً يستجيش المشاعر والخواطر، وهى بدون شك أشد حيوية وأشد استحضاراً للمعركة بجوها وملابساتها ووقائعها وبكل الخلجات النفسية والحركات الشعورية المصاحبة لها.. من كل تصوير آخر ورد فى روايات السيرة على طولها وتشعبها. ثم نجدها تضم جوانحها على ذلك الحشد من الحقائق فى صورتها الحية الفاعلة فى النفوس البانية للتصور الصحيح».

نعم إنها التربية بالأحداث والتربية بالتعقيب على هذه الأحداث التى بناها الإسلام قبل أن يعرف العلم ما يعرف بالارتداد الراجع Feedback ولا بالتقويم Evaluation ولا بالتحليل المرتد Retrieval Analysis ولا بإعادة تأطير المشكلة Re-framing وقبل أن يعرف العلم تسجيل الأحداث بالصوت والصورة فى

(١٤) سيد قطب فى ظلال القرآن، مرجع سابق، جـ١ ص ٤٨٩.

المعارك ليدرسها طلاب الكليات العسكرية ويتعلموا منها دروس النصر كما يتعلمون دروس الهزيمة.

وهكذا يعرض القرآن على مسامع المؤمنين مشاهد ومواقف عاشوها ومروا بها عرضاً موجزاً ليبين لهم قواعد دينهم وآداب حياتهم وتعاملهم. ومن أمثلة هذا الجانب ما ورد فى شأن زيد بن حارثة وزواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش ، وما ورد بشأن غزوة حنين وبيعة الرضوان وغيرها.

وهذا الأسلوب الذى يشتمل على إعادة عرض المواقف وتقييمها والحكم عليها والاستفادة من نتائجها لهو من الأساليب الإرشادية الإسلامية التى ينبغى أن يستفيد منها المرشدون والمعلمون والآباء فى الإرشاد والتعليم والتربية ، وهى تقوم على تحليل السلوك الذى حدث وبيان أسبابه، وما حدث فيه وبيان الصحيح من الخطأ وكذلك تحديد المسئولية.

ولقد حفلت السنة النبوية المطهرة بكثير من المواقف التى أعادها الرسول ﷺ ومنها حديثه ﷺ عن يوم الطائف وكيف أوذى، وحديثه إلى الأنصار يذكرهم بما كانوا عليه حين وصل إلى المدينة وحديثه عن الإسراء والمعراج وغيرها كثير.

رابعاً - الصفات البشرية

يعرض القرآن الكريم لنماذج سلوكية تتضح فيها الأنماط البشرية الموجودة فى المجتمع الإسلامى، من المؤمنين، والكفار، والمنافقين، ويقرن هذا العرض بالحكم على السلوك أو الصفة التى يعرضها، فيمتدح الصفات التى يرضى الله عنها وهى صفات المؤمنين ويرغب فيها، ويذم صفات الكفار والمنافقين ويحذر من عواقبها وينفر منها. وفى هذا الترغيب والترهيب ما يساعد على تعلم السلوك المرغوب وترك السلوك المذموم.

ومن الصور التى يعرضها القرآن لصفات المؤمنين ويثنى عليها ويعد أصحابها بالفلاح والفوز نختار النماذج الآتية :

﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عم اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ (المؤمنون ١ -١١)

هكذا بدأت الآيات بالبشرى لأصحاب هذه الصفات «قد أفلح» والفلاح هو غاية ما يتمناه كل مسلم كما انتهت أيضاً إلى البشرى

﴿أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾

وبذلك فهى قد اشتملت على النموذج السلوكى وعلى نتائجه الحسنة مما يشجع على محاكاته والاقتداء به، كما اشتملت الآيات أيضاً على تحذير للمخالفين.

﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾

واشتملت الصفات على الخشوع فى الصلاة والمحافظة عليها والإعراض عن اللغو ، وأداء الزكاة وحفظ الفروج عما حرم الله ورعاية الأمانة والعهود والوفاء بها .

ومن النماذج القرآنية التى اشتملت أيضاً على عدد كبير من الصفات ما ورد فى سورة الفرقان :

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما* والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما * والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما * إنها ساءت مستقرا ومقاما * والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما * والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا * إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأولئك يبدل الله

سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما * ومن تاب وعمل صالحًا فإنه يتوب إلى الله متابا * والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما * والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا * والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما * أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما * خالدين فيها حسنت مستقرًا ومقاما﴾ (الفرقان ٦٣ – ٧٦)

كذلك أورد القرآن استثناء للمؤمنين من صفات يتصف بها الإنسان المفتقر إلي الهداية.

﴿والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ (سورة العصر)

وهكذا يعرض القرآن فى كثير من المواضع عبر سوره صفات للمؤمنين تشتمل على طاعة الله، وطاعة الرسول، والتعاون على البر والتقوى، والدعوة للخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصوم والحج، والصبر، والتطهر،والتعفف، والوفاء بالعهود، وأداء الأمانات، والعفو عند المقدرة، وكظم الغيظ، والإنفاق فى سبيل الله، وصلة الرحم، والبعد عن اللغو،واجتناب الكبائر، والتواضع وعدم التكبر، والإيثار والمحبة، والاعتدال فى كل أمورهم، وعدم الإسراف، وعدم العدوان، وإفشاء السلام، والعدل، والقيام لله بالليل والنهار، وتلاوة القرآن، وكثير وكثير من الصفات الإيجابية التى تصلح بها حياة المسلم فى دنياه وأخراه ويستحق السعادة والطمأنينة والأمن.

كما أورد القرآن الكريم مجموعة من الصفات وصف بها الكفار والمنافقين وصحبها بالذم والوصف بالخسران والتوعد بالعذاب المهين ووصف حالهم يوم القيامة وهم يندمون على أفعالهم ويذوقون العذاب الأليم.

﴿إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون﴾ (الزخرف ٧٤)

وقد وصف سبحانه وتعالى هذين الفريقين بالكفر ، والشرك، وإنكار البعث، وإنكار الرسل، وإنكار الكتب السماوية، وإنكار الملائكة، والبغى فى الأرض بغير الحق، وخداع المؤمنين والتقلب والرياء والظلم، والعدوان، وتقطيع الأرحام، والفساد فى الأرض، وارتكاب المعاصى، والاعتداء على حدود الله ، وعدم الصبر، وخيانة الأمانات والعهود، وغيرها كثير من الصفات.

ومثل هذه الصفات السيئة عندما ترد ويوضح معها ما ينتظر أصحابها من عذاب فإنها تصبح بمثابة نماذج سيئة يحذر القرآن من الاقتداء بها وينفر المسلمين من محاكاتها أو الائتلاف معها.

﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تُفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ (محمد ٢٢ – ٢٣)

﴿ق والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب * أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد * قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ * بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج﴾ (ق ١ – ٥)

﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * فى سموم وحميم * وظل من يحموم* لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم* وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظامًا أءِنا لمبعوثون * أوءاباؤنا الأولون * قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم * ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم﴾ (الواقعة ٤١ – ٥٢)

وفى السنة النبوية المطهرة مجموعة كبيرة من أوصاف المؤمنين ومجموعة أخرى من أوصاف الكفار والمنافقين.

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (متفق عليه)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ .«سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» (متفق عليه).

وعن أنس – رضى الله عنه– قال رسول الله ﷺ : «ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه » (رواه الترمذى) .

وعن أبى هريرة–رضى الله عنه– عن النبى– ﷺ – قال : «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله تعالى ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» (متفق عليه) .

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال : «أتدرون من المفلس»؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار» (رواه مسلم).

خامساً : البيان اللفظى

وهذا الأسلوب الإسلامى فى التعليم والإرشاد يشتمل على وصف لفظى يمكن للسامع معه أن يحوله إلى إجراء عملى سواء كان ذلك على مستوى الفرد أم على مستوى الأمة .

﴿ياأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾ (البقرة ٢٨٢)

وقد اشتملت هذه الآية على قواعد المداينة وكتابة الدين والإشهاد عليه وما يتصل بذلك من أحوال متنوعة .

﴿ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدًا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾ (المائدة ٦)

فهذه الآيه قد اشتملت على قواعد الوضوء وقواعد التيمم والأركان الأساسية فيهما .

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم﴾ (المائدة ٣٨)

وقد أوضحت هذه الآية حد السرقة. وهكذا اشتمل القرآن على كثير من البيانات التى تأتى فى صورة أوامر ونواهٍ وهى تتصل بالعقيدة والعبادات والمعاملات ومنها ما يتصل بالمحرمات فى الزواج وقواعد المواريث وحدود السرقة والزنا والقصاص فى القتلى وأركان الوضوء وتحديد القبلة وصلاة الخوف ومصارف الزكاة والصدقات، وغيرها كثير مما يضع أسس العقيدة والشريعة واضحة أمام المسلم. والقرآن فى هذا هو المصدر الأول فى التشريع حيث لا يكون هناك اجتهاد فيما ورد فيه نص قطعى . وقد جاءت السنة النبوية

المطهرة موضحة ومعلمة فى صورة بيان لفظى وعملى وصدق الرسول - ﷺ - حين يقول فى خطبة الوداع :

«تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى، كتاب الله وسنتى».

سادساً : البيان العملى

ويعتمد هذا الجانب على ما نقل إلينا فى السنة المطهرة مشتملاً على أفعال الرسول ﷺ فى شؤون الدين والدنيا ، وكذلك ما أقره ﷺ من أفعال وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم.

ويعلم الرسول -ﷺ - أمته أن تحذو حذوه وتحاكى أعماله، فقد صلى أمامهم وقال :

«صلوا كما رأيتمونى أصلى» (أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه).

كما أدى معهم مناسك الحج وكان يقول لهم:

«خذوا عنى مناسككم» (أخرجه أحمد ومسلم والنسائى)

وقد وعى الصحابة ما قام به الرسول- ﷺ - فى حياته ونقلوه إلى الأمة الإسلامية ونقله عنهم التابعون وحفظته كتب الصحاح والسنن.

ونأخذ من جانب البيان العملى ما يلى:

١ - العبادات وما يتصل بها : ومن ذلك الصلاة وما تحتاجه من طهور ووضوء، وكذلك الصيام وما يرتبط به من أركان ومبطلات وغيرها والزكاة ومصارفها والحج وأركانه والعمرة .

٢ - المعاملات : ويتصل بها المعاملات المالية والزواج والطلاق وسائر العلاقات التى تقوم بين الناس.

٣ - مكارم الأخلاق : التى تتمثل فى سائر جوانب الأخلاق من صدق وأمانة ورفق ومعاملة للجار ومعاملة الخدم ومعاملة الأسرى وغيرها كثير .

ولقد أمرنا القرآن الكريم بأن نتأسى بالرسول -ﷺ :

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ (الأحزاب ٢١)

كما امتدح القرآن الرسول-ﷺ - وأثنى على خلقه:

﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم ٤)

وبالإضافة الى البيان العملى فإن السنة النبوية تشتمل على جانب كبير من أقوال الرسول ﷺ والتى تعلم الأمة من خلال التوضيح اللفظى الذى يضع أسس التشريع مثل قوله- ﷺ - عن البحر إنه «الطهور ماؤه الحل ميتته» (رواه الترمذى). وقوله «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان منكم دون الثالث فإن ذلك يحزنه» (رواه الترمذى).

الخلاصة

لقد جاء الإسلام هداية للبشر جميعاً، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وليبين لهم أصول عقيدتهم ،وشريعة حياتهم، وقد تضمن المنهج الإسلامى العديد من الأساليب التى تساعد الناس على تعلم ما جاء به سواء فى جانب العقيدة أو شعائر التعبد أو أصول المعاملات أو غيرها من جوانب حياة الإنسان وعلاقاته، وكذلك على تغيير سلوكهم إلى السلوك القويم .

﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم* صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾ (الشورى ٥٢ – ٥٣)

وقد اهتم الإسلام فى منهجه العظيم فى الكتاب وفى السنة بتصوير نماذج من سلوك البشر، يصور تارة السلوك المستقيم الذى يود للمسلم أن يتبعه ويقتدى به ويتبع ذلك بالثناء عليه أو بذكر ما أعقبه من ثواب، ويصور تارة السلوك المعوج المخالف لأصول العقيدة والشريعة ويعقبه بالذم والتحذير منه أو بيان ما آل إليه صاحبه من عقاب ، وتارة يضرب الأمثال بما تؤديه فى العقول من قياس

لمعقول بمحسوس ويترك للعقل أن يقارن مع توضيح النتيجة ، وتارة يصور المواقف بما فيها من أشخاص وحوار وأحداث ، أو يصور المشاهد بما تشتمل عليه من حركة وإيقاع، وفى كل مرة تؤدى بالسامع إلى أن ينصب فى ذهنه صورة قائمة يستدل منها على ما تهدف إليه سواء الاستدلال على وحدانية الله ووجوب إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة ونفى الشرك عنه أو الاستدلال على قدرته فى الخلق والبعث والحساب- وهذه الصورة التى يعرض الإسلام بها لنماذج السلوك (العقدى والعقلى والعاطفى والحركى) قد سبق بها كل موضوع من العلوم ، وبها اهتدى المهتدون فدخلوا الإسلام، وبها اقتدى المسلمون فعمق إيمانهم وحسنت أعمالهم .

وقد عرضنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة لمجموعة من هذه الأساليب فى تصوير السلوك البشرى كما وردت فى الكتاب والسنة وصنفناها إلى قصص، وأمثال ، ومواقف وبيانات لفظية وبيانات عملية، وصفات شخصية ورأينا كيف نبه المنهج الإسلامى إلى الاعتبار بهذه النماذج.

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر ٢٨)

﴿إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ (النازعات ٢٦)

﴿إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار﴾ (النور ٤٤)

﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ (ق ٣٧)

وإذا كان علم النفس الحديث، ينظر إليه على أنه العلم الذى يهتم بسلوك البشر بأنواعه المختلفة من حيث دراسته وتوقعه والعمل على تعديله، فإنه قد اهتم فى جانب منه بتفسير عملية اكتساب السلوك وتغييره وهو ما اصطلح على تسميته بالتعلم، ووضعت لذلك نظريات كثيرة ، كان معظمها يعتمد على أن البيئة هى المؤثر الأكبر فى تعلم السلوك وأن الإنسان هو بمثابة الخاضع لها فى هذا التعلم (مثلاً نظرية بافلوف وواطسون وسكيتنر). غير أن مجموعة من النظريات

الحديثة بدأت فى خطوات صحيحة إلى حد ما فى تفسير عمليات التعلم بشكل يتفق مع ما كرم الله به الإنسان من نعم كثيرة ، فى مقدمتها نعمة العقل، وما يرتبط به من حواس كالسمع والبصر، وهى فى هذا التفسير تزيدنا اقتناعاً بأن بين أيدينا كنوز المعرفة عن النفس الإنسانية فى الكتاب والسنة. وسوف نتناول فى الجزء الثانى من هذه الدراسة بعض التفسيرات النفسية للتعلم عن طريق تصوير نماذج السلوك.

٤ - التفسير الذى يقدمه علم النفس للتعلم من النماذج :

عرضنا فى الجزء السابق من هذه الدراسة كيف تنوعت أساليب تصوير النماذج السلوكية فى المنهج الإسلامى الذى يسعى أساساً إلى تغيير وتعديل سلوك البشر من الشر إلى الخير ومن الخطأ إلى الصواب فى كل زمان ومكان سواء كان هذا السلوك اعتقاديًا أو كان سلوكًا عقليًا أو عمليًا أو عاطفيًا. وفى هذا الجزء نتناول الجوانب النفسية المتصلة بالتعلم من النماذج السلوكية والتى تعتمد أساساً على نظريات التعلم الاجتماعى وخاصة تلك التى طورها فى الآونة الأخيرة ألبرت باندورا (١٩٧٧) Bandura [١٥] .

وقبل الدخول إلى نظرية التعلم الاجتماعى فإنى أود أن أوضح أن نظريات التعلم بصفة عامة لم تبتكر لنا أساليب التعلم وطرقه وإنما ساعدت هذه النظرية على تفسير عملية التعلم التى تحدث على أساس من طرق وأساليب متنوعة ، وبذلك يمكن الاستفادة من هذه الأساليب فى الواقع العملى. والمتأمل فى طريقة التعلم من النماذج السلوكية (التعلم بالملاحظة أو التعلم الاجتماعى) يجد أن أول إشارة لها كانت فى القرآن الكريم فى قصة ابنى آدم .

﴿واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين * لإن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى

---

(١٥) Bandura, A (1977) Social Leaning Theory, Englewood Cliffs. N. J. Prentice-hall

إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين * إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين * فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين* فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخي فأصبح من النادمين﴾ (المائدة ٢٧ – ٣١)

وسوف أعرض أولاً لنظرية التعلم الاجتماعى ثم أتبعها بتعقيب فى ضوء المنهج الإسلامى .

أولاً : نظرية التعلم الاجتماعى (التعلم بالملاحظة) :

Social (Observational) Learning

طور هذه النظرية العالم الأمريكى ألبرت باندورا Alert Bandura (١٩٧٧) لتفسير التعلم الذى يحدث عن طريق الملاحظة أو ما يطلق عليه أحياناً التعلم بالتقليد أو التعلم بالمحاكاة، أو التعلم بالقدوة، أو التعلم من نموذج، والتى تعتمد على تغيير أداء الفرد نتيجة ملاحظته أو علمه بسلوك شخص آخر يراه أو لا يراه. ويدخل فيه التعلم بالعبرة Vicarious Lerrning الذى يحدث نتيجة لما يراه المتعلم من نتائج تترتب على السلوك الذى يشاهده سواء كانت إثابة أم عقابا .

يقول باندورا فى بداية كتابه نظرية التعلم الاجتماعى (١٦) :

«إنه فيما عدا الاستجابات المنعكسة الأولية فإن الإنسان ليس مزوداً بمخزون من السلوكيات عند مولده ، وعلى الناس أن يتعلموا هذه الاستجابات . ويمكن تعلم أنماط الاستجابات الجديدة بواسطة الخبرة المباشرة أو عن طريق الملاحظة، وبالطبع فإن العمليات الحيوية تلعب دوراً فى هذه العملية. كذلك فإن الوراثة والهرمونات تؤثر على النمو البدني الذى يمكن أن يؤثر بدوره على الإمكانيات السلوكية» .

---

(١٦) Bandura مرجع سابق ص ١٦.

ويضيف باندورا (١٧) .

«إن التعلم كان من الممكن أن يكون شاقاً لو اعتمد الناس على ما يلاحظونه من آثار لتصرفاتهم فقط فى معرفة ماذا يفعلون. ولحسن الحظ فإن معظم السلوك البشرى يكتسب (يتعلم) بالملاحظة من خلال النماذج السلوكية . فعن طريق ملاحظة الآخرين يقوم الشخص بتكوين فكرة عن كيف تؤدى السلوكيات الجديدة وفى فرص لاحقة فإن هذه المعلومات المرمزة تعمل كدليل للتصرف».

وبالطبع فإن التعلم بالملاحظة يعتبر أمراً حيوياً فى التدريب على بعض السلوكيات فليس من المعقول أن يسمح لطبيب تحت التمرين أن يتعلم الجراحة من خلال الخبرة الشخصية أو المحاولة والخطأ ، وكذلك لا يمكن أن نعلم طفلاً السباحة بأن نتركه يحاول العوم فى البحر بمفرده .. لابد إذن أن يسبق الممارسة نوع من التعلم المبنى على المشاهدة.

العمليات التى تدخل فى التعلم بالملاحظة :

تبعاً لنظريةالتعلم الاجتماعى، فإن النماذج السلوكية تنتج التعلم بشكل أساسى عن طريق ما تزودنا به من معلومات. فخلال عملية التعرض لنموذج سلوكى فإن المشاهدين للسلوك يكتسبون أساساً صوراً رمزية للأنشطة المعروضة التى تعمل كدلائل للأداء المناسب، وفى هذا التصور فإن التعلم بالملاحظة تحكمه أربع عمليات أساسية هى :

عمليات الانتباه	Attentional Processes
عمليات الحفظ	Retention Processes
عمليات إعادة توليد السلوك (التوليد الحركى للسلوك) -	Motor Reproduction Processes
عمليات الدافعية	Motivational Processes

(١٧) Bandura - مرجع سابق ص ٢٢

(أ) عمليات الانتباه :

لا يمكن للإنسان أن يتعلم بالملاحظة إلا إذا كان منتبهاً ومدركاً بشكل دقيق للخصائص الهامة فى السلوك المنمذج. وتحدد عمليات الانتباه ما ينتقى للملاحظة من النموذج الذى يعرض للشخص وماذا يستبعد. وتتوقف عمليات الانتباه على الجوانب الخاصة بموقف النمذجة مثل التنافر فى الإضاءة وفى الصوت وتكرار المقاطع الهامة وإعداد الملخصات التوضيحية، وكذلك على بعض الجوانب لدى المشاهد مثل سلامة الحواس لديه (السمع والبصر والشم والتذوق واللمس)، ومستوى الإثارة، وكذلك على الجوانب الإدراكية.

(ب) عمليات الحفظ :

إذا انتبه المشاهد للمعلومات المناسبة الخاصة بالسلوك المنمذج واستطاع أن يفهم جوانبها فإنه يحتاج أيضا أن يكون قادراً على تذكر المادة فى صورة مرمزة Coded سواء كان هذا الترميز سمعياً أو بصرياً أو كليهما. ويساعد اقتران الجوانب البصرية مع الجوانب السمعية وكذلك تكرار المعلومات على حفظ المادة المنمذجة وتذكرها.

(جـ) عمليات إعادة توليد السلوك (الاسترجاع) :

فى هذه العمليات يتم استرجاع السلوك المحفوظ فى الذاكرة. وينبغى أن نلاحظ هنا أن بعض السلوكيات المركبة، مثل ركوب الدراجات، لا يكفى لأدائها أن نقلد نماذج معروضة، وإنما ينبغى أن تتوافر لدى المتعلم المهارات الحركية والقدرة على حفظ التوازن المطلوبين لأداء مثل هذا السلوك. وبذلك فإن مشاهدة النموذج السلوكى والاحتفاظ به فى الذاكرة لا يكفيان للقيام بأداء هذا السلوك. ولكن متى توافرت المهارات الأساسية للقيام به، فإن هذه المشاهدة تساعد كثيراً على اكتسابه .

(د) عمليات دافعية :

قد تتوافر عمليات الانتباه من جانب المشاهد، وفهمه للمعلومات المنقولة من خلال عرض السلوك المنمذج، وحفظه لهذه المعلومات، وكذلك وجود المهارات الحركية لتنفيذ النشاط المنمذج، ومع ذلك قد لا يقوم هذا الشخص بأداء السلوك المنمذج لأنه قد يتوقع نتائج سيئة (عقاباً) بعد قيامه بهذا السلوك، وبالمثل إذا توقع الشخص نتائج إيجابية (إثابة أو تعزيز) من أدائه هذا السلوك فإن من المتوقع أنه سيؤديه.

إخفاق النمذجة :

إذا أخفق المشاهد فى القيام بالسلوك المعروض فإن ذلك مرده إلى نقص الانتباه، أو عدم دقة الترميز فى الذاكرة أو الإخفاق فى الحفظ أو عدم وجود المهارة اللازمة أو نقص الدافعية .

عوامل أخرى ذات أهمية فى استخدام النماذج فى التعلم (النمذجة) :

هناك عاملان آخران بالإضافة إلى العمليات التى تدخل فى النمذجة والتى تتصل بالمشاهد أو المتعلم، وهذان العاملان خاصان بالنموذج القائم بالسلوك والجوانب المتصلة بالإجراءات.

(أ) خصائص النموذج :

يميل الناس إلى تقليد الأشخاص الذين يكنون لهم تقديراً وميلاً، وبذلك فإن النموذج الذى يلقى ترحيباً أو الذى يحظى باهتمام اجتماعى يكون له نتائج أفضل فى التعلم بهذه الطريقة. كذلك من المهم أن يكون النموذج مناسباً فى السن والنوع وغيرهما من الجوانب الشخصية والاجتماعية حيث إن ذلك يزيد قابلية المتعلم المسترشد لتقليد السلوك المنمذج عما لو كان النموذج بعيد الشبه عنه فى هذه المغيرات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(ب) الجوانب المتعلقة بالإجراءات :

قد يشتمل موقف النمذجة والأسلوب الذى يتم به على بعض الجوانب التى تؤثر على نتائجها. وعلى سبيل المثال فقد لوحظ أن النتائج التى يحصل عليها النموذج (القائم بالعرض) تؤثر على نتائج النمذجة، فالنموذج الذى يتلقى المكافأة (ثواباً أو تعزيزاً) يكون أكثر مرغوبية للتقليد من جانب المشاهدين عن النموذج الذى يتلقى عقاباً. كذلك فإن أداء النماذج للسلوكيات المنمذجة فى مواقف متنوعة يزيد من آثار النمذجة. ومن ناحية أخرى فقد لوحظ أنه عند وجود نماذج متعددة فإن النتائج تكون أفضل عما لو اقتصرنا على نموذج واحد. وإذا كان المحتوى المقصود نمذجته أسهل فى اكتشافه بواسطة المتعلم فإن آثار النمذجة تزداد إلى حد كبير.

أنواع النمذجة : (أساليب عرض النماذج السلوكية) :

يمكن أن تتم النمذجة بعدة صور. فهناك النمذجة المباشرة أو الحية والنمذجة الضمنية أو التخيلية، والنمذجة بالمشاركة .

(أ) النمذجة المباشرة أو الحية : Overt (in vivo) Modeling

فى هذه الطريقة يتم عرض نماذج حقيقية تقوم بالسلوك المطلوب تعلمه. حيث يتم ذلك عن طريق أشخاص واقعيين أو عن طريق أفلام تشتمل على أشخاص ومواقف. على سبيل المثال قد يرغب أحد المرشدين فى تعليم التلاميذ كيفية عبور الشوارع أو كيفية الجلوس للاستذكار جلسة صحيحة، فى هذه الحالة قد يقوم المرشد بتهيئة موقف حقيقى يعرض فيه نموذج حقيقى(أحد الطلاب أو المرشد نفسه أو كلاهما) السلوك المرغوب، أو قد يستعين فى ذلك بأحد الأفلام التعليمية المعدة لهذا الغرض .

(ب) النمذجة الضمنية (التخيلية) Covert Modeling :

فى كثير من الأحيان يصبح من الصعب إعداد نماذج حية أو محسوسة لعرضها على المسترشدين أو المرضى فى مكاتب الإرشاد أو العيادات النفسية، وهنا قد يستعاض عن ذلك بنماذج تخيلية. وقد اقترح كوتيلا (١٩٧١) Cautela هذا الأسلوب نتيجة دراساته. وتقوم النمذجة فى هذه الحالة على أساس أن يتخيل الفرد نماذج تقوم بالسلوكيات التى يود المرشد أن يتعلمها هذا الفرد أو هذه الجماعة. وقد أوضحنا من قبل أن هذه النمذجة تركز أساساً على معلومات نود أن نرسلها إلى المتعلم أو المسترشد. وبذلك فإن مساعدته على تخيل سلسلة من الأحداث يمكن أن يؤدى وظيفة النمذجة المباشرة. ويرى ويلسون وأوليرى (١٩٨٠) Wilson and Óleary أن استخدام النماذج الضمنية يعطى نتائج مساوية للنتائج التى يعطيها استخدام النماذج الحية. وقد استخدم كازدين (١٩٧٤) Kazdin أسلوب النمذجة الضمنية فى تقليل الخوف لدى مجموعة من طلاب الجامعة، واستخدم أيضاً نفس الباحث هذا الأسلوب فى إكساب الطلاب الأسلوب التوكيدى عن طريق تخيل نموذج يقوم بهذا السلوك. كما أوضحت أبحاث كوتيلا وفلانارى وهانلى (١٩٧٤) Cautela; Flannery & Hanley عدم وجود فروق بين نتائج استخدام أسلوب النمذجة المباشرة وأسلوب النمذجة الضمنية.

(جـ) النمذجة بالمشاركة : Participant Modeling

تشتمل عملية النمذجة بالمشاركة على عملية تشكيل نشطة مصحوبة بتوجيهات للمسترشد بجانب النمذجة المباشرة للسلوكيات موضع العلاج أو التعلم. ويرى باندورا (١٩٧٧) أن هذه الطريقة فى العلاج يكون لها فاعلية أكبر من مجرد الاعتماد على مشاهدة وملاحظة النموذج يؤدى السلوكيات المطلوبة. وتشتمل النمذجة بالمشاركة على عرض للسلوك من جانب النموذج Model وكذلك قيام المتعلم او المسترشد بأداء هذا السلوك مع مساعدته بتوجيهات

وإرشادات تقويمية من جانب المرشد. وبذلك يصبح هذا الأسلوب أكثر فاعلية من الاقتصار على استخدام نماذج تؤدى السلوك دون أداء المسترشد له. فمثلاً يمكن للمرشد أن يستخدم هذا الأسلوب لتعليم المسترشد كيف يتغلب على مخاوفه.

استخدامات النمذجة [١٨] :

تستخدم النمذجة فى الإرشاد والعلاج النفسى إما لزيادة سلوك مرغوب فيه وإما لإنقاص سلوك غير مرغوب فيه أو تغييره (إزالته).

(أ) زيادة سلوك مرغوب فيه :

ويشتمل على ثلاثة أنواع من النتائج .

١ – آثار الاكتساب Acquisition

٢ – آثار ناتجة عن إزالة الكف Dis-inhibitory

٣ – آثار خاصة بتسهيل حدوث السلوك Facilitation

(ب) إنقاص سلوك غير مرغوب فيه أو تغييره (إزالته) :

ويتم ذلك بإحدى طريقتين :

١ – ملاحظة نموذج يتلقى عقابا عن سلوك غير مناسب.

٢ – ملاحظة نموذج يقوم بسلوك مضاد للسلوك الذى نود أن يتخلص منه الفرد الذى نعمل معه (أى يقوم بالسلوك الصحيح)

ثانياً : تعقيب على نظرية التعلم الاجتماعى فى ضوء المنهج الإسلامى :

تقدم لنا نظرية التعلم الإجتماعى تفسيرًا لكيفية حدوث التعلم (اكتساب سلوك أو الإقلاع عن سلوك) من مشاهدة نماذج السلوك الحية أو عن طريق تكوين

---

(١٨) لمراجعة حول استخدام النمدحة يمكن الرجوع إلى المراجع المتخصصة فى تعديل السلوك، والعلاج السلوكى، وكذلك مراجع التعلم.
انظر أيضا : محمد محروس الشناوى ومحمد السيد عبد الرحمن، العلاج السلوكى الحديث : النظرية والتطبيق : القاهرة – دار قباء، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

صور ذهنية لها من خلال وصف يقدم عنها ، وهذا التعلم يتم بتقليد السلوك وكذلك التعلم بالعبرة.

والباحث المدقق يدرك أن المنهج الإسلامى الذى استخدم العديد من الأساليب لتصوير السلوك البشرى من قصة ومثل موقف وبيان لفظى وبيان عملى وسرد للصفات، هذا المنهج قد سبق ما ينادى به أصحاب النظريات التى تفسر التعلم والتى تقع نظرية التعلم الاجتماعية فيها، ولقد حدد لنا المنهج الإسلامى بوضوح معالم التعلم من النماذج السلوكية المرئية أو المسموعة، القائمة أمام المتعلم أو التى يبنى لها صوراً من وصفها. ويمكن إجمال هذه المعالم فيما يأتى :

١ - أن الإنسان يتعلم من مشاهدة نموذج يقع أمامه أو يسمع عنه، ومن أمثلة ذلك ما جاء فى قصة ابنى آدم، والذى تعلم منه قاتل أخيه- من سلوك قام به غراب كيف يوارى سوأة أخيه.

٢ - أن الإنسان يمكنه أن يتعلم بهذا الأسلوب الخير كما يمكن أن يتعلم الشر.

﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمَّـةٍ وإنا على آثارهم مقتدون﴾ (الزخرف ٢٢ - ٢٣)

﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرئ بما كسب رهين﴾ (الطور ٢١)

٣ - أن التعلم بالاقتداء أو بالعبرة يعتمد أساسًا على الانتباه الذى يتم باستخدام الحواس (مثل السمع والبصر) التى تستقبل صور السلوك، وكذلك على العمليات العقلية المرتبطة بإدراك السلوك على الوجه المطلوب وما يترتب عليه من نتائج: ومن هنا نجد القرآن الكريم ينبه الإنسان إلى ما لديه من حواس وعقل، ويطالبه باستخدامها فى استقبال ما حوله فى الكون من آيات

والحكم على هذه الآيات والاعتبار بما فيها :(قل انظروا) (أفلا ينظرون)، (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)، (إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار)، (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)، (أفلا يتدبرون القرآن)، (أفلا تعقلون) (أفلا تبصرون) ، (فأنى تصرفون) ، (فأنى يؤفكون).

٤ – لا يقف المنهج الإسلامى فى تحديده للتعلم على آلية التعلم على النحو الذى تصفه نظرية التعلم الاجتماعى، وإنما يصفها باعتبارها عملية تتطلب عمليات عقلية عليا مثل الاستدلال والقياس . ويتجلى ذلك فى الأمثال القرآنية والأمثال الواردة فى السنة النبوية، وكذلك على الاعتبار بها بمعرفة ما ترتب عليها من آثار. فالمنهج الإسلامى لا يعرض سلوكاً للبشر دون بيان عاقبة هذا السلوك وسبب وقوع هذه العاقبة.

٥ – ويرى المنهج الإسلامى أن السلامة العضوية للحواس وللعقل لا تكفى وحدها للتعلم الصحيح، وإنما هناك بعد أعلى فى القيمة يدخل فى هذه العملية وهو بعد إيمانى– تتطابق فيه الفطرة من بلاغ الدعوة (عقيدة وشريعة) مع حكم العقل، أى أن التعلم هنا لا يتم بشكل آلى كما يرى باندورا الذى نقل التعلم بين انتباه ثم حفظ ثم إخراج السلوك. أما المنهج الإسلامى فهو يراه فى صورة انتباه إيمانى، وحكم إيماني عقلى، وتخزين لما يوافق الشرع ، وطرد لما لا يوافق الشرع، فهو تعلم يحرسه الإيمان، ومن هنا فقد عاب القرآن على قوم لهم آذان ولهم أعين ولهم عقول، وهى وإن كانت تقوم بوظائفها لكنها تقوم بها على النحو الذى تقوم به لدى الأنعام.

﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ (الفرقان ٤٤)

﴿أفرءيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾ (الجاثية ٢٣)

﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ (النمل ٨٠ - ٨١)

٦ - وبالإضافة إلى هذه الجوانب فإن المنهج الإسلامى يحدد أن سبب عدم تعلم السلوك الصحيح إنما يأتى أساساً نتيجة التكبر الذى يقف حائلاً بين الفرد والحكم السليم، ومن ثم رفضه للسلوك الصحيح وقبوله للسلوك الفاسد .

﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحرٌ مبين* وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ (النمل ١٣ - ١٤)

٧ - ويوضح المنهج الإسلامى لمن يتصدى لهداية البشر إلى طريق الحق أن يتصف بالرحمة والرفق، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهذا الجانب قد أهمله أصحاب نظريات التعلم بصفة عامة.

ومن هذا العرض يمكن القول: إن نظرية باندورا للتعلم الاجتماعى مقيدة بنوع من التعلم الآلى الذى يكتسب فيه الفرد السلوك من مشاهدة أو تصور نموذج سلوكى، وإن الحكم الذى يقرر من خلاله قبول السلوك ومن ثم القيام به أو عدم قبوله وبالتالى عدم القيام به هو مدى تلقى القائم بالسلوك لإثابة (تعزيز) أو تلقيه لعقاب، أما الحكم العقلى المهتدى بمعيار الشرع، معيار الإيمان فلم يجد مكاناً من هذه النظرية. إذا كان للنظرية فائدة فهى فى أنها لفتت الانتباه إلى ضرورة مراعاة المرشدين والمعلمين للموقف الذى يحدث فيه عرض النموذج السلوكى لجذب انتباه المتعلم، وكذلك للتركيز على السلوك الذى نود إكسابه للفرد أو تخليصه منه، وكذلك ضرورة اختيار من يؤدى السلوك بحيث يكون مقبولا ممن نود أن نعلمهم السلوك. ولا يزال الباحثون المسلمون بحاجة إلى دراسة مستفيضة للتعرف على الجوانب التى اشتمل عليها المنهج الإسلامى فى عملية التعلم باستخدام الصور المختلفة للسلوك. ويكفى أن نذكر هنا أن الرسول ﷺ وهو الأسوة الحسنة الذى أمر الله المؤمنين بالاقتداء به - كان معروفاً قبل بعثته

بالأمانة والخلق الحسن، كما أن تعليم المؤمنين بالقرآن والسنة جاء مفرقاً بما يساعد على التعلم كما جاء بما يناسب المواقف والمراحل المختلفة للدعوة، كذلك جاء بالتدريج ، بالإضافة إلى أن السلوك الواحد قد عرض بصور مختلفة وبما يناسب الفروق الفردية وبما يزيد أيضاً من حفظ السلوك، وهذه الجوانب كلها تؤكد على أهميتها فى التعلم بحوث علم النفس. كما تؤكد على أن المنهج الإسلامى قد استخدم أساليب شتى لتصوير السلوك وهى فى كثير منها تعتمد على بناء صور ذهنية اعتماداً على ملكة التخيل التى وهبها الله للإنسان، وقد بدأت البحوث النفسية فى الآونة الأخيرة تؤكد على أن الإنسان يستطيع أن يعايش بالتخيل Imagery ما يعايشه فى الواقع من أفكار أو وجدانيات وهذا الجانب لم يهتم به علم النفس إلا حديثاً فى السنوات العشرين الأخيرة مع بدء الاهتمام بدراسة الجوانب المعرفية (العقلية)، مما جعل بعض أساليب العلاج النفسى تعتمد على تكوين صور لدى المريض من خلال تخيلها ومعايشتها، وهذا يؤكد مرة أخرى عظمة المنهج الإسلامى وينبهنا إلى ضرورة البحث فيه والاستفادة مما يحويه فى الدعوة والإرشاد والعلاج والتعليم .

الاستفادة من التصوير الإسلامى لنماذج السلوك فى الإرشاد :

من الأهداف الرئيسية التى يعمل لها الإرشاد الهدف الخاص بتغيير أو تعديل السلوك، وكذلك تعلم كيفية مواجهة المشكلات واتخاذ القرارات.

وتشتمل العلملية الإرشادية على موقف له أطراف وله موضوع، وله معطيات وله أيضاً نتائج. فأما الأطراف فهم المرشد والمسترشد (أو مجموعة من المسترشدين) وأما الموضوع فهو التغيير الإيجابى للفرد نحو الأفضل فى مساعدته على النحو الصحيح فى ظل المنهج الإسلامى ، وعلى تنمية قدراته على مواجهة المواقف الضاغطة وقدرته على اتخاذ القرارات المناسبة فى الأوقات المناسبة، وكذلك تعديل سلوكياته غير الملائمة سواء ما يدركه منها على أنه غير

ملائم أو ما يدركه الآخرون من ذوى الفطرة السليمة والمعرفة الشرعية على أنه كذلك. وأما نتائجه فهى سلوكيات إيجابية وسلسلة من التوافقات الشخصية والاجتماعية، والتعليمية والمهنية والأسرية .

لقد تناولت هذه الدراسة فى الجزء الأول منها التصوير الإسلامى (فى الكتاب والسنة) لنماذج السلوك البشرى وما يراه الإسلام بشأنها قبولاً أو رفضاً إثابة أو عقاباً ثم تناولت فى الجزء الثاني التفسير النفسى للتعلم من خلال النماذج وبصفة خاصة كما تتناوله نظرية «باندروا» للتعلم الاجتماعى .

ونؤكد من جديد أن المسلمين قد أرسوا قواعد أسلوب النمذجة أو استخدام النماذج قبل أن يعرفه العلم الحديث بقرون طويلة. ومماورد فى الأثر أن الحسن والحسين سبطى الرسول ﷺ ورضى الله عنهما شاهدا يوما رجلاً لا يحسن الوضوء فقالا له : يا هذا إننا أخوان وقد اختلفنا فى أينا أحسن وضوءاً ثم توضأ الحسن رضى الله عنه وتوضأ بعده الحسين رضى الله عنه والرجل ينظر إلى وضوئهما فقال لهما : والله إنكما لأحسن وضوءًا منى. وهكذا علماه فى بيان عملى عظيم كيف يصحح وضوءه ، عندما استحوذا على انتباهه ليراقب وضوءهما الذى تبين له منه أن هذا هو الوضوء الصحيح.

ويزداد الاهتمام بين المختصين فى علم النفس يوما بعد يوم فى استخدام الأساليب التى كان للإسلام فيها السبق مثل القصص والأمثال وعرض المواقف والمشاهد وغيرها، وعلى سبيل المثال فإن الكثير من الباحثين النفسيين يؤكدون فى الوقت الحالى على أهمية القصة فى التعليم. وقد كتب فيتز Vitz (١٩٩٠) مقالة مستفيضة عن استخدام القصص فى التنمية الخلقية وكان عنوان مقالته : «استخدام القصص فى النمو الأخلاقى : أسباب نفسية جديدة لطريقة تعليمية قديمة» وقد ناقش فى هذه المقالة الأساس النفسى الذى بنى عليه مطالبته باستخدام الأسلوب القصصى فى تعليم الأخلاق. كما عرض لرأى «برونر»

Bruner (١٩٨٦) ، الذى يعتبر واحداً من الباحثين المتميزين فى مجال التعلم، حيث يرى أن الحياة العقلية للإنسان تتسم بمنوالين مختلفين من الناحية النوعية وهما :

١ – التفكير المنطقى Propsitional Thinking

٢ – التفكير القصصى (الحوارى) Narrative Thinking

وبالنسبة للتفكير القصصى فإنه فى رأى «برونر» يعرض مواقف بشرية صلبة تحتوى على العلاقات البشرية لكى تظهر مصداقيتها. إنها وصف للواقع وهى طريقة لرؤية الأهداف على أنها واقعية. وطريقة القصة أو منوال القصة فى حياة الإنسان العقلية يتطلب تخيلاً وفهماً للمقاصد البشرية كما يشتمل على تقدير لمكونات الزمان والمكان. ويضيف «برونر» أن القصص يركز على الناس وعلى أسباب تصرفاتهم ومقاصدهم وغاياتهم وخبراتهم الشخصية. كذلك فقد عرض «فيتز» فى مقالته هذه لآراء عالم النفس الاجتماعى «تيودور سابرين» Sabrin (١٩٨٦) عن أهمية القصة باعتبارها تصويرا عاما لفهم سلوك البشر ، ويرى «سابرين» أن القصة أو النموذج القصصى تسمح لعلم النفس أن يتصل بالإطار التاريخى للأفراد وبالاستبصارات فى سلوكيات البشر الاجتماعية الموجودة فى القصص والتاريخ ، كما ركز على القصص باعتباره قاعدة تنظيمية لتصرفات البشر. ومن التجارب التى استند عليها «سابرين» فى تشجيعه على استخدام القصص لفهم تصرفات البشر وتصحيحها تلك التجربة التى قام بها «هيدر» « وسيميل» Haider & Simmel (١٩٤٤) حيث عرضا فيلما يشتمل على مجموعة من الصور المتحركة تتألف من أشكال هندسية تتحرك فى اتجاهات وسرعات مختلفة وقد فسر الأفراد الذين شاهدوا الفيلم تحركات الأشكال الهندسية على أنها حركات لبشر، ومعنى ذلك أن هذه الأشكال الهندسية فى حركتها أصبحت أشكالاً قصصية ، كما أنه من الأمور الواضحة ميل البشر لتفسير كل جوانب حياتهم حتى الخبرة الإدراكية البسيطة فى شكل مجموعات

قصصية كما أنهم يصنعون حكايات عن حياتهم الخاصة، ومعنى ذلك أن الناس يفسرون حياتهم فى صورة قصة أو حكاية. ويرى «سابرين» أنه من المستحيل تماماً أن يستغنى الإنسان عن القصص فى تفكيره (١٩).

إن النماذج التى عرضها الإسلام فى مصدريه الأساسيين : القرآن والسنة سواء اشتملت على سير الأمم السابقة، أم على مواقف واقعية مرت بالمسلمين فى حياة الرسول ﷺ ، أو على سبيل التمثيل لسلوكيات أو اتجاهات معينة أو من خلال الأمثال، أو عرض لنماذج سلوكية بحتة، إنما تلتقى كلها فى جانب أساسى هو أنها تتحول فى ذهن القارئ والسامع إلى مشاهد حية فيها الإيقاع والحركة والتفاعل وفيها النتيجة التى نود أن نعرفها والتى يريد الإسلام أن يوصلنا لها، ماذا يصلح وما هو جزاؤه ، وماذا لا يصلح وما هو جزاؤه ؟ هذه النماذج على مختلف صورها التى أوردنا مقتطفات منها إنما هى نماذج راسخة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهى تدور أساساً حول تثبيت العقيدة وترسيخ الخلق الإسلامى الصحيح، وهذان الجانبان يمثلان عندى معيار الصحة النفسية للمسلم.

﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (الأحقاف ١٣)

وسوف أعرض فيما بقى من هذه الدراسة لكيفية استفادة المرشد المسلم من النماذج التى يعرضها القرآن الكريم والسنة المطهرة فى عمله الإرشادى، وهذه الاستفادة لا تقتصر على المرشد النفسى فقط وإنما تمتد إلى كل من يتعرض لعمل يأخذ فيه بيد المسلم لمساعدته على الرشاد سواء كان معلماً أو داعيًا إلى الإسلام أو مشرفًا اجتماعيًا أو طبيبًا أو قائمًا بأعمال الحسبة أو مديرًا فى عمل أو قائدًا فى موقع عسكرى أو واعظاً، أو والدًا، حيث يلتقى الجميع عند

---

(١٩) انظر فى ذلك مقال فيتز، كما يمكن الرجوع للمؤلف الذى وضعه سابرين حول علم النفس الحوارى.

Vitz, P. c (1990) The use of stories in moral Development· New Psychological reasons for an old education Method. American Psychologist, 45, 6, 709-720 Sabrin, T.R (1986) Narrative Psychology The Storied nature of human Conduct. New York: Prarger.

هدف تعليم الفرد المسلم أسس دينه ومنهج حياته ومساعدته على التوقى من الزلل وعلى معالجة أى قصور قبل أن يستفحل.

ويمكن أن ننظر إلى الاستفادة التى يحققها هؤلاء جميعاً على أنها تندرج تحت مجموعتين رئيسيتين :

أولاً : الاستفادة المباشرة.

ثانيًا : الاسنتفادة غير المباشرة .

أولاً : الاستفادة المباشرة :

ويقصد بالاستفادة المباشرة استخدام النماذج التى عرضها القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة بالنصوص التى وردت بها وللأغراض التى وردت بشأنها مباشرة مع المساعدة بالتفسير أو الشرح استناداً إلى المصادر الإسلامية الصحيحة .

ومن النماذج التى أوردها القرآن الكريم يمكن أن يختار المرشد أو المعلم أو الداعية ما يناسب الموقف الذى يتناوله ، وكذلك الأشخاص الذين يعمل معهم وما بينهم من فروق فردية .

ومن الجوانب التى يستفاد منها من النماذج القرآنية والنماذج المأخوذة من السنة النبوية ما يأتى :

١ - تحديد جوانب العقيدة :

إن عقيدة التوحيد هى الأساس الذى فطر الله الناس عليه وأخذ عليهم العهد بها. وإن الرسل والرسالات تلتقى جميعها عند هذا الهدف.

﴿ولقد بعثنا فى كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (النحل ٣٦)

وفى هذا الجانب فإن القصص القرآنى الذى تناول الرسل والأمم التى أرسلوا إليها هو ما يناسب هذا الجانب مع الاهتمام بتوضيح عاقبة المتقين وعاقبة المعاندين .

والعقيدة وسلامتها من الأمور الهامة فى حياة كل مسلم ، والعمل من أجل سلامتها يجب أن يبدأ مع الأفراد منذ نعومة أظفارهم ليربوا عليها التربية السليمة ، كذلك يهمنا هذا الجانب فى العمل مع المراهقين الذين قد يتعرضون لبعض الاضطرابات الفكرية سواء نتيجة لطبيعة المراهقة فى سرعة النمو أو نتيجة تعرضهم للتيارات المعادية المشككة .

إن قصص الأنبياء قد عرضه القرآن فى كثير من السور مختصراً أو مفصلاً ويجب أن يستفيد منه كل من يتصدى لمساعدة الناس على تنمية العقيدة السليمة، عقيدة التوحيد بدءًا من الآباء إلى المدرسين والوعاظ والمرشدين ورجال الإعلام.

٢ - تعليم الجوانب المتصلة بالعبادات :

وفى هذا الجانب فإن القرآن يشتمل على بيان مجمل دقيق لكثير من العبادات . وعلى سبيل المثال نجد تحديداً واضحاً لفرائض الوضوء والتطهر والتيمم وكذلك لصلاة الخوف وللصيام والزكاة ومصارفها والحج وأركانه . وتأتى السنة المطهرة بجوانبها الثلاثة: الأقوال والأعمال والتقريرات التى وردت عن الرسول ﷺ لتكمل الشرح والتفصيل .

إن من يعمل مع النشء فى المؤسسات التعليمية ومع الكبار فى المؤسسات التأهيلية والإصلاحية وكذلك من يعملون فى أمور تتصل بالتوعية الدينية بحاجة إلى الاستفادة من النماذج القرآنية ونماذج السنة ليعلموا هؤلاء شؤون دينهم وليصححوا لهم ما يقعون فيه من أخطاء فى الأداء أو توضيح ما يستشكلونه.

ولا شك أن إضفاء صفة الحاضر على النموذج الموصوف يزيد سرعة التعلم. فإذا كنا نعلم أركان الوضوء للأطفال أو غيرهم فإن قيام المعلم أو المرشد أو

الوالد أو غيرهم بأداء ذلك أمام من نريد تعليمهم ونقول هكذا ورد عن النبى ﷺ أو هذا هو المقصود فى الآيات الكريمة، فإن النتيجة ستكون أكثر فعالية. ولنا فى رسول الله الأسوة الحسنة حين يقول «صلوا كما رأيتمونى أصلى» ويقول فى حجة الوداع «خذوا عنى مناسككم».

٣ - التربية الخلقية :

إن خلق الإسلام هو حياة المسلم وفيه الجانب الأساسى من صحته النفسية. وفى النماذج القرآنية وفى النماذج المأخوذة من السنة النبوية عشرات من الجوانب الخلقية التى يربى الإسلام أتباعه عليها ليحققوا جانب الاستقامة بعد أن يفوا بمبدأ العقيدة. من هذه الجوانب الصدق، وقول الحق وشهادة الحق، والوفاء بالعهد، ومخاطبة الناس بالحسنى، والإحسان إلى المحتاجين، وإكرام اليتيم وصيانة حقوقه وماله، والعدل والتسوية بين الأبناء، والشجاعة والتعفف، والصبر، والإيثار والمروءة، والتعاون على البر والتقوى، وعدم إيذاء الآخرين أو العدوان عليهم، وعدم ارتكاب الكبائر(كالقتل والزنا ...)، وطاعة الوالدين والإحسان لهما، والإحسان إلى ذوى القربى، وصلة الرحم، والإحسان إلى الجار، وتوقير الكبار، والعطف على الصغير، واستئذان الأطفال والكبار عند الدخول على آبائهم، والاستئذان عند دخول البيوت، والبعد عن النميمة وعن الهمز واللمز والتجسس ، والتروى والحلم والأناة والرفق والبعد عن الغضب، والشجاعة والحياء، والاعتزاز بالإسلام، والبعد عن الخجل، والتفاؤل والاستبشار ، والبعد عن الخوف وعن التشاؤم، وتحمل المسئولية ، الفردية والجماعية، ووقاية الأهل من الوقوع فى المعاصى إلخ ...

وهذه الجوانب نجدها فى النماذج القرآنية ونجدها فى النماذج التى وردت فى السنة النبوية المطهرة.

بعضها ورد فى القصص، وبعضها فى الأمثال، وبعضها فى المشاهد،

وبعضها فى الصفات التى امتدحها الإسلام لنقتدى بها ، والتى شجبها لنبتعد عنها، كما أن بعضها قد وصف لفظيًا والبعض الآخر قد تم عمليًا ..

ها هو القرآن يصور نماذج لمن تكبروا ولمن غرتهم النعم ولمن منعوا زكاة زرعهم، كما أعطى نماذج للصبر (فى قصة أيوب عله السلام وقصة يعقوب عليه السلام) وللتعفف والحلم (فى قصة يوسف عليه السلام وفى مواقف تعرض لها نبينا عليه الصلاة والسلام)، كما ضرب الأمثال للصدقة وللمن والأذى والقول الطيب والقول الخبيث وغيرها كثير.

٤ - وضع أصول العلاقات الاجتماعية :

سواء كان ذلك فى اختيار الزوجة، والإحسان للوالدين والتعامل معهم، والإحسان إلى الجار حتى ولو كان غير مسلم، والتشاور والتناصح، والعقود والاستدانة، وأداء الأمانات، وتبادل التحية ...

لا شك أن كثيرًا من المشكلات التى تواجه الآباء والمربين والمرشدين تتصل بما يحدث من خلل فى العلاقات الاجتماعية .

والإسلام يحض على التعاون وعلى البر والتقوى، وعلى أن من كان عنده فضل مال فليجد به على من لا مال له، وأن المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وأن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه.

نتأمل فى نموذج واحد مما ورد فى السنة المطهرة.

فقد أخرج الإمام أحمد فى مسنده عن أبى أمامة رضى الله عنه: أن غلامًا شابًا أتى النبى ﷺ فقال له: يا نبى الله تأذن لى فى الزنا؟ فصاح الناس به، فقال عليه الصلاة والسلام،«أدن» فدنا حتى جلس بين يديه، فقال النبى ﷺ : «أتحبه لأمك»؟ فقال : لا، جعلنى الله فداك. قال عليه الصلاة والسلام: «كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لابنتك»؟ قال: لا ، جعلنى الله فداك. قال: «كذلك

الناس لا يحبونه لبناتهم. أتحبه لأختك»؟ قال : لا، جعلنى الله فداك. فوضع الرسول ﷺ يده على صدره وقال«اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه» . فلم يكن شيء أبغض إليه منه (يعنى الزنا) .

وهذا النموذج بالإضافة إلى ما حواه من موضوع خاص بالزنا وهو من الكبائر، فإنه يساعد المرشدين والمعلمين والآباء أيضاً على تفهم منهج وأسلوب العمل الإسلامى لتصحيح الأفكار والسلوك وهو كما يتضح من هذا الحديث :

١ – الرفق : فعلى حين صاح الناس بالشاب فإن الرسول –ﷺ – دعاه إلى الاقتراب منه .

٢ – القرب: فلم يخاطبه الرسول عليه الصلاة والسلام عن بعد وإنما دعاه فى رفق حتى يستشعر الأمن.

٣ – المخاطبة العقلية: وذلك بافتراض وقوع ذلك لمحارم هذا الشاب، أمه، ابنته، أخته، مما جعله يرفض– فهذه المخاطبة جعلته ولو للحظة قصيرة يتصور أن يحدث هذا لإحداهن وكيف تكون مشاعره .

٤ – التعميم إلى مشاعر الآخرين: ففى كل مرة يستنكر الشاب أن يرضاه لأمه أو لابنته أو لأخته يقول له – ﷺ – «وهكذا الناس لا يحبونه»، مما يساعد على التعرف على نتيجة العمل عند الآخرين والاستبصار.

٥ – وفى ختام هذا اللقاء الإرشادى بين المرشد الأعظم معلم البشرية كلها وهذا الشاب. يدعو له الرسول ﷺ بما أوتى من رحمة، «اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه».

لقد أوضح لنا الإسلام جوانب العلاقات الاجتماعية وخاصة تلك المعرضة لحدوث صراع مثل العلاقة بين الزوجين والعلاقة بين طوائف المسلمين، فحين يحدث الخلاف بين الزوجين تكون المحاولات مطلوبة من أهل الزوجين للمصالحة

عن طريق التحكيم [٢٠]، وإذا خاف الزوج نشوز زوجته فهناك أساليب وقائية حددها القرآن من موعظة وهجر وضرب، وإذا حدث الطلاق بينهما، وهو أيضاً سبيل لحل المشكلات الزوجية يقى من وقوع مشكلات أكثر عمقاً، فإن الإسلام يحدد حقوق كل من الزوجين فى وضوح. كذلك إذا وقع الاقتتال بين طائفتين من المؤمنين فهناك إجراء عملى مطلوب فى المصالحة فإذا استمر البغى فإن على المسلمين الوقوف ضد الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ، فإذا فاءت تكون المصالحة .. ويؤكد الإسلام على الجانب الوقائى فى حياة المسلمين فمثلاً فى أمره المؤمنين والمؤمنات بغض البصر وقاية من العدوان بعضهم على بعض ، وكذلك ما ورد بشأن الاستئذان خارج البيوت وداخلها .

٥ - شؤون الحياة :

تزود المصادر الإسلامية المرشدين والدعاة والوعاظ والمربين والآباء بمجموعة كبيرة من النماذج التى تساعدهم فى التعامل مع المشكلات التى يمر بها الأفراد الذين يتعاملون معهم وفى مقدمة ما يستفيدون به من نماذج حياة الرسول ﷺ من مولده إلى وفاته ومنهجه ﷺ فى الدعوة ونشر الدين وصبره وجهاده وحياته الأسرية ، وحياته مع أصحابه وقيادته للأمة الإسلامية.نأخذ من هذه السيرة الكثير والكثير وخاصة خلقه ﷺ وما يتصف به من رفق ولين وعطف وحلم كما نستفيد من هذه السيرة ما أرشد به أصحابه حين تلم بهم الملمات أو تعترضهم المشكلات. ولعل فى النموذج التالي ما يوضح لنا كيف كان الإرشاد النبوى الكريم:

---

(٢٠) مما هو جدير بالذكر أن بعض الباحثين فى مجال علم النفس بالولايات المتحدة الأمريكية بدأوا فى السنوات الأخيرة يطالبون باللجوء إلى أسلوب التحكيم والمصالحة بين الزوجين بعدما ارتفعت معدلات الطلاق إلى حوالى ٥٠٪ وما ترتب على ذلك من تصدع فى الأسرة. انظر على سبيل المثال .

Emer, R. E. & Wyer, M. M. (1987) Divoree Mediation. American Psycholgidt, 42, 3, 272-280

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلاً من الأنصار جاء إلى النبى ﷺ يسأله: فقال «ألك فى بيتك شىء» قال: بلى حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقدح نشرب فيه الماء. قال «ائتنى بهما»؟ قال: فأتاه بهما فأخذهما رسول الله ﷺ بيده ثم قال: «من يشترى هذين؟» فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال «من يزيد على درهم؟» مرتين أو ثلاثاً قال: رجل أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصارى وقال «اشتر بأحدهما طعاماً وبالآخر قدوماً فائتنى به» ففعل فأخذه رسول الله ﷺ فشد فيه عوداً وقال «اذهب واحتطب ولا أراك خمسة عشر يوماً» فجعل يحتطب ويبيع فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فقال «اشتر ببعضها طعاماً وببعضها ثوباً» ثم قال «هذا خير لك من أن تجىء والمسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لذى فقر مدقع، أو لذى غرم مفظع أو دم موجع (رواه ابن ماجة).

وفى هذا النموذج الإرشادى العظيم تتضح لنا أسس الإرشاد، فقد استمع الرسول ﷺ إلى شكوى السائل وبدأ يسأله للحصول على المعلومات التى يوجه بها صاحب الشكوى. وهكذا نطالع أول توجيه مهنى حفظه لنا التاريخ قبل أن يعرف العالم معنى التوجيه المهنى وفى نفس الوقت نرى كيف أن محور حل المشكلة كان فى جهد الرجل نفسه الذى لم يتبين ذلك إلا عندما استجاب لتوجيهه ﷺ وباع ما عنده وبدأ يعمل ما وجهه إليه ثم عاد وقد تغيرت حاله.

إن على من يتصدى لتربية السلوك وتعديل السلوك أن يكون على اطلاع مناسب بالفروق الفردية وبأساليب حل المشكلة وعلى خصائص النمو فى كل مرحلة من مراحل العمر ليستخدم ما يناسب كل فرد وكل مرحلة. وكما ذكرنا من قبل فإن استخدام القصص القرآنى مع الأطفال ومع الكبار أمر هام وفى نفس الوقت يجب أن يقدم فى إطار يتضمن- بالإضافة للنص- شرحاً توضيحياً وتركيزاً على الأهداف الأساسية التى يشتمل عليها وما تدعو إليه من أمور خاصة بالعقيدة أو بالأخلاق.

لقد نبهنا القرآن الكريم إلى مواقف تعليمية هامة من حياة المجتمع فدعا إلى حضور طائفة من المؤمنين ليشهدوها وهى مواقف إقامة الحدود.

﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ (النور ٢)

وهذا الحضور بجانب كونه موقفًا فيه إعلام للمجتمع وإشهاد على إقامة الحد، فإن فيه تعليمًا ، وهذا النوع من التعلم هو الذى يطلق عليه علماء النفس الآن التعلم البديلى أو التعلم بالعبرة Vicarious Learning فهم يشاهدون النتيجة التى انتهى إليها ذلك الآثم بارتكابه ما ارتكب، وبذلك ينتهى التعلم بكثير منهم من هذا الموقف إلى أن يتجنبوه بتجنب ما أدى إليه بداية.

وهناك مواقف كثيرة يدعو الإسلام الناس إلى حضورها وفى حضورها تعلم أيضاً لما تجرى عليه السنن فى المجتمع نقلاً عن سنة الرسول ﷺ ومنها : مناسبات الزواج والعيدان وغيرها ، بالإضافة إلى ما يشتمل عليه من تفاعل اجتماعى وتوثيق للأواصر وإشهاد جماعى على الحدث.

ثانيًا - الاستفادة غير المباشرة :

لا شك أن المرشدين والمربين والآباء بوسعهم أن يفيدوا بصور غير مباشرة مما يتعلمونه من المنهج الإسلامى فى إصلاح حياة البشر. وبوسع هؤلاء أن يستخدموا هذه الأساليب الإرشادية العظيمة التى تعرض فيها نماذج سلوكية متنوعة لكافة أمور الحياة..

فالقصص منبع عظيم لعرض نماذج واقعية من حياة الأمم والجماعات ، والأفراد، والواقع يزخر بكثير من النماذج وفى مقدمة هذه النماذج بعد سيرة الرسول ﷺ سير أصحابه وأولهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى مما تحفل به كتب السيرة ثم نماذج السلف الصالح .

كذلك استخدام الأمثال وهو مبدأ يقرره القرآن وتقرره السنة النبوية المطهرة .

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ (العنكبوت ٤٣)

إنها تقريب المعقول بالمحسوس، أو هي بلغة علم النفس نقل الأفكار المجردة إلى جوانب ملموسة (عيانية) فحين يقرب القرآن إلى المؤمنين الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ذات الأصل الثابت والفروع المتطاولة في السماء فإن السامع يستحضر إلى ذهنه صورة هذه الشجرة وحين يضرب المثل لمن ارتد بعد الإيمان إلى الكفر بالمرأة التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً فإنه أيضاً يقرب إلى أذهانهم فكرة الارتداد، بما يعرفونه من حياتهم من غزل الصوف ..

أقول : إن المرشدين والمعلمين والآباء بوسعهم أن يستعيروا من الحياة أمثالاً متنوعة لتقريب الأفكار والمفاهيم المجردة إلى أذهان من يساعدونهم .

وهكذا فإن المرشدين والمعلمين والآباء يمكنهم أن يستفيدوا بشكل غير مباشر باستخدام الأساليب نفسها التي استخدمها الإسلام وباستخدام الخصائص التي اتصف بها المعلم والمرشد الأول محمد ﷺ في إرشاد أصحابه مثل الرفق والحلم والصبر ومخاطبة الناس على قدر عقولهم. واستخدام الحكمة والموعظة الحسنة ، وهذه الاستفادة غير المباشرة لا تأتي إلا إضافة لما يستخدمه من نماذج وردت في الكتاب أو في السنة كما أنه لا يستخدمها إلا في المشكلات المتصلة بشؤون الحياة.

وعلى سبيل المثال فإن في حياة الناس كثيرًا من القصص الذي ربما تتداوله وسائل الإعلام حول مشكلات عديدة مثل الفشل في الدراسة، وإدمان المخدرات، والانحراف إلى السرقة، والقتل وغيرها كثير. والمرشد الجيد يمكنه أن يعرض مثل هذه النماذج ليعلم طلابه كيفية الوقاية وما هي النتيجة التي وصل إليها هؤلاء وذلك في إطار من التوضيح الإسلامي من أن هؤلاء قد ابتعدوا أساسًا عن أوامر الله سبحانه وتعالى وخالفوا منهجه. كذلك فإن المرشدين والمعلمين يمكنهم الاستفادة مما أضافته وسائل التقنية الحديثة في توصيل ما يودون

توصيله عن طريق عرض المشاهد والمواقف المشتملة على النماذج مع التعامل مع هذه المواقف إسلاميًا سواء عند عرض نماذج من الشجاعة أو الصبر أو البر أو التعاون أو غيرها وذلك في صورة تمثيليات أو مسرحيات .

الخلاصة

عرضت في هذه الأوراق للأساليب التي صور بها الإسلام، في مصدريه الأساسيين: القرآن والسنة، سلوكيات البشر بين قصة ومثل ومشهد وصفات وأوامر وبيانات عملية ومواقف ثم تناولت التفسير الذي قدمه علم النفس الحديث ممثلاً في نظرية باندورا للتعلم الاجتماعي (أو التعلم بالملاحظة) لكيفية التعلم ، من النماذج السلوكية أو ما يعرف بالنمذجة Modeling والذي أصبح محوراً لبرامج التعلم ، والإرشاد وتعديل السلوك بل والعلاج النفسي . وقدمت في الجزء الأخير عرضًا لكيفية الاستفادة من النماذج الإسلامية في الإرشاد والتعلم بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر.

ولعل هذه الدراسة تلقي الضوء على سبق الإسلام في إرساء قواعد التعلم والإرشاد وتغيير السلوك الظاهر والباطن قبل ظهور علم النفس الحديث وتفسيره لها بأربعة عشر قرناً، ولعلها أيضاً تسهم في توجيه المرشدين والمعلمين إلى ذلك النبع الغزير الذي يشتمل عليه دينهم والذي ينبغي أن يستخدموه مباشرة في كل ما ورد بشأنه وبشكل غير مباشر محاكاة له وفي إطار إسلامي رفيق.

والله أسأل أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم .

المراجع

أولاً : المراجع العربية :

ابن الشريف، محمود ، الأمثال فى القرآن
جدة : دار عكاظ للنشر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

– ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر .
الأمثال فى القرآن – بيروت دار المعرفة ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

– ابن قيم الجوزية – شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر .
مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين– القاهرة : دار الحديث (دون تاريخ)

– ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر
بدائع الفوائد– بيروت– دار الكتاب العربى (دون تاريخ).

– ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر
إعلام الموقعين عن رب العالمين – صيدا بيروت، المكتبة العصرية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م

– بليق عز الدين
منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين– بيروت دار الفتح ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

– الترمذى أبو عيسى محمد بن عيسى
الجامع الصحيح (سنن الترمذى) – القاهرة: دار الحديث ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

– الرامزى، القاضى بن حسن بن عبد الرحمن بن خلاد
كتاب أمثال الحديث المروية عن النبى ﷺ – بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

– سيد قطب – فى ظلال القرآن – ط ١٠ القاهرة وبيروت، دار الشروق ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

- سيد قطب – مشاهد القيامة فى القرآن – القاهرة وبيروت، دار الشروق ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- سيد قطب – التصوير الفنى فى القرآن (ط١١) – القاهرة بيروت : دار الشروق ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- محمد قطب – منهج الفن الإسلامى – القاهرة وبيروت : دار الشروق ١٤٠١هـ/ ٩٨١٨م.
- النووى ، محيى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف .
رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين– بيروت، دار القلم، والكويت : وكالة المطبوعات ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م

ثانيًا : المراجع الأجنبية :

Bandura, A.: (1977) Social learning theory. Englewood Cliffs. N.J.: Prentice - Hall

Bruner, J. (1986) Actual Minds, Possible Worlds. Cambridge, M.A: Harvard University Press.

Cautela, J. R; Flannery, R. Jr.&Hanley, S. (1974) Covert Modeling: An experimental test. Behaviour Therapy, 5, 494- 502.

Kazdin,A E. (1974) Covert Modeling , model smilarity and reduction of avoidance behavior. Behavior Therapy, 5, 325-340.

Kazdin, A.E. (1974) Effects of Covert modeling and model reinforement on assertive Behavior. Journal of Abnormal Psychology, 83, 24 0-252.

Rimm, D. C. & Masters, J. C. (1979) Behavior therapy: Thechniques and empirical findings (2nd ed) New York : Academic Press.

Sabrin, T.R. (1986) Narrative psychology: The storied nature of human conduct. New York: Praeger.

Vitz, fP. C. (1990) The use of stories in moral deveolpment: New psychological reasons for an old education method : American Psychologist 45,6,709-720.

Wilson, G.T. & O'Leary, K.D. (1981) Behavior Therpay. Englewood cliffs, N.J. : Prentice-Hall.



البحث السابع

أنموذج تهذيب الأخلاق عند الغزالي ومقارنته بأنموذج العلاج السلوكي الحديث

* نشر هذا البحث بمجلة رسالة الخليج العربي ع ٢٢ السنة السابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.



أنموذج تهذيب الأخلاق عند الغزالى ومقارنته بأنموذج العلاج السلوكى الحديث

مقدمة :

يرى المؤرخون فى علم النفس أن العلاج السلوكى Behavior Therepy أو تعديل السلوك Behavior Modification فكرة حديثة بدأت مع بدايات القرن العشرين للميلاد مع ظهور نظريات التعلم (ريم وماسترز ١٩٧٩ Rimm & Masters) وأن تجارب بافلوف على الإشراط الكلاسيكى وتطبيق واطسون وريز لنظريته على أحد الأطفال حيث أمكن إكسابه الخوف (١٩٢٠) Watson & Rayner تعد من أوائل ما عرف فى هذا الميدان، يضاف إلى ذلك تجارب مارى كوفر جونز فى إزالة الخوف عن طفل آخر (١٩٢٤) Jones . أما العلاج السلوكى فلم يبدأ فى واقع التطبيق على نطاق واسع إلا بعد أن نشر جوزيف ولبيه (١٩٥٨) Wolpe كتابه عن الكف بالنقيض Reciprocal Inhibition وأعقب ذلك جهود الباحثين من أمثال هانز أيزينك فى إنجلترا (١٩٥٩) Eysenck وجون كرمبولتز (١٩٦٥) Krumboltz وألبرت باندورا فى الولايات المتحدة الأمريكية.

غير أن الباحث المسلم – لن يندهش إذا علم أن علاج السلوك قد عرفه المسلمون قبل الأوروبيين وقبل الأمريكيين وقبل أن يعرفه علم النفس الحديث ووضعوا له نماذج ووصفوا تطبيقاته – فالإسلام قد اهتم بتصحيح العقائد وردها عن طريق الشرك إلى طريق التوحيد واهتم كذلك ببناء الأخلاق والمسالك على أسس قويمة وتصحيح المسالك الحمقاء.

والدراسة الحالية – تعرض لأنموذج وضعه أحد علماء المسلمين البارزين– وهو الإمام أبو حامد الغزالى المتوفى سنة٥٠٥ هـ – يعرض فيه

لتعديل السلوك ، وقد ضمن هذا الأنموذج واحدا من أشهر مؤلفاته هو مصنف «إحياء علوم الدين»–كتاب «رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب» .

وسوف نتناول فى هذه الدراسة :

١ – عرضا عاما للعلاج السلوكى .

٢ – عرضا مقارنا بين العناصر التى اشتمل عليها أنموذج الإمام الغزالى فى رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب وبين عناصر العلاج السلوكى الحديث.

* * *

أولا : العلاج السلوكى الحديث - تعريفه وخصائصه :

يقصد بالعلاج السلوكى Behavior Therapy– استخدام أساسيات التعلم فى تعديل السلوك. وفى الواقع الحالى، فإن العلاج السلوكى الحديث يشتمل أيضا على استخدام الجوانب العقلانية.

ويتميز العلاج السلوكى بمجموعة من الخصائص التى تميزه عن أساليب الطب النفسى وعن الطرائق التقليدية فى العلاج، وهذه الخصائص هى :

١ – الإرشاد عملية تعليمية :

حيث يكون الاهتمام فى العلاج منصبا على مساعدة المسترشد (العميل أو المريض) على تعلم (اكتساب) أنماط جديدة من الاستجابات لكى يحل مشكلاته، وبذلك فإن أسس وأساليب التعلم التى أثبتت البحوث فاعليتها تخدمنا كأساس عملى لتقديم العون للمسترشدين، وينظر المرشد لسلوك المسترشد على أنه شىء متعلم (من البيئة) وأن السلوك المفقود هو سلوك لم يتعلمه المسترشد أو لم يمارسه، ويكون دور المرشد هو مساعدة المسترشدين على تعلم أساليب جديدة

للسلوك ، وبذلك فإن الإرشاد أو العلاج السلوكى يعتبر بيئية ذات طابع تعليمى أساسا وأنه يمثل عملية تعليمية .

٢ - إعداد طريقة الإرشاد (العلاج) لكل فرد على حدة :

يهتم العلاج السلوكى بفردية العميل (المسترشد) وبذلك فهو يأخذ فى اعتباره المسائل والأمور التى تشغله ويعد الأساليب المناسبة للعمل معه-ولهذا فإن المرشد لا يستخدم أسلوبا علاجيا واحدا مع كل المسترشدين لحل ومواجهة مشكلاتهم المختلفة وإنما يقوم بإعداد أهداف وطرق الإرشاد وأساليب التقويم على أساس فردى لكل مسترشد على حدة.

٣ - المنهج التجريبى :

يعتمد الإرشاد أو العلاج السلوكى على المنهج التجريبى فى استنباط الأساليب المناسبة لمساعدة المسترشدين ؛ ولهذا تشهد هذه الأساليب تغييرا دائما نتيجة لما تسفر عنه التجارب فى هذا الميدان. ولأن العلاج السلوكى يهتم بتحديد خط البداية لسلوك المسترشد ثم يقيس نتائج العلاج عند خط النهاية فإن ذلك فى حد ذاته يمثل تجربة علمية.

٤ - الاهتمام بحاضر المسترشد :

يرى المعالجون السلوكيون أنه لا طائل من وراء البحث فى ماضى الفرد الذى يطلب العلاج، ويركز المعالج السلوكى جهده على السلوك الواقع فى حياة الفرد فى الوقت الراهن.

* * *

ثانيا : عرض مقارن بين العناصر التى اشتمل عليها أنموذج رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب للغزالى وبين عناصر العلاج السلوكى الحديث :

١- الأخلاق والسلوك :

الأخلاق جمع خلق : والخلق كما ورد فى القاموس المحيط للفيروز أبادى: هو السجية والطبع والمروءة والدين.

أما السلوك فهو الدخول فى الشيء.

والسلوك فى علم النفس هو التصرف الكلى للكائن إزاء منبه معين. أو الاستجابة الكلية للفرد فى موقف معين (كامبل ١٩٨١ Campbell) ومن علماء النفس من يقصرون السلوك Behavior على النشاط الحركى الظاهر الذى يمكن أن يلاحظه أشخاص آخرون كالمشى والكلام والأكل والجرى والهرب. ومنهم من يبسط مفهومه بحيث يشمل جميع ما يصدر عن الفرد من نشاط ظاهر كالكلام أو المشى، أو نشاط باطن كالتفكير والتذكر والانفعال، وهو يتفاعل مع بيئته ويحاول التكيف فيها، وبعبارة أخرى فالسلوك هو كل ما يصدر عن الفرد من استجابات مختلفة إزاء موقف يواجهه ، أو إزاء مشكلة يحلها أو خطر يتهدده أو قرار يتخذه. . (راجح ١٩٧٣).

وأنماط السلوك المتسقة التى يقوم بها الفرد فى المواقف المختلفة هى ما يمثل شخصيته فى رأى المدرسة السلوكية.

وقد استخدم الإمام الغزالى اصطلاح (الأخلاق) و(الخلق) للدلالة على هذه الأنماط المتسقة من سلوك الفرد ، أو بمعنى آخر شخصية الفرد.

يقول رحمه الله :

«فالخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال

الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئا ، وإنما قلنا هيئة راسخة لأن من يصدر عنه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت الرسوخ وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والحلم ... فهنا أربعة أمور أحدها : فعل الجميل والقبيح، والثانى : القدرة عليهما، والثالث : المعرفة بهما، والرابع : هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين إما الحسن وإما القبيح (ص ٥٣).

ومن الواضح أن الإمام الغزالى يتحدث عن الخلق باعتباره أنماط السلوك المتسقة والمتكررة–وهو مفهوم يستخدمه أصحاب المدرسة السلوكية فى علم النفس ليدلوا به على الشخصية – Character or Personality – وبذلك فإن ما يذكره الغزالى إنما يتعلق بمفهوم كلى للشخصية–وأما السلوك أو الاستجابات فهى ما عبر عنه بالأفعال.

ويرى الغزالى أن الخلق عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة، وأن هذا الباطن لا بد من حسن أركانه ليتم حسن الظاهر، وهذه الأركان هى قوة العلم، قوة الغضب، قوة الشهوة، وتقع بين هذه القوى الثلاث قوة العدل.

يقول رحمه الله :

(أما قوة العلم، فحسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال وبين الحق والباطل فى الاعتقادات وبين الجميل والقبيح فى الأفعال فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة وهى التى قال الله فيها ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا﴾ (البقرة آية ٢٦٩)

وأما قوة الغضب : فحسنها أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة، وكذلك الشهوة : حسنها وصلاحها فى أن تكون تحت إشارة الحكمة أعنى إشارة العقل والشرع، وأما قوة العدل : فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع) (ص٥٤).

ومن الواضح أن الإمام الغزالى قد أوضح العمليات النفسية الأساسية التى تحكم السواء والمرض وهى العمليات العقلية (قوة العلم) والدوافع (قوة الشهوة) والانفعالات (قوة الغضب).

ويصل الغزالى بعد ذلك إلى أن أمهات الأخلاق وأصولها : هى الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل.

ومن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها. . . فالحكمة: حالة للنفس يدرك بها الصواب من الخطأ فى جميع الأفعال الاختيارية.

والعدل : حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة.

والشجاعة : كون قوة الغضب منقادة للعقل فى إقدامها وإحجامها.

والعفة : تأديب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

(إذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبر وجودة الذهن وثقابة الرأى وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس، ومن إفراطها تصدر الجريرة والمكر والخداع والدهاء، ومن تفريطها يصدر البله والغمارة والحمق والجنون– وأعنى بالغمارة قلة التجربة فى الأمور مع سلامة التخيل. فقد يكون الإنسان غمرا فى شىء دون شىء، والفرق بين الحمق والجنون، أن الأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد فلا تكون له روية صحيحة فى سلوك الطريق الموصل إلى الغرض، وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغى أن يختار فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسدا ... وأما **خلق الشجاعة** فيصدر منه الكرم

والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والتودد والوقار وأمثالها ، وهى أخلاق محمودة وأما **إفراطها** وهو التهور فيصدر منه الصلف والبذخ والاستشاطة والتكبر والعجب وأما تفريطها فيصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وضعة النفس والانقباض عن تناول الحق والواجب. وأما **خلق العفة** فيصدر منه السخاء والحياء، والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع، وأما ميلها إلى **الإفراط أو التفريط** فيحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغير ذلك) (ص٥٤-٥٥).

وفى المقارنة بين ما أوضحه الغزالى فى الأخلاق وبين ما يتحدث عنه المعالجون السيكولوجيون فى السلوك يلاحظ الآتى :

١ - أن الغزالى قد وضع الأخلاق على متدرج-يحقق الاعتدال فيها الخلق المحمود وأما الطرفان- الإفراط والتفريط فهما يسببان فساد الخلق-وبذلك فإن الغزالى حدد الاستواء والانحراف-على حين أن معالجى السلوك لا يهتمون بتمييز السوى من الخبيث فى السلوك وإنما يتعاملون مع كليهما على أنه سلوك متعلم.

٢ - من الواضح أن الغزالى-قد اهتم بالعمليات العقلية ودورها بالنسبة للأفعال الاختيارية وأن اعتدال قوة العقل أمر هام-وهو بذلك قد سبق المعالجين السلوكيين الذين لم يدخلوا العمليات العقلية فى السلوك إلا فى العقد الأخير حين ظهرت المدرسة السلوكية المعرفية فى العلاج Cognitive-Behavior أما قبل ذلك فقد كان ينظر إلى الأفعال (الاستجابات) على أنها تخضع مباشرة للمثيرات (المنبهات) الموجودة فى البيئة سواء كانت هذه المنبهات تقع مباشرة قبل الاستجابات (نظرية الإشراط الكلاسيكى لبافلوف) أو كانت هذه

المنبهات تقع بعد الاستجابات مباشرة وهى التى تعرف بالمدعمات أو العقاب (نظرية الإشراط الإجرائى لسكينر). . . أو نتيجة ملاحظة لسلوك فى البيئة (التعلم الاجتماعى لباندورا).

٣ – نظر الغزالى نظرة كلية فى السلوك – فهو يأخذ الخلق فى جملته وليس مجرد استجابات مفردة كما يفعل المعالجون السلوكيون ، وهو يرى كما أوضحنا أن العمليات العقلية تتوسط بين المنبهات والاستجابات ، وأن اختلاف الجانب العقلى يؤثر على اختلال الخلق.

٢ – السلوك بين الفطرة والاكتساب :

الرأى الذى يسير عليه المعالجون السلوكيون أن السلوك جميعه مكتسب (متعلم) ويمكن تفسير كيفية اكتسابه أو تعلمه من خلال نظريات التعلم المختلفه وبصفة خاصة نظرية الإشراط الكلاسيكى ونظرية الإشراط الإجرائى ، وأخيرا نظرية التعلم الاجتماعى–وهم بذلك لا يعتبرون أن للجانب الوراثى (الفطرى) دخلا فى السلوك وإنما السلوك ينتج من التعلم فى البيئة – غير أن الأبحاث الحديثة فى مجال الدراسات النفسية توضح أن الوراثة لها أثر كبير فى السلوك بل فى بعض الأحيان فإن العوامل الوراثية تكون هى الجانب المتحكم فى السلوك مما دفع الباحثين فى علم النفس إلى إعادة الاهتمام بالجانب الوراثى بعد أن كان هذا الجانب قد أهمل من البحث بقيام المدرسة السلوكية، بل إن الاتجاه الجديد فى العلاج السلوكى يعطى للجوانب الوراثية والبيولوجية أهمية (ويلسون وأوليرى ١٩٨٠) والملاحظ فى الأنموذج الذى يعرضه الإمام الغزالى لرياضة الأخلاق أنه قد اهتم بالجانبين واعتبر أن الأخلاق تتأثر بالفطرة (الوراثة) وبالاكتساب (البيئة)– يقول رحمه الله :

«فإذا عرفت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة وتارة تكون باعتماد الأفعال الجميلة وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ومصاحبتهم

وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعا. فمن تظاهرت فى حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعا واعتيادا وتعلما فهو فى غاية الفضيلة، ومن كان رذلا بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها فهو فى غاية البعد من الله عز وجل» (ص٦٠).

وفى هذا الصدد أيضا يقول رحمه الله :

(فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها، ولا تصير تفاحا أصلا ولا بالتربية، فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليهما أصلا، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليهما .. نعم الجبلات مختلفة بعضها سريع القبول وبعضها بطىء القبول ولاختلافها سببان : أحدهما قوة الغريزة فى أصل الجبلة وامتداده مدة الوجود. . (قوة الشهوة).

السبب الثانى : أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاده كونه حسنا ومرضيا ... (ص٥٦).

هنا نجد الغزالى يتحدث عن الجانب الفطرى وما يتصل به من دوافع فطرية كدافع الجنس والجوع ، كما يتحدث عن الجوانب المكتسبة بالاعتياد والاعتقاد – ومرة أخرى نجده لا يخضع الأفعال لمجرد الاكتساب وإنما يدخل الجانب العقلى (باعتقاده كونه حسنا ومرضيا). كذلك نجده يتحدث عن التدرج فى تعديل السلوك بالرياضة والمجاهدة.

٣ – قابلية السلوك للتغيير :

إن قابلية السلوك للتغيير (التعديل) مبدأ أساسى من المبادئ التى يقوم عليها العلاج السلوكى الحديث– وهو أيضا من المبادئ التى تقوم عليها مجموعة

من التخصصات التى تقدم العون للناس فى مشكلاتهم Helping Professions (مثل الخدمة الاجتماعية والطب النفسى وغيرها)-ويرى معالجو السلوك أن السلوك ينتج عن التعلم وأنه بنفس المنظور يمكن محوه من التعلم أو تعلم غيره....

وهذا المبدأ يمثل فرضا أساسيا تقوم عليه كل طرق العلاج والإرشاد النفسى ، وقد أفرد الغزالى جانبا من حديثه عن رياضة الأخلاق للحديث عن قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة، وأقام الحجج على ذلك ورد على من قالوا بعدم قبول الأخلاق للتغيير فيقول :

(فنقول : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حسنوا أخلاقكم» وكيف ينكر هذا فى حق الآدمى وتغيير خلق البهيمى ممكن إذ ينقل البازى من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأديب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق) (ص ٥٥).

ويقسم الغزالى الناس إلى أربعة أصناف بالنسبة لاعتيادهم أنواعا من السلوك واعتقادهم فى سوائها.

* النوع الأول : الإنسان الغفل الذى لا يميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقى كما فطر عليه خاليا من جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات. . فهذا سريع القبول للعلاج جدا فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه فى أقرب زمان .
* النوع الثانى : أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادا لشهواته وإعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه، ولكن علم تقصيره فى عمله فأمره أصعب من الأول، إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه، إذ عليه قلع ما رسخ فى نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساد والآخر أن يغرس فى نفسه صفة الاعتياد للإصلاح ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم ...

* النوع الثالث : أن يعتقد فى الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور وذلك لتضاعف أسباب الضلال.

* النوع الرابع : أن يكون مع نشئه على الرأى الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة فى كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهى به ويظن أن ذلك يرفع قدره وهذا هو أصعب المراتب وفى مثله قيل : ومن العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب ...

والأول من هؤلاء جاهل فقط .

والثانى : جاهل وضال .

والثالث : جاهل وضال وفاسق .

والرابع : جاهل وضال وفاسق وشرير. (ص٥٦) .

وهنا نلاحظ أن الغزالى قد اهتم بوجود المعلم والمرشد فى تعديل سلوك الفرد (علاج أخلاقه وتحسينها)، وكذلك وجود باعث من جانب المسترشد يحمله على المجاهدة .

كذلك اهتم الغزالى بالجانب العقلى–وما يبنى منه على خطأ فيصبح اعتقادا خاطئا يزين له سوء عمله. والنوع الثالث الذى عرض له الغزالى نجده قد اختل تقويمه وحكمه على الأمور، أما النوع الرابع فهو شخص شديد الاضطراب وأشبه ما يكون بالحالات السيكوباثية.

٤ – تقدير السلوك (التشخيص) :

يهتم المعالجون السلوكيون بتقدير السلوك (Behavior Assessment) كأساس يحددون منه خط البداية لعملهم العلاجى–كما يهتم غيرهم من المعالجين بدارسة الأعراض أو علامات الأمراض.

وقد أفرد الغزالى فصلا لهذا الغرض تحت عنوان« بيان أمراض القلوب وعلامات عودتها إلى الصحة».

ويورد الغزالى الطرق التى يعرف بها الإنسان عيوب نفسه فيقول : فمن أراد معرفة عيوب نفسه فله أربعة طرق :

الأول : أن يجلس بين يدى شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه فى نفسه ويتبع إشارته فى مجاهدته، وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريقة علاجه- وهذا قد عز فى الزمان وجوده.

الثانى : أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيبا على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه فكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين : كان عمر رضى الله عنه يقول : رحم الله امرءًا أهدى إلى عيوبى.

الثالث : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدى المساويا.

الرابع : أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموما فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه فإن المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه.

ولعل هذه الأساليب الأربعة فى التعرف على عيوب النفس قد جمعت داخلها معايير الصحة النفسية سواء أكان المعيار اجتماعيا أو المعيار موضوعيا- وكذلك نجد فيها أسلوب ملاحظة الذات وهو من الأساليب الحديثة التى يلجأ إليها المعالجون السلوكيون بصفة خاصة بالإضافة إلى المقابلة مع الشخص المتخصص والتى تمثل البيئة الأساسية لتشخيص اضطرابات السلوك والشخصية ، وقد حدد الغزالى فى الأسلوب الأول أن من يقوم بعملية التشخيص هو شخص (بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ويحكمه فى نفسه

ويتبع إشارته فى مجاهدته) وهكذا نجد أن الغزالى قد حدد أن العلم والمهارة هامان فى التشخيص والعلاج .

٥ - الفروق الفردية : وإعداد الأهداف والعلاج على أساس فردى :

مبدأ الفروق الفردية Individual differences من المبادئ الأساسية التى يقوم عليها الإرشاد والعلاج النفسى الحديث حيث يختلف الناس فى استعداداتهم وقدراتهم وميولهم واتجاهاتهم، وهذا الاختلاف بين الأفراد هو الذى يدعو إلى إعداد الخدمات لتناسب حاجات الأفراد والجماعات. وفى العلاج السلوكى فإن المعالج لا يتقيد بخطة عامة أو بطريقة نمطية واحدة يتبعها فى علاج جميع الحالات كما يحدث فى بعض طرق العلاج التقليدية وإنما يعمل على وضع أهداف فردية تناسب كل فرد على حدة ومن ثم إعداد طريقة أو طرق العلاج بما يناسب حاجات هذا الفرد وأهدافه (بيركس ١٩٧٩ Burks، وستيورات وزملاؤه Stewart etal ١٩٧٨).

وقد أشار الغزالى فى كتابه رياضة الأخلاق إلى هذا المبدأ بوضوح، يقول رحمه الله :

(فكذلك النقائص التى تعالج بها الأخلاق لابد لها من معيار، وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة حتى أن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو رطوبة فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهى ضعيفة أم قوية؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الشيخ الذى يطبب نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين ينبغى ألا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص وفى طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم ، وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم . وأمات قلوبهم - بل ينبغى أن

ينظر فى مرض المريد وفى حالة سنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبنى على ذلك رياضته، فإن كان المريد مبتدئا جاهلا بحدود الشرع فيعلمه أولا الطهارة والصلاة وظاهرة العبادات ...) (٦١).

وهنا نجد الغزالى يهتم بجانب التشخيص ومعرفة العلة-ثم مراعاة الفروق الفردية ومعرفة ظروف الفرد الذى يعالجه ووصف الطريقة بحسب العلة وبحسب أحوال المسترشد.

٦ - استعداد المريض ودافعيته للعلاج :

من المبادئ الأساسية التى يقوم عليها الإرشاد والعلاج النفسى مبدأ حرية المسترشد فى الإرشاد-كذلك فإن من الشروط الأساسية للإرشاد والعلاج وجود الدافع لدى الفرد لمواصلة الإرشاد إذ بغير وجود الدافع لا يتحقق النجاح. ويؤكد الغزالى على مثل هذا المبدأ بقوله : (.. فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه فى أقرب زمان ...) (ص٥٦) .

وهو بذلك يعطى المسترشد دورًا أساسيًا ومسئولية هامة فى تحقيق الهدف العلاجى، كما أنه قد جمع أطراف العملية الإرشادية وهم : مرشد أو معلم متخصص بصير بأحوال النفس وآفاتها كما سبق بيان ذلك، ومسترشد لديه دافع لاتباع نصائح وعلاجات هذا المرشد.

٧ - تناول المشكلات واحدة بعد الأخرى :

يقرر المشتغلون بالعلاج السلوكى أنه ينبغى عند العمل مع أفراد لديهم مشكلات سلوكية أن نتعرف على هذه المشكلات ونبنى لها نموذجا أو إطارا ثم يبدأ المرشد مع المسترشد فى اختيار مشكلة (أو مشغولية) واحدة للعمل على علاجها-حتى إذا تحقق ذلك انتقل إلى مشكلة أخرى وهكذا – وهذه من الجوانب التى يحددها المرشد للمسترشد منذ الجلسة الأولى حيث يوضح له أنه فى الجلسة الواحدة سيكون التركيز على مشكلة واحدة للعمل فيها (ستيوارت وزملاؤه ١٩٧٨ Stewart at al) .

ويشير الغزالى إلى مثل هذه القاعدة حين يقول :

(فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه وليعددها وليشتغل بعلاج واحد واحد منها على الترتيب).

٨ – أساليب العلاج السلوكى وأساليب رياضة الأخلاق :

تتميز مدرسة العلاج السلوكى عن غيرها من مدارس العلاج النفسى بوفرة الطرق التى يستخدمها المعالجون وبساطتها وتفهمها من جانب المسترشدين، ومن بين الأساليب التى تستخدم :

١ – التدعيم (التعزيز).

٢ – العقاب والتنفير.

٣ – التشكيل والتسلسل.

٤ – استخدام النماذج السلوكية.

٥ – ضبط النفس.

٦ – حديث النفس.

٧ – العلاج بالغمر.

٨ – التطمين التدريجى.

وإذا نظرنا فى المنهج الذى وضعه الغزالى لمعالجة قبح الأخلاق وأمراض القلوب – نجده قد اهتم فى المقام الأول بالجانب العقلى وتقوية الإرادة ومجاهدة النفس – وهذه الجوانب لم يدخلها المعالجون النفسيون فى حسبانهم إلا فى السنوات القريبة كما قلنا من قبل– وذلك للخروج بالعلاج السلوكى من مأزق إهمال العقل والتعامل مع الإنسان على أساس من تجارب أجريت على الحيوان .

وقد أفرد الغزالى فصلا بعنوان «بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق» يضع فيه مجموعة من القواعد نلخصها فيما يلى :

١ – أن الاعتدال فى الأخلاق هو صحة النفس والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها.

٢ – أن علاج النفس يكون لمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها، وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها.

٣ – إن كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وإنما يكتسب الرذائل بالاعتياد والتعلم.

٤ – إن النفس فى بدايتها تكون ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم .

٥ – إن علاج العلل يكون باستخدام ما يضادها.

٦ – لابد للعلاج من الصبر والمجاهدة.

٧ – التدرج فى العلاج.

٨ – تنوع العلاج بتنوع العلل وإعداد العلاج لكل فرد على حدة.

ويختم هذا الباب بقوله :

فهذه الأمثلة تعرفك طريق معالجة القلوب، وليس غرضنا ذكر دواء لكل مرض فإن ذلك سيأتى فى بقية الكتب وإنما غرضنا الآن التنبيه على أن الطريق الكلى فيه سلوك مسلك المضاد لكل ما تهواه النفس وتميل وقد جمع الله ذلك كله فى كتابه العزيز فى كلمة واحدة ﴿**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى* فإن الجنة هى المأوى**﴾ والأصل المهم فى المجاهدة هو الوفاء بالعزم فإذا عزم على ترك الشهوة فقد تيسرت أسبابها ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختبارا، فينبغى أن يصبر ويستمر فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت، وإذا اتفق منه عزم فينبغى أن يلزم نفسه عقوبة عليه كما ذكرناه فى معاقبة النفس فى كتاب المحاسبة والمراقبة وإذا لم يخوف نفسه بعقوبة غلبته وحسنت عنده تناول الشهوة فتفسد بها الرياضة كلية) (ص٦٢) .

(أ) مجاهده النفس : (ضبط النفس)

ومجاهدة النفس-عملية مستمرة يحاول بها الفرد منع نفسه من الاستجابة للمنبهات الموجودة فى البيئة بأفعال أو أقوال لا يرضى عنها-وهى نهى النفس عن الهوى الذى تحدث عنه القرآن-وقد ظهر هذا الأسلوب فى العلاج السلوكى الحديث فى السنوات العشر الأخيرة تحت مسمى ضبط النفس Self Control حيث يعرفه المعالجون النفسيون على أنه المواظبة على وضع قيود على النفس (ويلسون وأوليرى ١٩٨٠ Wilson & Oleary) . ومما يذكر أن إدخال مثل هذا الأسلوب الذى يتضمن جانبا يتصل بالعقل والإرادة اللذين يتميز بهما الإنسان قد جاوز بالعلاج السلوكى جملة من الانتقادات التى كانت توجه إليه بإهمال ما يتميز به الإنسان من خصائص ترفعه عن مستوى الحيوان الذى اعتاد السلوكيون أن يجروا تجاربهم عليه لاستنباط قواعد لتعلم السلوك والذى أبعدهم لفترة طويلة عن إدخال جانب العقل فى علاجاتهم. وقد سبق الغزالى علماء النفس بإدخال جانبى العلم والإرادة كمحددات لسلوك الإنسان-فيقول فى هذا الصدد :

(ولو خلق الله العقل المُعَرِّفَ بقواعد الأمور ولم يخلق الباعث المحرك للأعضاء على مقتضى حكم العقل لكان حكم العقل ضائعا على التحقيق .. فإن قلب الإنسان اختص بعلم وإرادة ينفك عنها سائر الحيوانات بل ينفك عنها الصبى فى أول الفطرة . وإنما يحدث ذلك فيه بعد البلوغ، وأما الشهوة والغضب والحواس الظاهرة والباطنة فإنها موجودة فى حق الصبى) ص٨.

(ب) التدعيم : (التعزيز) Reinforcement :

والتدعيم معناه ازدياد احتمال حدوث استجابة ما نتيجة لما يعقبها من شيء مرغوب للفرد (مثل الامتداح أوالهديا)- وهو من الأساليب الهامة للعلاج السلوكى الحديث.

يقول الغزالى :

(ثم مهما ظهر من الصبى من خلق جميل وفعل محمود فينبغى أن يحكم عليه ويجازى عليه بما فرح به ويمدح بين أظهر الناس فإن خالف ذلك فى بعض الأحوال مرة واحدة فينبغى أن يتغافل عنه).

وواضح أن الغزالى قد اهتم بهذا الجانب فى حديثه عن تأديب الصبيان- على حين أنه ركز على استخدام العقل والمجاهدة فى الكبار وذلك أمر هام يلمسه المعالجون فى الوقت الحالى.

(جـ) التعلم بالتقليد واستخدام النماذج السلوكية :

وقد اهتم الباحثون فى مجال العلاج السلوكى بهذا الجانب فى السنوات الأخيرة وبصفة خاصة بعد أن بلور ألبرت أندروا نظريته فى التعلم الاجتماعى Bandura (١٩٧٧) غير أن الغزالى قد لفت النظر إلى الدور الذى تلعبه الملاحظة والتقليد فى اكتساب السلوك وقد سبق أن أوردنا قوله (إذ الطبع يسرق من الطبع).

ويقول فى استخدام النماذج السلوكية :

«وبأن يذم لديه الصبى الذى يكثر الأكل ويمدح الصبى المتأدب القليل الأكل».

هنا نجد أن الغزالى قد استخدم نوعا من النمذجه غير المباشرة (المغطاة) Covert Modeling (ويلسون وأولارى Wilson & Oleary ١٩٨٠).

«وأن يحبب إليه من الثياب البيض دون الملون والإبريسم ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين وأن الرجال يستنكرون منه ويكرر عليه ومهما رأى على صبى ثوبا من إبريسم أو ملون فينبغى أن يستنكره ويذمه» (ص٧٢).

ويشتمل هذا الأسلوب على عملية تعلم بالعبرة vicarioius Learning وهو أسلوب لم يستخدمه معالجو السلوك إلا فى الفترة الأخيرة.

(د) العلاج بالضد :

وفى هذا الأسلوب يستخدم سلوكا يضاد السلوك الذى يود تغييره تماما وقد أشار الغزالى إلى هذا الأسلوب حين حدد أن على الفرد لمعالجة عيوبه أن يتعاطى ما يضادها. كما يضرب لذلك مثلا محسوسا من سياسة الحيوان بالدابة التى يقيدها صاحبها (بما يضاد الحركة) فتتعود الوقوف فى مكانها بعد ذلك حتى بعد رفع القيد عنها، ومما يذكر أن العلاج بالضد أسلوب يعرفه العلاج السلوكى الحديث وخاصة فى علاج القلق (كازدين ١٩٨٠ Karzdin).

٩ - تقويم نتائج العلاج :

يهتم المعالجون السلوكيون دون غيرهم من المعالجين بقياس وتقويم نتائج العلاج وذلك بالمقارنة بخط البداية وبالأهداف الفردية التى وضعها المرشد أو المعالج للمسترشد. وقد أفرد الغزالى جانبا لهذا الغرض فى باب بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودتها إلى الصحة فيقول رحمه الله :

(وأما علامات عودتها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر فى العلة التى يعالجها فإن كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل وإنما علاجه ببذل المال وإنفاقه ولكنه قد يبذل المال إلى حد يصيره به مبذرا فيكون التبذير أيضا داء فكان كمن كان يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهذا أيضا داء بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون الوسط وفى غاية من البعد عن الطرفين فإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذى يوجبه الخلق المحذور...) (ص ٦٣).

الخلاصة

ناقش هذا البحث الأنموذج الذى عرضه واحد من علماء المسلمين لتهذيب الأخلاق وعلاج أمراض القلوب هو الإمام أبو حامد الغزالى. كما عقد مقارنة بين عناصر هذا النموذج وعناصر أنموذج العلاج السلوكى الحديث—وقد اتضح من

المناقشة متانة النموذج الذى عرضه الإمام الغزالى من حيث البناء وتفوقه فى بعض العناصر على مدرسة العلاج السلوكى الحديث بالإضافة إلى ما له من سبق تاريخى يجاوز التسعة قرون : لقد تحدث الغزالي عن الجوانب العقلية كخصائص مميزة للإنسان وتحدث عن جانبى الفطرة والاكتساب فى الأخلاق–ثم عن معرفة علامات أمراض القلوب– وناقش قبول الأخلاق للتغير ثم عرض لأساليب التغير وكيفية إعدادها بحسب المرض وحالة الفرد والتدرج فى استخدامها والعمل مع المشكلات واحدة واحدة . وأخيرا بيان معرفة علامات العودة إلى الصحة. ويتفوق الغزالى على المعالجين السلوكيين فى اهتمامه بجانب العقل كما قلنا وهو أمر لم يدخل إلى العلاج السلوكى إلا مؤخرا وكذلك فى تحديده لماهية السواء والانحراف على أساس من معايير شخصية وموضوعية واجتماعية فى الوقت الذى لم تهتم فيه مدرسة العلاج السلوكى بتسمية السلوك على أنه سوى أو منحرف وهذا فى رأيى من نقاط الضعف فى العلاج السلوكى الحديث. كذلك أكد الغزالى على ما ورد فى السنة المطهرة من أن كل مولود إنما يولد على الفطرة هى الخير وأنه يكتسب الانحرافات من البيئة فى حين أن المعالجين السلوكيين يرون أن الإنسان محايد لا خير فيه ولا شر.

وإذا كان هذا النموذج الذى عرضناه يمثل جهدا لواحد من علماء المسلمين فلا شك أن فى تراث المسلمين الوافر والغزير العديد من النماذج والأساليب مما يستحق البحث فيه بهدف الوصول إلى نموذج أو نماذج إسلامية تقوم على المنهج الإسلامى.

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

المراجع

أولا : العربية :

– أبو حامد محمد بن الغزالى. إحياء علوم الدين. دار المعرفة بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

–أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، ط٩ المكتب المصرى الحديث، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

– مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادى. القاموس المحيط. دار الفكر – بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

– محمد عثمان نجاتى، القرآن وعلم النفس، ط٢، دار الشروق ١٩٨٥م.

ثانيا : الأجنبية :

Bandura,A. (1977) Social learing theory. Englewood CLFFs, n. J. Prentice- Hall.

Burks, H. M. jr & Steffre, B. 1979 Theories of Counseling 3rd, New York : Mc Graw-Hill

Campbell,R.J. 1981 Psychiatric Dicrionary, New York : Oxford.

Eysenck, H. J.(1959) Learing theory and Behavior therapy. British Gournal of Men-tal Sience 105 : 61-75.

Jones, M. C. (1924) The elimination of children's Fears. Journal of Experimental psychology 1 : 383-390.

Kazdin, A. E. (1980) Behavior modification in applied settings Home wood, Illinois : The Porsey Press.

Krumbooltz, J. P. (1965) Behaxioral Counseling, Rationale and Research Personnel and Guidance Journal,44, 383-367.

Rimm, D. C. & Master, J. C. (1979) Behavior Therapy : Techniques and Empirical Findings. New York : Academic Press.

Stewart, N. R., Winborn, B. B. , Gohnson, R. G. Burks. H. M. Jr and Engelkes, J. R. (1978) Systematic Counseling. Englewood-CL. ffs : Premtice-Hall.

Waston, J. B., and Rayner, R. (1982). conditioned emotional reactions. Journal of Exprimental Psychology 3 : 1-14.

Wilson, G. T., and O'leary, K. D. (1980) PRinciples of Behavior therapy. Englewood Cliffs. N. J.

Wolpe,J. (1958). Psychotherapy by reciprocal Inhibition Stanford: Stanford Univer-sity Press.

البحث الثامن

نموذج إسلامى لتفسير الغضب وعلاجه



نموذج إسلامى لتفسير الغضب وعلاجه

زود الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بمجموعة من الانفعالات التى تساعده فى حياته وتؤدى له وظائف هامة فى مواقف مختلفة : ويميل كثير من علماء النفس إلى إطلاق اصطلاح الانفعال Emotion على الانفعالات القوية التى يصاحبها اضطراب فى السلوك كالخوف والغضب الشديد، أما الشعور بحالات خفيفة من المشاعر الوجدانية مثل السرور والضيق أو الانشراح والكدر فيطلق عليها اصطلاح الوجدان Feeling (المشاعر) فالوجدان شعور ذو صبغة انفعالية خفيفة أما الانفعال فيمكن أن يعرف بأنه «اضطراب حاد يشمل الفرد كله ويؤثر فى سلوكه وخبرته الشعورية ووظائفه الفيزلوجية الداخلية، وهو ينشأ فى الأصل عن مصدر نفسى. ونقول إن الانفعال اضطراب حاد لأنه يتميز بحالة شديدة من التوتر والتهيج، ولأنه أثناء الانفعال تتعطل جميع أنواع النشاط الأخرى التى يقوم بها الإنسان، ويصبح نشاطه كله مركزا حول موضوع الانفعال. ويشتمل الانفعال على مجموعة من المكونات هى :

١ - إدراك الموقف الحالى.

٢ - التغيرات الفيزيولوجية الداخلية.

٣ - التغيرات البدنية الخارجية .

٤ - الخبرة الشعورية .

٥ - التوافق للموقف الانفعالى [نجاتى، ١٩٨٤ص ١٠٠] .

والغضب انفعال كدر ويعتبر مثل الخوف من الانفعالات الرئيسية، ووظيفته الأساسية مساعدة الإنسان على المحافظة على كيانه النفسى. وقد اهتم

الإسلام بهذا الانفعال اهتماما خاصا لما يؤدى التطرف فيه إلى مشكلات بين الناس وبعضهم البعض إذ على حين قد يقتصر أثر الخوف على الشخص نفسه فإن أثر الغضب يمتد إلى الآخرين ؟ بل إن التاريخ حافل بتسجيل الحروب التى بدأت بغضب فردى وانتهت إلى مشكلات بعيدة المدى.

ومن بين علماء المسلمين الذين اهتموا بإفراد جانب من كتاباتهم للغضب أبو حامد الغزالى الذى اهتم بموضوع الغضب فى ربع المهلكات من مؤلفه الشهير إحياء علوم الدين، والذى نبنى عليه هذه المناقشة حول نموذج إسلامى لمعالجة الغضب .

يبدأ الغزالى كلامه حول الغضب بعنوان هو :

«كتاب ذم الغضب والحقد والحسد : وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين».

ثم تناول الجوانب الآتية :

١ – بيان ذم الغضب.

٢ – بيان حقيقة الغضب.

٣ – بيان الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة، أم لا؟

٤ – بيان الأسباب المهيجة للغضب.

٥ – بيان علاج الغضب بعد هيجانه.

١ – بيان ذم الغضب :

يبدأ الإمام الغزالى كلامه بالآية الكريمة.

قال تعالى : ﴿إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية ، حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ (الفتح ٢٦)

ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة من الغضب بالباطل، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة.

وروى أبو هريرة أن رجلا قال: يا رسول الله مرنى بعمل وأقلل ، قال : «لا تغضب» ثم أعاد عليه فقال : «لا تغضب» (رواه البخارى).

وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب» (متفق عليه).

٢- بيان حقيقة الغضب :

«اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضا للفساد والموتان، بأسباب فى داخل بدنه وأسباب خارجة عنه، أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سره فى كتابه» (ص١٦٦).

ويمضى الغزالى فى تحليله فيقول «إنه إذا لم يصل للإنسان مدد من الغذاء يجبر ما انحل وتبخر من أجزاء الرطوبة لفسد الحيوان من داخله».

«وأما الأسباب الخارجية التى يتعرض لها الإنسان كالسيف والسنان وسائر المهلكات التى يقصد بها، فافتقر إلى قوة وحمية تثور من باطنه وتدفع المهلكات عنه، فخلق الله طبيعة الغضب من النار وعززها فى الإنسان وعجنها بطينته، فمهما صد عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب وثارت ثورانا يغلى به دم القلب وينتشر فى العروق ويرتفع إلى أعالى البدن، وكما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذى يغلى فى القدر، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين، وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه، فإن صدر الغضب على من فوقه، وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حزنا ولذلك يصفر ويضطرب.

وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها وإلى التشفى والانتقام بعد وقوعها والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها

ولاتسكن إلا به ثم إن الناس فى هذه القوة على درجات ثلاث فى أول الفطرة من التفريط والإفراط والاعتدال.

أما التفريط فبفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم. . . فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلا فهو ناقص جداً وأما الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار بل يصير فى صورة المضطر، وسبب غلبته غريزية وأمور اعتيادية. . .

وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية وينطفئ حين يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التى كلف الله بها عباده، وهو الوسط الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال «خير الأمور أوسطها» (إحياء علوم الدين حـ٣، ص١٦٧، ١٦٩).

وهكذا نرى الغزالى قد حدد الغضب على أنه بعد يمتد بين طرفى التفريط (نقص الصفة) والإفراط (زيادة الصفة) وأن كلا الطرفين ضار، فالشخص الذى ينعدم عنده الغضب تتعطل لديه وظيفة هامة يحتاجها للدفاع عن الجوانب التى يعطيها قيمة فى حياته بدءا من دينه وعقيدته وامتدادا إلى كثير من الجوانب الهامة، والشخص الذى تزداد لديه هذه الصفة سوف يكون سريع الغضب يثير غضبه أتفه الأشياء، وقد يورده هذا الغضب موارد سيئة كثيرة. وهنا نجد الغزالى برغم حديثه عن الغضب كافة إلا أنه أوضح أهمية الغضب ونقيصة ضعفه الشديد وهو أمر لم ينتبه إليه الفلاسفة قديما وحديثا (من سقراط إلى ديكارت) (نوفاكو ١٩٧٩).

وأما من حيث طبيعة الغضب فقد أوضح الغزالى أن هناك جانبا فطريا فيه، أى ينشأ مع الطفل منذ مولده، ويتفق ذلك مع الاتجاه الحديث فى دراسة الطباع Temparaments وأهميتها فى السلوك، وأن الجانب الآخر جانب مكتسب.

أسباب الغضب :

ينشأ الغضب عندما يستشعر المرء أن هناك تهديداً لكيانه النفسى سواء اتصل ذلك بذاته أو معتقداته أو ممتلكاته أو بيئته أو غيرها.

وفى رأى الغزالى أن الغضب ينشأ عن أخذ شىء محبوب من الشخص أو قصده بمكروه :

«بل الحق ما نذكره وهو أنه ما بقى الإنسان يحب شيئا فلا يخلو من الغيظ والغضب، وما دام يوافقه شىء ويخالفه آخر فلابد أن يحب ما وافقه ويكره ما يخالفه، والغضب يتبع ذلك، فإنه مهما أخذ منه محبوبه غضب لا محالة وإذا قصد بمكروه غضب لا محالة. »

وبذلك فإن الغزالى يربط بين الغضب وبين حدوث الفقدان وكذلك حدوث التهديد أو بمعنى آخر أن الغضب ينشأ عن موقف فيه إحباط . ثم يعود الغزالى بعد ذلك فيقسم ما يحبه الإنسان إلى ثلاثة أقسام الأول يتعلق بالضرورات كالقوت والملبس والمسكن وصحة البدن فمن قصد بدنه بالضرر والجرح فلابد أن يغضب، وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذى يستر عورته، وكلك إذا أخرج من داره التى هى مسكنه أو أريق ماؤه الذى لعطشه، فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها ومن غيظ على من يتعرض لها» (ص١٨٩) .

القسم الثانى : يتعلق بممتلكات الفرد وما ينتمى إليه مما لا يعتبر ضروريا، ولكنه صار محبوبا بالعادات (عن طريق الاقتران بالضرورات).

يقول الغزالى فى هذا الصدد :

القسم الثانى : ما ليس ضروريا لأحد من الخلق كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب ، فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة والجهل بمقاصد الأمور ...

وهذه العادات الرديئة هى التى أكثرت محاب الإنسان ومكارهه فأكثرت غضبه، وكلما كانت الإرادات والشهوات أكثر كان صاحبها أحط رتبة وأنقص لأن

الحاجة صفة نقص فمهما كثر النقص. والجاهل أبدا جهده فى أن يزيد فى حاجاته وشهواته، وهو لايدرى أنه مستكثر من أسباب الغم والحزن، حتى ينتهى بعض الجهال بالعادات الرديئة ومخالطة قرناء السوء إلى أن يغضب لو قيل له : إنك لا تحسن اللعب بالطيور واللعب بالشطرنج .....

فالغضب على هذا الجنس ليس بضرورى لأن حبه ليس بضرورى» (ص١٦٩)

القسم الثالث : ما ترتبط ضرورته بشخص دون آخر.

يقول الغزالى :

«القسم الثالث : ما يكون ضروريا فى حق بعض الناس دون البعض، كالكتاب مثلا فى حق العالم لأنه مضطر إليه فيحبه فيغضب على من يحرقه ويغرقه ، وكذلك أدوات الصناعات فى حق المكتسب الذى لا يمكنه التوصل إلى القوت إلا بها فإنما هو وسيلة إلى الضرورى، والمحبوب يصير ضروريا ومحبوبا، وهذا يختلف ...

وإنما الحب الضرورى ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه وله قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها) (ص١٧٠)

آثار الغضب :

لا شك أن الغضب اضطراب شديد يشمل الفرد فى موقف من المواقف ويؤدى إلى مجموعة من المظاهر أو الأعراض منها آثار فيزيولوجية داخلية وآثار بدنية خارجية وآثار معرفية وآثار وجدانية.

وقد عدد الإمام الغزالى آثار الغضب فيذكر منها :

«ومن أهم آثار الغضب فى الظاهر : تغير اللون وشدة الرعد فى الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام، واضطراب الحركة والكلام، حتى يظهر

الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة، ولو رأى الغضبان فى حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره ، فإن الظاهر عنوان الباطن، وإنما قبحت صوة الباطن أولا ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيا فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمرة بالمثمرة فهذا أثره فى الجسد ، وأما أثره فى اللسان فانطلاق بالشتم والفحش من الكلام الذى يستحى منه ذو العقل ويستحى منه قائله عند فتور الغضب، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ، أما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة، فإن هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب وعجز عن التشفى رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوب نفسه ويلطم نفسه، وقد يضرب بيده على الأرض، ويعدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحير وربما يسقط صريعا لا يطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ويعتريه مثل الغشية، وربما يضرب الجمادات والحيوانات ... وأما أثره فى القلب فالحقد والحسد وإضمار السوء والشماتة...» (ص١٦٨)

آثار انعدام أو ضعف الغضب :

حين تعرض الغزالى للحديث عن مستويات الغضب ذكر منها التفريط أى نقص هذا الانفعال والإفراط أى زيادته والاعتدال الذى يمثل المستوى المطلوب المحمود . وقد سبق الغزالى علماء النفس فى التعرف على ما يطلقون عليه الآن نقص التأكيد (أو نقص السلوك التوكيدى Lack of Assertion) بل إنه قد أوضح خاصية هامة من خصائص الغضب وهو أهميته كاستجابة مضادة للقلق وكذلك باعتباره عنصرا هاما فى الحكم على الانحراف الشخصى وعلميات الضبط الذاتى فى العلاج :

يقول فى هذا الصدد :

«وأما ثمرة الحمية الضعيفة فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة واحتمال الذل من الأخساء وصغر النفس والقماءة وهو أيضا

مذموم إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم، وهو خنوثة، قال صلى الله عليه وسلم « إن سعدا لغيور وأنا أغير من سعد وإن الله أغير منى» وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب، ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب، ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها، ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات وقد قال صلى الله عليه وسلم (خير أمتى أحداؤها) يعنى فى الدين، وقال تعالى ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله﴾. بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه، إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة. ففقد الغضب مذموم، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحمية وينطفئ حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التى كلف الله بها عباده وهو الوسط الذى وصفه رسول الله ﷺ حيث قال « خير الأمور أوسطها» فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس فى احتمال الذل والضيم فى غير محله فينبغى أن يعالج نفسه حتى يثور غضبه، ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش فينبغى أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ويقف على الوسط الحق بين الطرفين، فهو الصراط المستقيم وهو أرق من الشعرة وأحد من السيف.» (ص ١٦٨-١٦٩) .

قابلية الغضب للعلاج :

هل يقبل الغضب العلاج؟ ومتى يجب على الفرد أن يسعى لعلاج الغضب؟

وبالنسبة للسؤال الأول، فإذا اعتبرنا أن الغضب سلوك موقفى يعتمد إلى حد ما على ما لدى الفرد من استعداد للغضب (سمة الغضب) وإلى حد ما أيضا على ما تعلمه الفرد من البيئة وما اعتاد عليه من أنماط استجابات فى المواقف المولدة للغضب وعلى الموقف الذى يحدث فيه الغضب (حالة الغضب). فإن الغضب باعتباره استجابة موقفية تفاعلية يكون قابلا للعلاج .

أما متى يسعى الفرد لمعالجة الغضب، فإن ذلك يحدده مقدار بعده عن الحد المطلوب من الغضب الذى يساعد فيه الفرد على الحياة الكريمة، وهو الحد الذى أشار إليه الإمام الغزالى بالإفراط : أى زيادة الغضب والتفريط : أى نقص الغضب.

وبالنسبة لزيادة الغضب فإن الغزالى يرى أن المعيار هو الموقف أو المثير الذى ينشأ عنه الغضب ، فهو يرى أن الغضب أمر ضرورى إذا تعلق بالاعتداء أو التهديد للضروريات التى تحفظ للإنسان حياته. وأما الغضب الذى يتصل بالمراتب العليا من الحاجات أو ما يعرف أحيانا بالحاجات الثانوية ، وهى حاجات تستمد قيمتها عادة من ارتباطها بالحاجات الأساسية فإن الغضب فيها غير محمود.

أما النوع الثانى الذى يرى الإمام الغزالى حاجة الفرد لعلاجه فهو التفريط فى الغضب سواء بنقصه نقصانا واضحا أو انعدامه كلية. بل إن الغزالى فى هذا الصدد يجعل انعدام الغضب كانعدام الإرادة.

وقد أفرد الغزالى فصلا للأسباب المهيجة للغضب (المثيرات) حيث جمعها فى العبارة التالية :

«والأسباب المهيجة للغضب هى : الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهى بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعا ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلابد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها» (ص١٧٢) .

وهذه الأسباب التى ذكرها الغزالى هى الأسباب الخارجية أو المثيرات البيئية، ولكن فى نفس الوقت تساعدها أسباب داخلية عقلية تتركز فى المفاهيم الخاطئة، ويحددها على النحو التالى :

«ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة، وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلا حتى تميل إليه وتستحسنه...»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا نظر الغزالى إلى الغضب نظرة معرفية بعد أن نظر إليه نظرة سلوكية، فهو يرى أن المفاهيم الخاطئة مثل تسمية الغضب شجاعة تمثل جانبا من أسباب اعتياد الغضب. وهذا الجانب المعرفى فى تفسير الغضب لم يعرفه علم النفس إلا حديثاوفى الربع قرن الأخير فقط.

كذلك فقد قدم الغزالى تفسيرًا لحدوث الغضب يرجع فيه الغضب إلى التشبه بالأكابر. «وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر فى معرض المدح بالشجاعة، والنفوس مائلة إلى التشبيه بالأكابرفيهجم الغضب إلى قلبه بسببه. وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل، بل هو مرض قلب ونقصان عقل وهو لضعف النفس ونقصانها، وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضبا من الصحيح، والمرأة أسرع غضبا من الرجل، والصبى أسرع غضبا من الرجل الكبير، والشيخ الضعيف أسرع غضبا من الكهل، وذو الخلق السيئ والرذائل القبيحة أسرع غضبا من صاحب الفضائل فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته لقمة،ولبخله إذا فاتته الحبة، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه. بل القوى من يملك نفسه عند الغضب كما قال صلى الله عليه وسلم «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب» بل ينبغى تنبيه هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء.» (ص ١٧٢-١٧٣).

هكذا أرجع الغزالى تعلم الغضب إلى التشبه بنماذج الغضب نتيجة لما يمتدحون به فى ذلك، وهذا النوع من التعلم هو ما يشار إليه فى علم النفس الحديث بالتعلم من النماذج السلوكية ، وهذه النماذج نماذج ضمنية Covert models حيث تشتمل عليها القصص المتداولة. كما يرى أن العلاج يمكن أن يكون بنفس الأسلوب بأن يتعلم من نماذج طيبة من خلال حكايات أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ، ولعل فى السيرة النبوية المطهرة، الكثير مما يدل على حلم الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى مبادرته إلى العفو وأمره

بالرفق وعدم الغضب، كما يؤكد على أن الغضب يمثل ضعفا فى السلوك وإنه يرتبط بجوانب ضعف متنوعة مثل الأنوثة والطفولة والشيخوخة ، ويستدل على أن ضبط النفس عند الغضب هو القوة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب».

إن المجلات النفسية الصادرة فى الغرب تطالعنا هذه الأيام بفيض من البحوث تحمل مصطلحا جديدا عن الشخصية أسموه The hardy persoality وهى بمعناها الحرفى الشخصية الشديدة، ويمعناها الإجرائى أولئك الأشخاص الذين يمكنهم آن يمروا من مواقف شديدة دون أن تحدث لديهم انفعالات أو آثار سلبية... وصدق الرسول الأعظم معلم البشرية «وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»

علاج الغضب :

فى السنة النبوية المطهرة كثير من الأحاديث التى تنفر من الغضب وتبغضه للمسلم. وفى أفعال النبى صلى الله عليه وسلم ما يعطينا القدوة والأسوة الحسنة فى الحلم والعفو، ويؤكد القرآن الكريم على قاعدة العفو عند الغضب :

﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ (آل عمران ١٣٤)

﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ (الأعراف ١٩٩)

﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ (الشورى ٣٧)

﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ (الشورى ٤٣)

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ (الفرقان ٦٣)

ويمكن أن نتتبع النموذج الإسلامى لعلاج الغضب ، والقائم على الكتاب والسنة من خلال تتبع ذلك النموذج الذى أورده الإمام الغزالى. . . .

يبدأ الغزالى حديثه فى هذا الجانب تحت عنوان : بيان علاج الغضب بعد

هيجانه ، حيث يذكر أن ما أورده فى مناقشته عن أسباب الغضب إنما يدخل كجانب وقائى «حسم لموادالغضب وقطع أسبابه حتى لا يهيج، فإذا ما جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم، وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل» (ص ١٧٣٩

هكذا يحدد الغزالى أن هناك علاجات للغضب باعتباره عادة وعلاجات للغضب باعتباره حالة أثناء حدوثها وأن هناك محورين أساسيين للعلاج هما : العلم والعمل.

(انظر شكل رقم ٣)

أولاً : العلم :

ومقصود الغزالى بهذا الجانب هو استخدام العمليات العقلية(المعرفية Cognitive) ويحدد تحته ستة أمور :

١ – أن يتفكر فى الأخبار التى تدل على فضل كظم الغيظ.

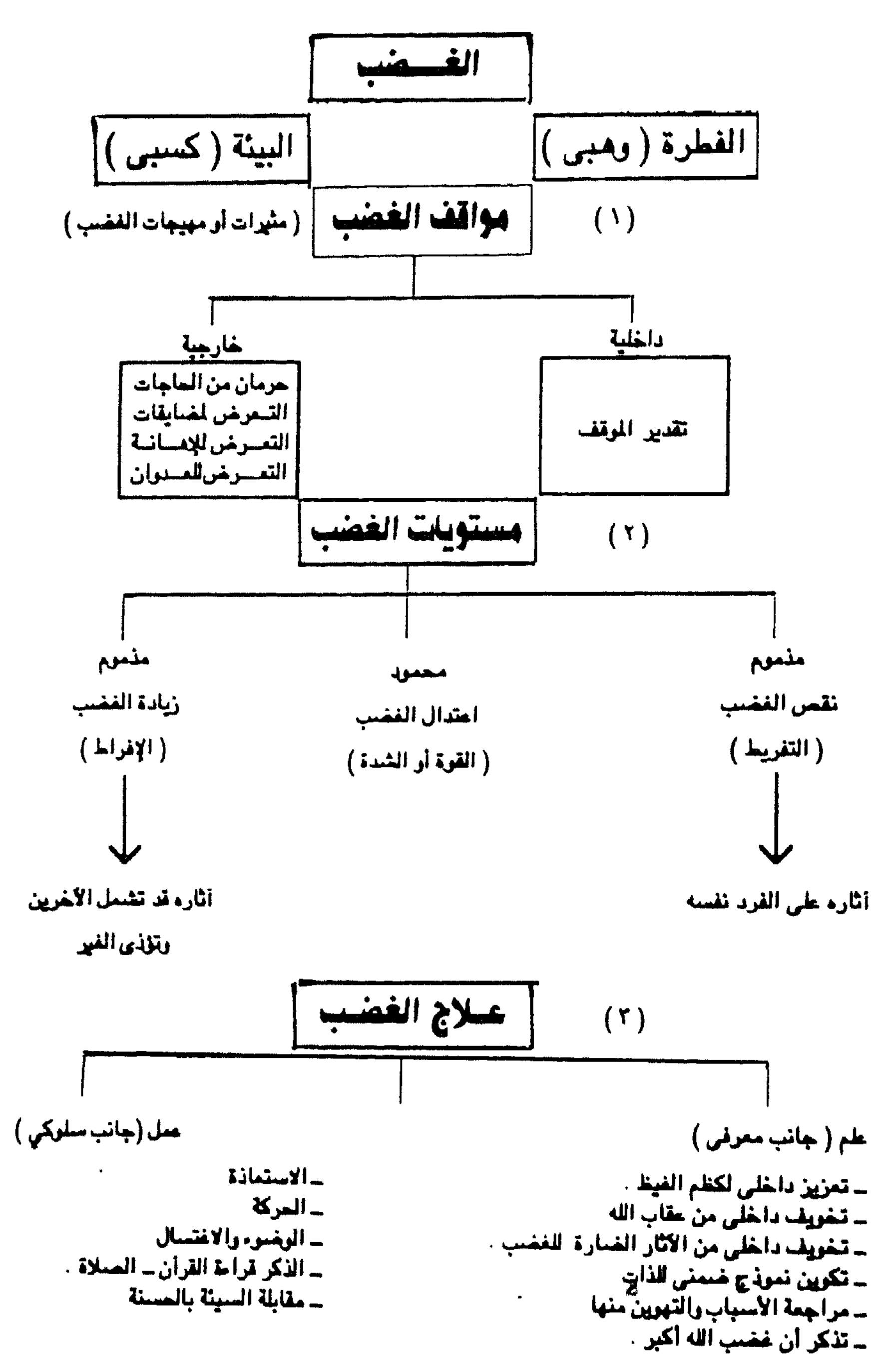
٢ – أن يخوف نفسه بعقاب الله وأن قدرة الله عليه أعظم من قدرته هو على غيره.

٣ – أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام ... أى أن يخوف نفسه بعواقب الغضب فى الدنيا (رد فعل الآخرين).

٤ – أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب (التنفير الذاتى والنمذجة الذاتية).

٥ – أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ، فيقول لنفسه « ما أعجبك، تأنفين من الأحمال الآن ولا تأنفين من خزى يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ بيدك وانتقم منك، وتحذرين من أن تصغرى فى أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبيين؟ » (ص١٧٣–١٧٤) .

وبمعنى آخر فإنه يعيد تصوير المشكلة Reframing أو يقوم بعملية مراجعة منطقية .



شكل رقم (٣) رسم توضيحى للنموذج الإسلامى للغضب

٦ - «أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لاعلى وفق مراده، فكيف يقول مرادى أولى من مراد الله ؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه» (ص١٧٤).

ثانياً : العمل :

«أى التصرفات والإجراءات الظاهرة» ويضع الإمام الغزالى تحتها مجموعة من الإجراءات على النحو التالى :-

١ - الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

«تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقال عند الغيظ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال « ياعويش قولى اللهم رب النبى محمد اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من مضلات الفتن» فيستحب أن تقول ذلك.

٢- الحركة البدنية : وفى هذا الإجراء فإن الغاضب يغير من هيئته ووضعه. ولعل فى هذا التغيير مساعدة على تغيير الجوانب البيولوجية وفى نفس الوقت فإن الفرد كلما ابتعد عن وضع الوقوف ابتعد عن الإحساس بالقوة التى يستثيرها الغضب (فيزويولوجيا).

«فاجلس إن كنت قائما واضطجع إن كنت جالسا واقرب من الأرض التى منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون فإن سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة (المقصود بالحرارة هنا : الطاقة)، فقد قال رسول الله ﷺ «إن الغضب جمرة توقد فى القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئا فإن كان قائما فليجلس وإن كان جالسا فلينم. . » (ص١٧٤) .

٣ - استخدام الماء :

والأسلوب الإسلامي فى هذا الصدد هو الوضوء أو الاغتسال. ولا شك أن استخدام الماء يغير من الموقف الذى يقف فيه بالإضافة إلى آثاره على الجسم مما يؤدى إلى تغيير الحالة الفيزيولوجية الناشئة عن الغضب .

«فإن لم يزل ذلك (أى نتيجة الحركة) فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار». وفى رواية «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ».

والمتأمل فى هذه الأساليب الثلاثة والتى استمدها الإمام الغزالى من السنة النبوية المطهرة يجد أنها تمثل كل ما انتهى إليه علم النفس المعاصر فى السنوات الأخيرة وتتميز عليه بجانبين أساسيين :

أولهما : الاستفادة من الجانب الدينى فى حياة الفرد والذى يمثل بعدًا فطريًا أهمله الباحثون فى مجال علم النفس.

وثانيهما: أنها أسبق على ظهور علم النفس بأربعة عشر قرنا من الزمان[١].

وإذا كان الغزالى قد أفرد للعلم جانبا أساسيا فإن هذا الجانب (الجانب المعرفى) لم يعرف إلا حديثا فى علم النفس العلاجى والإرشادى ، كذلك فإنه قد ركز على علاج الفرد لنفسه واعتمادا على هذه الاساليب الدينية المنشأ السهلة الاستخدام.

وإذا نظرنا إلى الإجراءات العملية قولية أو إجرائية نجد فى مقدمتها الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم- يكررها الفرد لنفسه وهى بلغة علم النفس تعمل كاستجابات مضادة أقوى من استجابة الغضب وتشتمل على جانب رفض

---

(١) توفى الغزالى عام ٥٠٥ هـ أى منذ تسعة قرون، وقد رجع الغزالى فى وضع تصوره عن الغضب إلى القرآن والسنة وقد بدأ الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان .

لهذا الدخيل على نفسه الغضب وما يترتب عليه من أضرار وهى كلها من فعل الشيطان ، واستعانة بالله سبحانه وتعالى القادر على إذهاب كيد الشيطان، وفى محاولات حديثه فى مجال العلاج النفسى نجد وولبيه يقترح أسلوبا أطلق عليه وقف التفكير Thought Stopping، يعتمد على أمر يصدره الشخص لنفسه بقوله «توقف Stop» بصوت عال، والمقارنة غير واردة بين أسلوبين، أحدهما يستند إلى أساس شرعى دينى ويستمد فيه الفرد العون من خالقه وبين أسلوب يستخدم فيه الفرد أمرا موجها إلى ذاته بالتوقف. وفى نفس الوقت فإن القوة التى يستمدها الفرد فى الاستعاذة بالله قوة تفوق كثيرا ما يستمده من قول ظاهر لا يستند إلا إلى قرار داخلى .

ولعلى أضيف إلى ما أورده الغزالى فى علاج الغضب مجموعة من الأساليب الإسلامية التى تؤدى الى استبعاد سلوك الغضب ومنها :

١ - ذكر الله سبحانه وتعالى :

وقد تحضرنى فى هذا الخصوص ما يحدث أثناء مجالس التنازع حين تحتدم المناقشات ويذكر واحد من الحضور المتخاصمين بذكر الله سبحانه وتعالى، ومع قول لا إله إلا الله فإن الأمور تهدأ إلى مرحلة أدنى من الغضب، مما يعطى فرصة إلى إعمال الفكر والعقل بدلا من توجه الدم إلى أعضاء الحركة.

٢ - قراءة القرآن :

ومما لا شك فيه أن قراءة القرآن تبعث الطمأنينة فى النفس وأنها تقرب الإنسان من حقيقته ومن واقع دنياه وأنها دار الفناء مما يصغر من شأن ما يغضبه ويقربه من العفو والحلم وكظم الغيظ.

٣ - الانصراف إلى العبادة :

فبعد أن يتوضأ الفرد يمكنه أن يقوم إلى أداء الصلاة (نافلة) وربما يكون ذلك بعد قراءة شىء من القرآن وبالتالى يمكن أن تتبع الترتيب التالى :

١ – الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

٢ – التحرك من وضع الوقوف إلى الجلوس أو من الجلوس إلى الاضطجاع.

٣ – الوضوء.

٤ – التوجه إلى المسجد.

٥ – تحية المسجد.

٦ – قراءة ما تيسر من القرآن.

٧ – أداء الصلاة مع الجماعة.

٨ – الذكر والتسبيح.

٩ – الدعاء.

٤ – إجراءات لتصحيح موقف الخطأ :

مثلا عن طريق التحكيم والمصالحة أو إزالة الضرر أو غير ذلك من إلزام النفس بفعل الخيرات والعفو وكظم الغيظ وما أمر الله به من الدفع بالحسنة بدل السيئة :

﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم﴾ (فصلت ٣٤)

وهذه القاعدة الإسلامية الهامة قاعدة مواجهة السلوك الأدنى بالسلوك الأفضل، تعتبر من القواعد الأساسية التى يبنى عليها المسلم عمله، وهى تدفع بالخصم إلى مراجعة نفسه وتصرفاته ، ومن ثم تغيير ما لديه من أفكار أو مفاهيم خاطئة ، ويؤدى به ذلك إلى تغيير السلوك .

الخلاصة

عرضنا فى هذه العجالة لنموذج إسلامى لمعالجة الغضب، وقد تم بناء هذا النموذج أساسا على النموذج الذى أوضحه الإمام أبو حامد الغزالى والذى استقاه

من المصادر الإسلامية كتاب الله وسنة نبيه وأعمال السلف الصالح، وهذا النموذج سواء كان فى تحديده لطبيعة الغضب وأسبابه ومستوياته، أو فى أساليب العلاج ، من النماذج الأساسية التى يمكن للمرشد والمعالج المسلم أن يستفيد منه. وقد حاولنا أثناء العرض بيان بعض الجوانب من وجهة نظر علم النفس الحديث. ويبقى أن هذا النموذج لا يجسد نظرية نفسية واحدة بل يمكن أن يتجاوز علم النفس إلى الآثار الفيزيولوجية والبيولوجية وهو قبل ذلك وبعد ذلك يتفوق على النماذج التى تستند إلى التصور الفلسفى أو إلى التجريب الإمبريقى والتى يعيبها دائما أن المنطلقات والفرضيات الأساسية لم تأخذ فى اعتبارها الجانب الدينى (الروحى) فى حياة الإنسان كما أنها أهملت حتى بعض الجوانب المعروفة، وذلك لعجز عن دراستها أو لعدم الاقتناع بأهميتها (مثلا الجوانب المعرفية التى لم تدخل إلا منذ وقت قريب سواء فى تفسير أو علاج الغضب). وقد اشتمل نموذج الغزالى على توضيح للدوافع من حيث إنها أساسية وثانوية ومن حيث إنها عامة وخاصة أيضا ، وكذلك تناوله لنقص الغضب وهو أمر بدأ الاهتمام به حديثا فى علم النفس تحت عنوان السلوك التوكيدى Assertion (أو تأكيد الذات). كما اشتمل النموذج على إشارة لأهمية الغضب فى تغيير السلوك من خلال عملية التقويم الذاتى وهو أمر لم يبدأ أيضا إلا منذ سنوات قليلة فى علم النفس. وكذلك فإن استخدامه لأسلوب الذات كنموذج Self as a model فى الجانب العلمى للعلاج واستخدام أسلوب النمذجة الضمنية وأسلوب مراجعة التفكير هذه كلها أساليب يحاول المعالجون النفسيون اللجوء إليها ولكن فى صور آلية منفصلة لا تجمع بينها وحدة المصدر ولا شمولية الإجراء. .

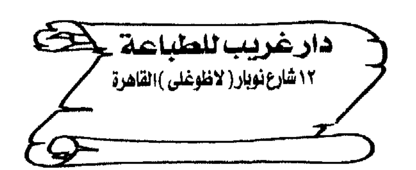
المراجع

أبو حامد محمد الغزالى، إحياء علوم الدين (حـ٣) بيروت : دار المعرفة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

محمد عثمان نجاتى علم النفس فى حياتنا اليومية (ط٥) الكويت : دار القلم ١٩٨٤م.

Novaco, R. W. (1979) The Cognitive Regulation of Anger and Stress. in P. C. Kendall, and and S. D. Hollon (Eds) Cognitive-Behavioral Interventions: Theory, Research and Procedures. New York : Academic Press.

تم بحمد الله


دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة



هذا الكتاب

وسط هذا الكم الهائل مما كتب عن الإرشاد والعلاج النفسى فى الغرب ، يتلفت المرشدون والمعالجون النفسيون المسلمون في حيرة وتردد مما بين أيديهم من توجيهات على أساس المنهج الإسلامى ، ومما تعلموه وقرأوه من أساليب غربية لا تناسب طبيعة المجتمعات الإسلامية .

والكتاب الذى بين أيدينا هو خطوة على طريق طويل بدأه كثير من الباحثين الجادين ليقدم التوجيه الإسلامى للعلوم الإنسانية ، وبصفة خاصة علم النفس ، حيث يعامل عقول ومشاعر وسلوك البشر ، وليضيف الكتاب أيضًا ما ينفع المرشدين والمعالجين المسلمين فى عملهم .

واشتمل الكتاب على بحوث فى الصحة النفسية وفى شخصية المسلم وفى الأهداف العامة لمساعدة الأفراد على مواجهة المشكلات ، كما يقدم رؤية نقدية فى نظريات الإرشاد الغربية ، ويقدم بعد ذلك العلاج النفسى من منظور إسلامى وتصوير الإسلام لنماذج السلوك البشرى . ويعرض لرياضة الأخلاق عند الغزالى مقارنة بالعلاج السلوكى الحديث ويقدم أخيرًا نموذجًا إسلاميا لتفسير الغضب وعلاجه .

وبعد ، فنسأل الله أن يفيد هذا الكتاب فى العلاج النفسى والإرشاد السلوكى الإسلامى لكل من يطلع عليه من متخصصين وعامة .

هانى أحمد غريب

